الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة غرداية

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم العلوم الإسلامية

مخبر الجنوب الجزائري للبحث

في التاريخ والحضارة الإسلامية

السّياق وأثره في بيان معاني القصص في القرآن

(قصص غير الأنبياء نموذجا)

أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه علوم في العلوم الإسلامية تخصص: كتاب وسنة

إعداد الطالب: خيرالناس يس

لجنة المناقشة:

الرقم	الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
01	أ.د الشيهاني حمو	أستاذ	جامعة غرداية	رئيسا
02	أ.د حاج امحمد قاسم	أستاذ	جامعة غرداية	مشرفا ومقررا
03	د بولقصاع محمد	محاضر أ	جامعة غرداية	عضوا مناقشا
04	أ.د قبلي بن هني	أستاذ	جامعة الأغواط	عضوا مناقشا
05	أ.د ربيعي ميلود	أستاذ	جامعة النعامة	عضوا مناقشا
06	د تمزغين محمد	محاضر أ	جامعة الجزائر	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1442- 1443هـ/2021-2022م

بسم الله الرحمن الرحیم

إهداء

إلى أبي الغالي الذي كان سندي في دراستي وأضاء لي دروب النّجاح

إلى روح أمّي الطّاهرة، أدعوك يا ربّ أن ترحمها كما ربّتني صغيرا

إلى إخوتي وأخواتي الذين يحرصـــون دائما وأبدا على احترام العلم وأهله ومن خلالهم إلى الأسرة الكبيرة

إلى رفيقة الدّرب زوجتي التي ما شكت يوما انشغالي بالعمل عنها بل كانت خير عون لي على ذلك

إلى أولادي لقمان ومحمد الأمين وعبد الغني

إلى أساتذتي الأجلاّء وكلّ من علّمني حرفا منذ نعومة أظفاري

إلى أصدقائي الخلّص الأوفياء

إلى كلّ باحث مُجدّ

إليكم جميعا أُهدي هذا الجهد العلمي المُتواضع

شكر وتقدير

أشكر الله تعالى أن يسّر لي السّبل لإنجاز هذا البحث ووفّقني لإتمامه.

والشّكر موصول لكلّ من أسهم في إعداد هذه الدّراسة

مشرفي الأستاذ الدكتور قاسم حاج محمد حفظه الله ورعاه ونفع بعلمه المسلمين جميعا.

أستاذي الدكتور محمد رضا الحوري الذي أشرف على توجيهي طيلة فترة التكوين الإقامي بالمملكة الأردنية الهاشمية.

سادتي أعضاء لجنة المناقشة الذين تفضّلوا بقبول مناقشة هذا البحث وتقويمه ومعالجة أخطائه.

القائمون على دور البحث والتفرّغ في كلّ من: مؤسسة دار الإمام بالقرارة، ودار العلم للبحث والمعرفة ودار إروان ومكتبة النهضة بالعطف، ومكتبة جامعة اليرموك الأردنية، وسائر المكتبات التي هيّأت لي ظروف البحث ووفّرت لي مصادره ومراجعه.

وكلّ من أعانني في إنجاز هذا البحث بفكرة أو كتاب أو دعاء أو تشجيع.

إليكم جميعا أُجدّد شكري وامتناني وأسأل الله تعالى أن يجزي معروفكم بالبرّ والإحسان.

مقدّمة:

الحمد لله الذي أنزل الكتاب على عبده ليكون للعالمين نذيرا، وأصلّي وأسلّم على من كان خلقه القرآن سيّدنا محمّد عليه أزكى الصّلاة وأتمّ التّسليم وبعد:

فإنّ القرآن الكريم كلام الله تعالى المنزّل على نبيّنا محمّد ﷺ على مدى ثلاث وعشرين سنة، احتوى على العديد من التّشريعات والأوامر والنّواهي، والأمثال، و غيرها ممّا يحقّق المقصد من التّنزيل من هداية النّاس وإرشادهم إلى الطّريق المستقيم، والله تعالى تكفّل بحفظه وترتيب آيه وسوره وفق نظام بديع وتناسق عجيب، تحدّى العرب بأن يأتوا بمثله ولو في جزء منه، فحاولوا ولم يفلحوا في مجاراته، والعلماء إذ ينظرون إلى القرآن الكريم من عدّة أوجه يحاولون من خلالها بيان مراد الله من كلامه وقفوا أمام دقّة نظمه وحسن ترتيبه وتناسق أجزائه ممّا حدا بهم الأمر إلى الكتابة فيه واستخراج أسرار هذا التّناسق العجيب، فكان موضوع السّياق من المحاور المهمّة في هذا الجانب، حيث اهتمّ به المفسّرون من أمثال إمام المفسّرين الطبري، وسيّد قطب، وابن عاشور، وكذا اللّغويون والبلاغيون من أمثال عبد القاهر الجرجاني وغيرهم مأكّدين على أهمّية الأخذ به في بيان المعاني، بل واعتباره أصلا من أصول التّفسير وعنصر مهمّ في الكشف عن مراد الله ولا يُستغنى عنه بحال.

أمّا عُنصر القصص فقد ورد في كتاب الله في مواضع متعددة فنجده في المكّي والمدني وفي سورة واحدة وفي مواضع متعددة من السورة، ونجدها أيضا بأساليب متنوّعة، ممّا جعلها تأخذ مساحة الرّبع من القرآن الكريم، وقصص غير الأنبياء قسم من أقسام القصص في القرآن وهي نماذج لأقوام و أشخاص خصّهم الله تعالى بالذّكر في كتابه العزيز من بين ملايين المجتمعات والأفراد ممّا يستدعي الوقوف عندها فهما تدبّرا وتحليلا لأحداثها واستخراج أبعادها العقديّة والايمانية والدعويّة والاجتماعيّة والنّفسيّة وغيرها، فتخليدها في القرآن الكريم دعوة إلى الاعتبار والتفكّر في مصائر الأفراد والجماعات والنّظر إلى سنن الله تعالى التّي لا تحابي أحدا، والله تعالى

قد بيّن لنا منهج النّظر فيها فقال:﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُومِنُونَ** ﴾ [يوسف:111] فليس القصص القرآني للتّسلية وسرد الأحداث وإنّما للنّظر والاعتبار، ولا يتأتّى ذلك إلاّ لأولي الألباب، وإفرادها بالدّراسة المتخصّصة أدعى إلى بيان أوجه العبرة والمعاني المتعلّقة بها، ولعلّ إعمال نظريّة السّياق على قصص غير الأنبياء تكون مفيدة جدّا في فهم معاني الآيات الّتي ذكرت أحداث قصص غير الأنبياء ضمن السّياق الذي وردت فيه، فمن هذا المنطلق كان عنوان الدّراسة: السّياق وأثره في بيان معاني القصص في القرآن – قصص غير الأنبياء نموذجا–

أهمّية البحث:

تتمثل أهمّية الدراسة في عدّة جوانب منها:

- كونها متّصلة ومتعلّقة بأشرف وأقدس كتاب وهو القرآن الكريم والحقّ المبين الذّي لا ينضب معينه.
- أنّها متّصلة بنظريّة السّياق المعينة على فهم المراد من كلام الله، من خلال دراسة القصص ضمن وحدة القرآن الكريم.
- الدّراسة أيضا تتناول موضوع القصص القرآني الذي شغل مساحة الربع في القرآن الكريم، وتعتبر أيضا من أساليب التّعبير الفنّيّة الّتي ساقها القرآن الكريم كأداة يسيرة لفهم معانيه وتدبّره وكشف أبعاده وأسرار إعجازه.
- كونها متعلّقة بمباحث مهمّة في تفسير آيات القرآن كتفسير المبهمات، وبيان مقاصد القرآن، والكشف عن الإسرائيليات.

إشكالية البحث:

ورد قصص غير الأنبياء في القرآن الكريم في مواضع عدة فمن حيث الزمن نجد المكّي والمدني ومن حيث الموضع داخل السّورة، بعضها في أوّل السورة وبعضها في آخرها وبعضها في وسط

السورة، ومن حيث حجم السورة نجد بعضها في الطوال وبعضها في قصار السور مما يدل على وجود أغراض كثيرة وأسرار عظيمة تتضمنّها القصّة بالنّظر إلى ذلك التنوّع؛ ولما كانت نظرية السّياق مفيدة في فهم معاني النصّ الشّرعي من القرآن والحديث فإلى أيّ مدى يمكننا الاستفادة من السّياق القرآني في استنباط المعاني الواردة في قصص غير الأنبياء؟ وما هي أغراض القصص القرآني في ضوء تلك النّظريّة؟

وعلى غرار ما سبق فإنّ أسئلة الدّراسة تكون كالآتي:

1- ما المقصود بالسّياق القرآني وما هي حدوده تعريفه؟
2- ما هي أهمّ أهداف وخصائص القصّة القرآنيّة؟
3- ما أهمية اعتبار السّياق في العملية التّفسيريّة لآيات الذكر الحكيم؟
4- ما هو دور السّياق القرآني في بيان معاني قصص غير الأنبياء؟

أهداف البحث:

يسعى الباحث من خلال هذه الدّراسة تحقيق الأهداف الآتية:

1- إبراز أهميّة النّظر إلى السّياق القرآني في العمليّة التّفسيريّة للقرآن الكريم.
2- الكشف عن أهميّة السّياق في فهم قصص غير الأنبياء.
3- بيان مدى عناية القرآن الكريم بالقصص القرآني كأسلوب للهداية والبيان.
4- الاسهام في إثراء الدّراسات المنهجية التحليليّة العلميّة حول قصص غير الأنبياء في القرآن الكريم.

أسباب اختيار الموضوع:

من جملة الأسباب التي دعت الباحث إلى تناول هذا الموضوع ما يلي:

1- أنّ موضوع قصص غير الأنبياء هو امتداد لرسالتي في الماجستير ورغبة منّي في استكمال هذا الموضوع بمحاولة استقراء ما هو متعلّق به في القرآن الكريم.

2- كون السّياق أصل من أصول التّفسير، وربطه بقصص غير الأنبياء من شأنه إبراز معان كثيرة وأبعاد مختلفة المجالات.

حدود الدّراسة:

تتقيّد الدّراسة ببحث موضوع الأطروحة في إطار مفهوم نظريّة السّياق القرآني وكذا القصّة القرآنية وبالتّحديد في قصص السّابقين باستثناء قصص الأنبياء، حسب التّعريف المختار لقصص غير الأنبياء في الدّراسة.

منهجية الدّراسة:

حاول الباحث من خلال موضوع البحث الالتزام ببعض النّقاط المنهجيّة الآتية:

- عرض القصص الوارد في القرآن والخاصّ بغير الأنبياء.
- الاستعانة بالتّفاسير التّي اهتمّت بإبراز جانب السّياق القرآني، والكشف عن مقاصد السور والمناسبات بين السّور والآيات مثل: تفسير الطبري: جامع البيان، والبقاعي في كتابه: نظم الدرر في تناسب السّور، وتفسير سيّد قطب في ظلال القرآن، وتفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، وتفسير روح المعاني للألوسي وغيرها من التّفاسير التّي أولت هذا الجانب عناية في محاولة الكشف عن مُراد الله من كلامه.
- اعتمد الباحث في إيراد النّصوص على التّرتيب التاريخي للمصادر والمراجع.
- الاقتصار في نظرية السّياق على الجانب اللغوي والدلالي دون الجانب الصّرفي والنحوي.
- لم أعتمد على كتب التّاريخ التّي تطرّقت إلى موضوع القصص وحاولت دراسة القصّة وفق منهج القرآن الكريم في عرض القصص والذي يركّز على بيان العبرة وعدم الالتفات إلى تفاصيل القصّة كلّها من ذكر أسماء الشّخصيّات والأماكن وغيرها من الأمور التي تدخل في مبهمات القرآن.

- اعتمدت في تخريج الأحاديث على الصّحيحين فإن لم يوجد وثّقته من مصادر السّنة الأخرى.
- الاعتماد في الإحالة إلى المصادر والمراجع على التّقسيم الآتي:

ذكر المصدر بمعلوماته الكاملة في أوّل إيراد، وذكر اسم المؤلّف والمصدر في حال تكراره.

المرجع نفسه: عند تكرار المصدر في الصّفحة نفسها.

- وضع فهارس تيسّر على القارئ عمليّة البحث وسهولة الوصول إلى المعلومة كالآتي:

فهرس الآيات القرآنية: ورتّبتها حسب الترتيب القرآني للسّور والآيات.

فهرس الأحاديث: وفيه ذكر لطرف الحديث ومصدره مرتّبة ترتيبا ألفبائيّا.

فهرس المصادر والمراجع: مرتّبة ترتيبا ألفبائيّا، ومصنّفة تصنيفا موضوعيّا، ككتب التفسير، وكتب علوم القرآن والقصّة، وغيرها.

- وضع خلاصة في نهاية البحث باللّغة العربية واللّغة الإنجليزيّة.

صعوبات البحث:

من جملة الصّعوبات التّي واجهت الباحث في هذه الدّراسة ما يلي:

1- قلّة المصادر والمراجع المتعلّقة بنظريّة السّياق القرآني تأصيلا وتقعيدا.
2- استخراج معاني الآيات القرآنية وفق نظريّة السّياق القرآني مما يدخل في الجانب الاجتهادي للمتلقّي، وتختلف وجهات النّظر حولها من مفسّر إلى آخر ولا تتقيّد بقواعد منهجيّة مُجمع عليها ممّا يُصعّب على الباحث أحيانا التّوفيق بينها والخروج برأي جامع، أو تبنّي رأي آخر.
3- تشابك مفاهيم نظرية السّياق القرآني مع بعض المصطلحات الخاصّة بعلوم القرآن مثل النّظم وعلم المناسبات، واستعمال المفسّرين القُدامى والمحدثين لهذه المصطلحات أحيانا بمعنى واحد.

مناهج البحث:

اقتضت طبيعة موضوع البحث أن يلتزم الباحث بالمناهج التالية:

المنهج الاستقرائي: وهو ما يمكن الاستفادة منه في بيان مفهوم السّياق من خلال استقراء آراء العلماء، وكذا استقراء تأويلات المفسّرين لمعاني القصص موضوع الدّراسة، أو ما تناوله الباحثون في كتب مستقلّة، وأبحاث ومقالات.

المنهج التحليلي: وهو المنهج الذي سنتبعه لتحليل المعاني الواردة في القصّة والاستفادة من أقوال العلماء والمفسرين والنّظر فيها للوصول إلى الفهم السّليم.

المنهج الاستنباطي: وهو المنهج المناسب لاستخلاص العلاقة بين القصّة والسياق القرآني وما بينهما من ترابط وكذا استخراج السّياق العام لكلّ سورة، وسياق المقطع والقصّة.

الدّراسات السابقة:

يمكن أن نصنف الدّراسات السابقة في هذا الموضوع إلى نوعين:

أوّلا: دراسات اهتمت بالسّياق القرآني للقصّة القرآنية

- **القصة القرآنية ومناسبتها للسياق القرآني** لبثينة محمود عبد الرحيم، رسالة ماجستير في القرآن الكريم وعلومه، نوقشت بجامعة آل البيت بالأردن سنة 2000م، وهذه الدّراسة ذكرت الباحثة فيه تعريفا للقصّة وبينت أغراضها وخصائصها، وكذا التناسب بين القصّة والسّياق في القرآن الكريم حيث بيّنت التّناسق المعنوي بينهما واختلاف الألفاظ في السياقات المتعددة وهذا ما يتوافق مع دراستي في الخطوط العريضة أمّا الفروع فتختلف من حيث بيانُ العلاقة بين القصّة وسياق السورة واقتصرت على دراسة

نموذجين من القصص وهي قصّة سيدنا آدم وقصّة سيّدنا موسى عليهما السّلام، أمّا هذا البحث فيختص بقصص غير الأنبياء المذكورة في القرآن الكريم.

- **أثر دلالة السياق القرآني في توجيه معنى المتشابه اللفظي في القصص القرآني دراسة نظرية تطبيقية على آيات قصص نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام**، ل: تهاني بنت سالم، رسالة ماجستير في التفسير وعلوم القرآن من جامعة أم القرى بمكة المكرمة 2007م، وهذه الدّراسة أيضا تتّفق مع دراستي في جانب السّياق القرآني نظريا، أما القصص فتختلف معها في نوع القصص الخاص بغير الأنبياء، وكذا منهج الدّراسة المتعلّق ببيان معاني الآيات في القصص على ضوء نظريّة السّياق.
- **دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى – عليه السلام –** ل: فهد بن شتوي، وهي رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

ثانيا: دراسات اهتمت بالسّياق القرآني بشكل عام

- **السّياق القرآني وأثره في الترجيح الدلالي** ل: المثنى عبد الفتاح محمود رسالة دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن بجامعة اليرموك الأردنية 2005م.
- **السّياق القرآني ودلالته على التّرجيح في تفسير التّحرير والتنوير للطّاهر بن عاشور** ل: محمد بن إبراهيم بن عبد الله الشمسان، وهي رسالة ماجستير في التفسير وعلوم القرآن من جامعة أم القرى بمكة المكرمة.
- **السياق القرآني وأثره في التفسير دراسة نظرية وتطبيقية من خلال تفسير ابن كثير** للطالب عبد الرحمن عبد الله سرور جرمان المطيري وهي رسالة ماجستير 2008 في جامعة أم القرى بالسعودية.

وهذه الدّراسات اهتمت بالجانب السّياقي والتّي تتفق مع دراستي في الجانب النّظري غير أنّها تختلف معها في الجانب التّطبيقي حيث ركّزت دراستي على قصص غير الأنبياء، وهو ما لم تتناوله الدّراسات الأخرى.

- **قصص السّابقين من غير الأنبياء في القرآن وعلاقتها بالمقصد العام للسّورة**، وهي رسالتي في الماجستير نوقشت بجامعة اليرموك الأردنية سنة 2015م

وقد اهتمّت بإبراز جانبين: الأوّل في بيان المقصد العام للسّورة والثّاني ببيان العلاقة بين القصّة والمقصد العام للسّورة، واقتصرت على نماذج من قصص غير الأنبياء كقصّة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، وقصة طالوت، والذي مرّ على قرية في سورة البقرة، والقصص الوارد في سورة الكهف، وقصّة ابني آدم في سورة المائدة وقصّة أصحاب الجنّة في سورة القلم.

أمّا هذه الدّراسة التّي بين أيدينا فتهتمّ بجانبين مهمّين آخرين هما:

الأوّل: دراسة القصّة وبيان معانيها في ضوء نظريّة السّياق القرآني.

الثاني: محاولة استقراء كلّ القصص الوارد في القرآن والخاصّ بغير الأنبياء، ودراستها، وكذا ضبط مفهوم قصص غير الأنبياء.

هذه بعض الدّراسات الأكاديمية التّي أُلّفت في الموضوع إضافة إلى كتب ودراسات أخرى في مجال السّياق وفي مجال قصص السّابقين، استعنت بها كمراجع للبحث.

عرض خطّة البحث:

بالنظر إلى مضمون ما ورد من قصص غير الأنبياء في القرآن الكريم ومراعاة لأهداف البحث فإنّي اخترت تصنيفها تصنيفا موضوعيا وفق الخطّة الآتية:

مقدّمة تضمّنت عرض إشكالية البحث وأهمية البحث وأهدافه وأبرز الدّراسات السابقة، **الفصل الأوّل** خصّصته لبيان المفاهيم الأساسيّة للدّراسة فأفردته بمبحثين وعدّة مطالب، **الأوّل** متعلّق بالسّياق القرآني وبيان أنواعه وخصائصه وضوابطه وأهمّية النّظر إلى السّياق عند تفسير الآيات، ثمّ المبحث **الثّاني** الذي يتضمّن الحديث عن القصّة في القرآن و ذكر لأهمّ أهدافها وخصائصها، وبيان مفهوم قصص غير الأنبياء، أمّا **الفصل الثّاني والثّالث والرّابع** فكان للجانب التّطبيقي ومحاولة بيان معاني القصص في ضوء نظريّة السياق، وقسّمتها إلى ثلاث مجالات حسب الموضوع الذّي يركّز عليه السّياق والمحور الذي تدور عليه معاني القصّة، فكان

عنوان **الفصل الثاني: أثر السّياق في بيان المعاني العقديّة الإيمانية في آيات القصص، والفصل الثّالث: أثر السّياق في بيان المعاني المتعلّقة بالجانب الدّعوي في آيات القصص، والفصل الرّابع: أثر السّياق في بيان المعاني المتعلّقة بالجانب الاجتماعي في آيات القصص**، وتمّ خلاله دراسة كلّ قصّة في ثلاثة أو أربعة مطالب ببيان السّياق العام للسّورة، ثمّ سياق المقطع ثمّ سياق القصّة وتحكيم السّياق في بعض القضايا المتعلّقة بالقصّة، وفي آخر البحث **خاتمة** لأهمّ النّتائج والتّوصيّات.

خطّة البحث التفصيليّة:

مقدمة

الفصل الأوّل: تحديد مفاهيم الدّراسة

المبحث الأوّل: التّعريف بالسّياق القرآني وأنواعه وأهميته

المبحث الثاني: تعريف القصّة في القرآن وأهمّ أهدافها وخصائصها

أمّا الجانب التّطبيقي ففيه ثلاثة فصول ومباحث موزّعة عليها ومطالب أربعة تتناول: السّياق العام للسّورة، وسياق المقطع، وعلاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة، وتحكيم السّياق في بعض قضايا القصّة، وهي كالآتي:

الفصل الثّاني: أثر السّياق في بيان المعاني العقديّة الايمانية في آيات القصص

تمهيد

المبحث الأول: قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة

المبحث الثاني: قدرة الله على البعث والنّشور

المبحث الثالث: وحدانية الله تعالى

المبحث الرابع: عاقبة عدم الثّبات على الحقّ بعد معرفته والتّحايل على أوامر الله

المبحث الخامس: عاقبة من أنعم الله عليه بالعلم ولم يثبت على الحقّ

المبحث السادس: ابتلاء الله للمؤمن في دينه وسبل الثّبات على الإيمان

المبحث السابع: كمال قدرة الله تعالى على الخلق والتّكوين

المبحث الثامن: حكمة الله تعالى في الابتلاء بالعطاء والمنع وعاقبة ذلك

المبحث التاسع: التّضحية في سبيل الله والثّبات على الحقّ

المبحث العاشر: رعاية الله لبيته المقدّس

الفصل الثالث: أثر السّياق في بيان المعاني المتعلّقة بالجانب الدّعوي في آيات القصص

تمهيد

المبحث الأوّل: دعوة الله تعالى إلى الجهاد في سبيله

المبحث الثاني: متطلّبات الجهاد والصّبر عليه

المبحث الثالث: السّعي لنشر الدّعوة والابتلاء بالملك

المبحث الرابع: أسلوب الدّعوة ومضمونها

المبحث الخامس: مجادلة الرّسل وثواب تأييد دعوتهم

المبحث السادس: تأييد دعوة الرّسل بالموعظة

الفصل الرّابع: أثر السّياق في بيان المعاني المتعلّقة بالجانب الاجتماعي في آيات القصص

المبحث الأول: خطورة الحسد في السّلوك البشري وعاقبته

المبحث الثاني: الابتلاء بالمنع والعطاء

المبحث الثالث: أحوال العالم والمتعلّم

المبحث الرابع: صفات الشّخصيّة المؤمنة الصّابرة

المبحث الخامس: الآداب الاجتماعية

المبحث السادس: بيان عاقبة مسلك البغي والطّغيان المالي

المبحث السّابع: الابتلاء بالخير وعاقبة منع حقوق الغير

خاتمة

التّوصيّات وأهمّ النّتائج

الفصل الأوّل: تحديد مفاهيم الدّراسة

وفيه مبحثين وعدّة مطالب:

❖**المبحث الأوّل: السّياق القرآني وأنواعه وأهميّته وضوابطه**

المطلب الأوّل: مفهوم السياق لغة واصطلاحا

المطلب الثاني: أنواع السياق

المطلب الثالث: أهمية السّياق القرآني في التفسير

المطلب الرابع: ضوابط السياق

❖**المبحث الثاني: مفهوم القصّة القرآنيّة وأهمّ أهدافها وخصائصها**

المطلب الأول: تعريف القصة القرآنية

المطلب الثاني: مرادفات مصطلح القصص في القرآن

المطلب الثالث: مفهوم قصص غير الأنبياء

المطلب الرابع: من أهداف القصة القرآنية

المطلب الخامس: من خصائص القصة القرآنية

المبحث الأوّل: السّياق القرآني أنواعه، أهميّته، وضوابطه

تأخذ المفاهيم جانبا مهمّا في حياة الأمّة الفكريّة والعلميّة على حدّ سواء، فبتحديد مفاهيم المعاني يتّضح المنهج العلمي الذّي يسير عليه الباحث في مجال دراسته، فمن خلال هذا المبحث يحاول الباحث توضيح مفهوم السياق القرآني من حيث حدُّه ومفهومُه وأنواعُه وكذا أهميّته في تفسير آيات القرآن الكريم.

المطلب الأوّل: مفهوم السياق لغة واصطلاحا

وردت عدة معان للفظ "السياق" في اللغة والاصطلاح، وتنوعت المحامل والدلالات حوله، ويحاول الباحث من خلال هذا المبحث التوصّل إلى بيان معنى دقيق له بذكر ما كتبه الأقدمون والمعاصرون حول مصطلح السّياق القرآني، ثمّ العمل على الخروج بخلاصة تبيّن حدود مفهوم السّياق، مبرزا خلاله المعنى اللغوي ثمّ المعنى الاصطلاحي.

أوّلا: السياق لغة

كلمة سياق مأخوذة من الجذر اللغوي (س و ق)، والكلمة مصدر (ساق يسوق سوقاً وسياقاً)، وعند تتبّع هذه المفردة في المعاجم اللغويّة نجد أنّها تحمل عدّة معان:

حدو الشّيء: جاء عند ابن فارس:" (سوق) السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حَدْوُ الشَّيء. يقال ساقه يسوقه سَوقاً"[1].

التتابع و اللّحوق: جاء عن ابن منظور: في مادة (سوق) "السَّوق معروف ساقَ الإبلَ وغيرَها يَسُوقها سَوْقاً وسِياقاً وهو سائقٌ وسَوَّاق... و المساوَقة المتابعة كأنّ بعضَها يسوق بعضاً... ويقال له السِّياق أيضاً، وأَصله سِواق فقلبت الواو ياء لكسرة السين وهما مصدران من ساقَ يَسُوق وفي الحديث: "حَضَرْنا عمرو بن العاصِ وهو في سِياق الموت"... ووُلِدَ لفلان ثلاثةُ

---

(1) - ابن فارِس أبي الحسين أحمد بن زَكَرِيّا (ت: 395 هـ)، **مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السَّلام محمد هَارُون، اتحاد الكتاب العرب، ط: د ر ط، 1423 هـ / 2002م، ج3، ص 90.

أولاد ساقاً على ساقٍ أي واحدا في إثر واحد وولَدَتْ ثلاثةً على ساقٍ واحدة أي بعضُهم في إثر بعض ليست بينهم جارية وبنى القوم بيوتَهم على ساقٍ واحدة"[1]، فالسوق إذا المكان الذّي تُساق إليه البضائع وتُجمع وتُعرض فيه بانتظام، وفي تتابع الأولاد في الولادة بترتيب ليس بينهم فاصل يُبيّن معنى السّابق واللاحق بما يشكّل حلقة متسلسلة مترابطة، متواصلة و متوازنة.

وفي المعجم الوسيط، السياق بمعنى النّزع "فيقال: هو في السياق الاحتضار"[2]، وكأن النّفس في حالة الاحتضار تساق لتخرج من البدن.

خلاصة القول أنّ المعاني اللغوية لكلمة سياق تدور حول التتابع والتّوالي وحذو الشّيء والسّرد والنّزع وهي تكمّل بعضها بعضا، ولا تخرج عن أصلها الذّي وضعت فيه أوّل الأمر، ويضيف صاحب كتاب نظرية السّياق القرآني معنى آخر يتمثّل في الغاية التي يمكن الوصول إليها بقوله: "انتظام متوالٍ في الحركة لبلوغ غاية محددة"[3]؛ فالمستمع لكلام أو حدث أو قصّة يتتبّع الكلمات والأحداث ليصل إلى نتيجة في الأخير وهي الغاية والقصد منه، وبذا يمكن القول بأن السوق والسياق بمعنى التتابع بين الأشياء لبلوغ غاية مشتركة من دون فاصل بينها؛ فماهي العلاقة إذا بين هذا المعنى اللّغوي وبين معناه الاصطلاحي؟

ثانيا: السياق القرآني اصطلاحا

رغم اهتمام العلماء الأقدمين بنظرية السياق عمليّا إلاّ أنّه لم ترد تعريفات للسّياق بحياله، وإنما كانت الإشارة إلى أهميته في قراءة النصّ وفهم معانيه، ومنزلته في العملية التفسيرية، ومن ذلك قول الزركشي: "ليكن محطّ نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له، وإن خالف

---

(1) - ابن منظور محمد بن مكرم (ت: 711 هـ)، **لسان العرب**، دار صادر – بيروت- ط:1، د س ط، ج10، ص 166.

(2) - إبراهيم مصطفى ـ أحمد الزيات ـ حامد عبد القادر ـ محمد النجار، **المعجم الوسيط**، تحق: مجمع اللغة العربية دار الدعوة، ج 1، ص465.

(3) - المثنى عبد الفتاح محمود، **نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية دلالية نقدية** ، دار وائل للنشر، الأردن، ط:1، 1429هـ، 2008م، ص 14.

أصل الوضع اللغوي لثبوت التجوز"[1]، ففهم مراد الله من كلامه لا يكون بمعرفة معاني الألفاظ بمفردها، ولكن نجد لها معنى آخر في الموضع الذي وردت فيه، استنادا وارتباطا بالسّابق والآّحق و معرفة حال المخاطبين زمن الخطاب، وإلى قريب من ذلك أيضا ذهب السيوطي حيث عدّه من شروط التّفسير وآدابه، وقال بأنه لابد من "التفسير بالمقتضى من معنى الكلام"[2]، وذلك بأن لا تكون نظرة المفسّر مقتصرة على المعنى الظاهر ولكن ينبغي مراعاة ما انضم إليه من القرائن، بحيث تحصُل له نظرة متكاملة للوصول إلى المعنى الصّحيح.

هذه نظرة بعض العلماء الأقدمين إلى السياق، أمّا الباحثون المعاصرون فقد كان لبعضهم محاولة لضبط مفهومه نذكر منهم الدكتور المثنى عبد الفتاح الذّي صاغ مفهوما للسّياق القرآني بعد بحث ونقد لجملة من التّعريفات حيث قال إنّه:" تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود دون انقطاع أو انفصال[3]، وعرّفه أيضا المطيري عبد الرحمن في رسالة أكاديمية بعد استقرائه تعريفات بعض العلماء بأنّه:" تتابع المفردات والجمل والتراكيب القرآنية المترابطة لأداء المعنى"[4].

ومن خلال هذين التعريفين يمكن ملاحظة التّقارب بين التّعريف اللّغوي والاصطلاحي للسّياق، فالمعنى اللّغوي يقتصر على ثلاثة عناصر مهمّة هي: التتابع بين الأشياء، والترابط بينها، وغاية مشتركة تنتظم في سلكها؛ لِدى فإنّ الأنسب في رأي الباحث ما ذكره الدكتور المثنى عبد الفتاح لاشتماله على هذه العناصر الأساسيّة، وقصرها على مفردات القرآن الكريم

---

(1) - الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله (ت : 794هـ)، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط:1، 1376 هـ - 1957 م، ج1، ص 317.

(2) - السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت: 911هـ) **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: د ر ط، 1394هـ/ 1974 م، ج4، ص 209.

(3) - المثنى عبد الفتاح محمود، **نظرية السياق القرآني**، مرجع سابق، ص 15.

(4) - عبد الرحمن عبد الله سرور جرمان المطيري، **السياق القرآني و أثره في التفسير**، دراسة نظرية وتطبيقية من خلال تفسير ابن كثير، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى كلية أصول الدين، ص 71.

بحيث يصرف النّظر عن تعريفات اللّغويين له في الدّراسات الأدبيّة، وكذا الإشارة إلى أهمّ قيد فيه وهو التّرابط والتّسلسل " ترابط المعاني الفرعية لخدمة المعنى الأصل الوارد ذكره في السورة أو المقطع، وانتظامها: أي أن هذه المعاني تسير سيرا منتظما مقصودا من قِبل المتكلّم غير مشتّتة ولا مبعثرة"[1]، ليكتمل المعنى الذي سيقت من أجله تلك الآيات، وبهذا يتّضح لدينا مفهوم السّياق القرآني في هذا الإطار ويتجلّى لنا أكثر في الجانب التّطبيقي من فصول هذه الدّراسة.

المطلب الثاني: أنواع السياق

للسّياق القرآني عدّة أنواع منها سياق السّورة الذي يرتبط بالوحدة الموضوعية للسورة ببيان المحور الذي تدور عليه آيات السورة المترابطة، وسياق المقطع الذي يشكّل محورا من محاور سياق السّورة، وسياق الآية الذي يرتبط ببيان معاني ألفاظها، وكل من السياقين الأخيرين يصبّان في محور السورة الرئيسي ويرتبطان به ارتباطا وثيقا.

أوّلا: سياق السّورة

وهو ما يكون في السورة كلها من بدايتها إلى منتاها بمعرفة الرّكيزة الأساسيّة التّي تدور حولها معاني الآيات، وقد تختلف نظرة الباحثين في توصيف تلك الرّكيزة كل حسب وجهة نظره والنهج الذي يسير عليه في النّظر إلى مجموع معاني السورة، ولكن المتّفق عليه أنّ هذا الأمر ينبغي الأخذ به في العمليّة التّفسيريّة، وهو ما أشار إليه الدكتور محمد عبد الله دراز قائلا:

" اعمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد وما أكثرها في القرآن، فهي -جمهرته -وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة، ثم ارجع البصر كرتين: كيف بدئت؟ وكيف ختمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطّئت أولاها لأخرها؟ وأنا لك زعيم بأنّك لن تجد ألبتة في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السّورة قد نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتّى؟ ... أجل

[1]- المثنى عبد الفتاح محمود، نظرية السياق القرآني، ص 16.

إنك لتقرأ السّورة الطّويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثا من المعاني حشيت حشوا، وأوزاعا من المباني جمعت عفوا فإذا هي لو -تدبّرت- بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكليّة على أساس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضامِّ والالتحاق. كل ذلك بغير تكلفة ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السّياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلًا، والمختلف مؤتلفًا"[1] ثم يشير بعد ذلك إلى أهمية اعتبار السياق العام للسورة قبل البدأ في تفصيل القول فيها "بأنّ السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني تقضي بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه، فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضعية بين جزء و جزء منه -وهي تلك الصلات المبثوثة في مثاني الآيات ومقاطعها- إلا بعد أن يُحكم النّظر في السّورة كلّها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها على وجه يكون معوانًا له على السير في تلك التفاصيل عن بينة"[2]، ونتيجة لذلك فإنّ النّظرة الكليّة إلى السّورة خطوة مهمّة للتعرّف على المعاني الجزئية والمقاطع المكونة للسّورة والمنتظمة في خط يخدم موضوعها ومحورها العام، فإنّ المتتبّع لمعاني السّورة المتقصّد معرفة سياقها يعتمد اعتمادا كبيرا على منهج التّفسير التّحليلي، فيفصّل السّورة إلى مقاطع، والمقاطع إلى آيات ويبيّن وجه التّناسب بين الآيات حتّى يتمّ الفصل في هذا الجانب.

---

(1) - دراز محمد بن عبد الله (ت: 1377هـ)، **النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم**، اعتنى به : أحمد مصطفى فضلية، دار القلم للنشر والتوزيع، ط: 1426هـ- 2005م، ج1، ص 187 – 188.

(2) - دراز: المرجع نفسه، ص 192.

ثانيا: سياق المقطع

ويقصد به مجموع آيات في سورة واحدة متّحدة في غرض واحد، وسمّيت بالمقطع لأنّها مقتطعة من مجموع آيات السورة، والسورة جزء داخل في منظومة القرآن المتكاملة، منها ما يختص بموضوع واحد ومنها ما يختص بعدّة موضوعات، ومعرفة سياق المقطع، له دور مهمّ في إبراز تلك الموضوعات القرآنية، ولكن يسبق ذلك تحليل مفردات سياق المقطع وبيان التناسب والتناسق بينها لإبراز الموضوع الذي تنتهي إليه المعاني المستنبطة منها، وهذا الجانب كان منظورا إليه منذ القدم فممّا رُوى عن الرسول ﷺ أنّه كان يقرأ آيات محدّدة في زمن ومناسبة معيّنين لتناسب موضوع تلك الآيات مع الحالة التي يكون فيها ﷺ فقد كان يقرأ العشر الخواتم من سورة " آل عمران" قبل صلاة اللّيل في كلّ ليلة مثلما ذكر ابن حبان في صحيحه « أنّ بلالا جاءه يُؤْذنه بالصّلاة فلمّا رآه يبكي قال: يا رسول الله لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر قال "أفلا أكون عبدا شكورا لقد نزلت عليّ الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها: ﴿ اِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ ﴾[1]»، فقراءته عليه السّلام وصلاته بهذه الآيات وفي تلك الأوقات يدلّ على أنّ موضوعها له صلة بالعمل الذي أقدم عليه من قيام وذكر وتفكّر في خلق الله عزّ وجلّ.

وقد أشار الامام الشاطبي في كتابه الموافقات إلى أهميّة الالتفات إلى هذا الجانب للنّاظر في كتاب الله حيث أكّد على ضرورة الرّبط بين الجمل والآيات وربطها بسابقها ولاحقها في سياق المقطع الذّي عبّر عنه بالقضيّة الواحدة ثمّ ربطها بسياق السّورة حتّى يكتمل بناء المعنى، مع

---

(1) - ابن حبان محمد بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ (ت: 354هـ)، **صحيح ابن حبان** بترتيب ابن بلبان، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت- لبنان، ط:2، 1414 – 1993م، باب: التوبة،ج2، ص386.

مراعاة مقتضى الحال فيها[1]، فالمنهج إذا لمعرفة معاني آيات المقطع يستند إلى التّحليل والرّبط بين المعاني للوقوف على المعنى المنضبط على بيّنة.

ثالثا: سياق الآية

بعد أن عرض الباحث مفهوم سياق السّورة والمقطع وبيّن ما لهما من أثر ترابطي للمعاني، يتبقّى الحديث عن جزء أخصّ وهو سياق الآية إذ يُعتبر الجزء الأصغر المتمحور حول الكلمة، ومن العلماء الذين تحدّثوا عن هذا الجانب وأهمية النظر إليه الامام السّيوطي الذّي يرى بأن الآية من حيث التّرابط المعنوي قسمان:

الأول: ما كان فيه ذكر الآية بعد الأخرى ظاهر الارتباط لتعلق الكلم بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التفسير أو الاعتراض أو البدل وهذا النوع لا يفصّل فيه.

الثاني: ألا يظهر الارتباط بين الجمل وتكون بذلك كل جملة مستقلة عن الأخرى مخالفة للتي بُدئ بها، فهنا يبدأ بتفصيل الروابط المحتملة بين آيات هذا النوع[2]، وقد تكون الآية مستقلة عن الآيات الأخرى في المعنى مثل آية الكرسي.

ومن أمثلة هذا النوع ما ذكره ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى:﴿**وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ**﴾،"الفظ :الغليظ ,والمراد به ههنا غليظ الكلام لقوله بعد ذلك: (**غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ**) أي: لو كنت سيِّئ الكلام قاسي القلب عليهم "لانفضوا عنك وتركوك ,ولكن الله جمعهم عليك , وألان جانبك لهم تأليفا لقلوبهم" [3] فنجد أنه قصر دلالة كلمة" الفظ "على غلظ الكلام رغم

---

(1) - انظر: الشاطبي إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي (ت: 790هـ)، **الموافقات**، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط:1، 1417هـ/ 1997م، ج4، ص 266.

(2) - السيوطي،الاتقان، مرجع سابق، ج3، ص 371.

(3) - ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت: 774هـ)، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط:2، 1420هـ - 1999 م، ج2، ص 148.

أن معناها الغليظ فتشمل غلظ اللسان وغلظ القلب، لأنه أتى في لحاقها غلظ القلب في قوله (غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ) فقصر دلالة" فظا " على غلظ اللسان لئلا يكون في الكلام تكرارا لا فائدة منه فينافي فصاحة القرآن[1].

المطلب الثالث: أهمية السّياق القرآني في التفسير

يعدّ السّياق القرآني أصلاً من أصول التفسير الذي لا غنى للمفسّر عنه، لفهم مراد الله من كلامه وبيان المعنى الصّحيح للآية، فقد كان علماؤنا منذ وقت مبكّر يهتمون بمراعاته في التّفسير و كشف معاني الآيات وربّما قُدِّم على بعض القرائن الأخرى كأسباب النّزول واللّغة وغيرها لتوقّف المعنى عليه، وكذا دوره المحوري في بيان المعنى الدّقيق، من ذلك ما وصلنا عن ابن دقيق العيد الذّي أشار إلى ضرورة الانتباه لدلالة السياق التّي عدّها مهمّة في مواضع لا تحصى فقال: " أما السّياق والقرائن: فإنّها الدّالة على مراد المتكلم من كلامه، وهي المرشدة إلى بيان المجملات، وتعيين المحتملات فاضبط هذه القاعدة. فإنّها مفيدة في مواضع لا تحصى[2]." والامام الطبري استعان في تفسيره بقرينة السّياق في مواضع كثيرة لبيان المعنى الصّحيح للآيات من ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة 171] فإن قال قائل: وما دليلك على أن المقصود بهذه الآية اليهود؟ قيل: دليلنا على ذلك ما قبلها من الآيات وما بعدها، فإنهم هم المعنيون به. فكان ما بينهما بأن يكون خبرا عنهم، أحق وأولى من أن يكون خبرا عن غيرهم، حتى تأتي الأدلة واضحة بانصراف الخبر عنهم إلى غيرهم[3]." ويقرّر في موضع آخر المنهج الذي

(1) - عبد الرحمن عبد الله سرور جرمان المطيري، مرجع سابق، ص 106.

(2) - ابن دقيق العيد محمد بن علي بن وهب تقي الدين (ت: 702هـ) **إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام**، مطبعة السنة المحمدية،د س ط، ج 2، ص 22.

(3) - الطبري أبو جعفر محمد بن جرير، (ت: 310هـ) **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط:1، 1420هـ - 2000م، ج3، ص314.

ينبغي أن يتّبع في مثل هذه الحالات التّي لا مجال للتقوّل والادّعاء فيها إلاّ بدلالة الظّاهر من الآيات دون صرفها عن سياقها بغير حجة ودليل واضح، أو خبر صحيح عن الرّسول ﷺ،[1] فبغير هذه القواعد لا يستقيم المعنى ولا يكون هناك تفسير منضبط.

أمّا ابن القيّم فذكر أنّ: " السياق يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته، ومثّل لذلك بقوله تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان: 49] و كيف أنّ السياق يدل على أنّ معنى (العزيز الكريم) هو الذّليل الحقير عكس ما يتبيّن من اللّفظ الظّاهر.[2]

ويمكن أن نتعرّف أكثر على أهمّيّة السّياق من خلال النّقاط الآتية:

أوّلا: أنّ السّياق من تفسير القرآن بالقرآن

إنّ حيّز الاستعانة بدلالة السّياق لبيان معاني الآيات لا يتجاوز كتاب الله تعالى (سياق الآية، سياق المقطع، سياق السورة) فهو تفسير للقرآن بالقرآن من هذا الجانب أمّا إدراك الصّلات بين المباني والمعاني فهو ما تختلف فيه الأنظار والأفهام ممّا هو من قبيل إعمال العقل مالم يرد نصّ صريح من الرّسول ﷺ في تفسير آية بعينها[3] فيكون الحاصل بيان المعنى بحسب الدّلائل والقرائن و اعتبار المناسبة بين الآيات في السّياق الذّي وردت فيه حتّى تكتمل العمليّة التّفسيريّة.

---

(1) - الطبري، جامع البيان، ج9، ص 389.

(2) - ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر بن أيوب، (ت: 751هـ) **بدائع الفوائد**، تح: هشام عبد العزيز عطا –عادل عبد الحميد العدوي –أشرف أحمد، مكتبة نزار مصطفى الباز –مكة المكرمة–ط:1، 1416 – 1996م، ج 4، ص 815.

(3) - للأستاذ المثنى عبد الفتاح محمود رأي في مسألة تفسير القرآن بالقرآن هل هي من قبيل التفسير النّقلي أم العقلي، انظر: نظرية السّياق القرآني، مرجع سابق، ص 129.

ثانيا: للسّياق دور كبير في حلّ الخلاف والإشكال والتّشابه اللّفظي في الآيات

يعتبر السّياق من القواعد المهمّة في التّرجيح وقد اعتمدها العديد من المفسّرين منهم ابن جزّي الكلبي الذّي ذكر في مقدّمة كتابه أنّ: " من أوجه الترجيح أن يشهد بصحّة القول سياق الكلام ويدل عليه ما قبله وما بعده."[1]

ومن أمثلة ذلك في التّفسير ما ذكره الطبري في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء65]، حيث أورد أقوالا في ذلك منها الخصومة التّي وقعت بين الزبير ورجل من الأنصار[2]وقول من قال إنّها نزلت في اليهودي والمنافق اللذين احتكما إلى الطاغوت المشار إليهما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾، ثمّ فصل في الرّاجح بين الرّوايتين بدلالة السّياق التّي تُبيّن بأنّ قصّة الخصمين المحتكمين إلى الطّاغوت لم ترد دلالة بيّنة على انقطاع الحديث عنهما حتّى قوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ فبذلك تكون الآية امتدادا للحديث عن القصّة، و إلحاق

---

(1)- ابن جزي محمد بن أحمد، الكلبي الغرناطي (ت: 741هـ)، **التسهيل لعلوم التنزيل**، تح: د.عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت– لبنان، ط:1، 1416هـ، ج1، ص19.

(2)- ذكر البخاري في صحيحه نص الحديث عن عروة، عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: أن رجلا من الأنصار خاصم الزبير عند النبي ﷺ في شراج الحرة، التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سرح الماء يمر، فأبى عليه؟ فاختصما عند النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ للزبير: «أسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك»، فغضب الأنصاري، فقال: أن كان ابن عمتك؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ، ثم قال: «اسق يا زبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر»، فقال الزبير: " والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك: {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم} [النساء: 65] "، كتاب المساقاة، باب: سكر الأنهار، رقم: 2359، ج3، ص 111. البخاري محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة ط:1، 1422هـ.

بعض ذلك ببعض أولى ما دام الكلام متّسقة معانيه على سياق واحد، إلاّ أن تأتي دلالة على انقطاع بعض ذلك من بعض، فيعدل به عن معنى ما قبله[1].

ثالثا: للسّياق قيمة كبرى في تحديد المعاني وفهم الكلام

للسّياق القرآني أهمية كبرى في توجيه نظر المتلقي إلى المعاني الصّحيحة الدّقيقة لمدلولات الألفاظ والآيات القرآنية باعتباره صاحب سلطة وحاكميّة في ذلك، فالألفاظ إن صيغت وتركت دون تقييد وتحديد حملت معاني مرادة وغير مرادة أيضا، فالسياق يسهّل على المتلقي الوصول إلى مراد المتكلّم بعد استيفاء الجهد بالنّظر والفهم. ولنا أن نتساءل عن هذه الحاكميّة والمعايير المعتبرة التّي تساهم في انضباط التّفسير؟ فيجيبنا الدّكتور عبد العزيز حمودة قائلا: "إنّ القصديّة: محور التّفسير المنضبط، وحينما نستخدم "المنضبط" لا نعني بأيّ حال من الأحوال أحادية المعنى، أو تثبيت معنى واحد للنصّ ... الانضباط هنا يعني: تفسير النصّ الأدبي[2] في ضوء قصد محتمل تحقّق في النصّ، وهو ما يفتح الباب أمام التعدّديّة الصّحّيّة للتّفسير، بشرط أن تكون سلطة النصّ وقصديّته تحتمل التّعدديّة.

ثمّ قال: رحم الله عبد القاهر الجرجاني الذي قدّم ضوابط التّفسير الجوهريّة وفي مقدّمتها تحمّل النصّ اللّغوي و النصّ الأدبي للتّفسير المختلف ...ونقل النصّ الآتي عن الجرجاني:" فأمَّا الإفراط، فيما يتعاطاه قوم يُحبّون الإغراب في التأويل، ويحرِصون على تكثير الوجوه، وينسون أن احتمال اللفظ شرط في كل ما يُعدَل به عن الظاهر، فهم يستكرهون الألفاظ على ما لا تُقِلُّه من المعاني، يَدَعون السليم من المعنى إلى السقيم، ويرون الفائدة حاضرة قد أبدت صفحتها وكشفت قناعها، فيُعرضون عنها حُبّا للتشوّف، أو قصدا إلى التّمويه وذهابا في

---

(1)- الطبري، جامع البيان، ج8، ص 424-425.

(2) -القرآن الكريم لا يمكن وصفه بالنصّ الأدبي بالنّظر إلى قدسيّته ونسبته لله تعالى فلا يمكن إنزاله منزلة الجهد الأدبي البشري الذي لا ينهض أمام بلاغته وحسن نظمه وتركيبه.

الضّلالة"[1].فالإمام الجرجاني بذلك يبيّن بأنّ اللّفظ لا نحمله على معان مختلفة تُخرجه عن الظّاهر إلاّ إذا احتمل النصّ ذلك الخروج، أو قراءة جديدة له في السّياق الذّي يرد فيه، وهو الأمر الذي يجعل من السّياق أداة مهمّة ومعيارا معتبرا لضبط فهم المتلقّي.

رابعا: مرونة السياق القرآني وحيويته

يكتسب السياق القرآني مرونته من احتماله لعدّة معان، فالنّاظر لآيات كتاب الله يجد فُسحة وقابلية لإبراز أكبر عدد ممكن من المعاني المحتملة للنصّ، والمقصود بالمرونة: "القابلية التي يتمتع بها السياق القرآني من تحمله لأنواع من المعاني المتعددة التي تظهر للناظر من أول وهلة أنها مختلفة وهي في حقيقة الأمر متنوعة لا متضادة وهذا ما درج تسميته عند المفسرين باختلاف التنوع لا اختلاف التضاد"[2] ومن المعاني المحتملة للنصّ تظهر حيويّة السّياق من إعمال لقواعده وترجيح للمعاني الصّحيحة الصّريحة، "فإن احتمل اللّفظ جميع المعاني وأمكن أن تكون مرادة منه وجب حمله على جميعها ما أمكن، سواء كان احتماله لها مساويا أو كان في بعضها أرجح من بعض وإلا فحمله على بعضها دون بعض إلغاء للّفظ بالنّسبة إلى بعض محتملاته من غير موجب، وهو غير جائز، ولأنّه لو جاز أن يكون مرادا، فإعمال اللفظ بالنّسبة إليه أحوط من إهماله"[3] ، وهكذا فإنّ مرونة السّياق إذا استعان بها النّاظر في كتاب الله من شأنها أن تعطيه الطّمأنينة والأمان في الأخذ بما يؤدّيه إليه اجتهاده.

---

(1)- انظر: حمودة، عبد العزيز حمودة، **الخروج من التّيه دراسة في سلطة النصّ**، مطابع السّياسة، الكويت، ط:1، 1424هـ/ 2003م، ص 318-319.

(2) - المثنى عبد الفتاح، نظرية السياق القرآني ، ص 71.

(3) - الطوفي، سليمان بن عبد القوي (ت: 716هـ)، **الإكسير في علم التفسير**، تحق: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة- مصر – ط: 2، 1977م، ص 41.

هذه بعض النّقاط التّي تبيّن أهميّة السّياق القرآني في الكشف عن المعاني بشكل عام والتّي يمكن الاكتفاء بها بهذا القدر من البيان، مع ضرورة التّنبيه إلى وجود نقاط أخرى مثل التّرجيح الدّلالي، وتخصيص العام، وغيرها.

المطلب الرابع: ضوابط السّياق

للسّياق القرآني ضوابط ينبغي الأخذ بها للوصول إلى مراد الله من كلامه وِفق منهج يضمن للمتلقّي والنّاظر لكتاب الله حدود الفهم الصّحيح، وما السّياق إلاّ أصل من أصول التّفسير غايته الوظيفيّة" تنقية التّفسير من الأقوال البعيدة والغريبة عنه، وإبقاء تلك الأقوال التي يسمح السّياق بوجودها للوصول إلى القول الأقرب من الحقّ والصّواب"[1] ولما كان القصص القرآني من المحاور التّي تناولها المفسّرون ونقلوا الأخبار الكثيرة المتعلّقة بها والتّي قد يشوبها شبهة الأخذ من أهل الكتاب، وتباين وجهات النّظر حِيال بيان بعض التّفاصيل التّي لم يُفصح القرآن عنها صراحة كان من الضّروري الاحتكام لضوابط التّفسير والسّياق القرآني، ومن خلال هذا المطلب يحاول الباحث بيان هذه الضّوابط وهي كالآتي:

أوّلا: دلالة النّقل

يُعدّ هذا الضّابط أهمّ ركن من أركان التّفسير، الذي يدخل في دائرة الوحي الذّي يعصم عن الوقوع في الخطأ أو النّقص ممّا صحّ عن النبيّ ﷺ في تفسير آية او آيات بعينها، فما كان منه عليه السّلام وثبتت صحّته أخذنا به، وما كان من غير ذلك احتكمنا إلى قانون التّفسير كما ذكر صاحب الإكسير من أنّ النصّ لا يخلوا أن يكون في تأويله دليل عقليّ قاطع، أو نصّ عن النبيّ ﷺ تواتريّ، أو اتّفاق من العلماء إجماعيّ، أو نصّ أحاديّ صحيح، أو لا يكون

(1)- المثنى عبد الفتاح، نظرية السياق القرآني، ص 126.

شيء من ذلك."[1] فهذه الامدادات النّقليّة التّي يستعين بها المتلقّي لفهم القرآن ممّا يدخل في قسم التّفسير بالمأثور، وممّا يتّصل بهذا الجانب، معرفة أسباب النّزول والاستعانة به لبيان معان الآيات كون تلك الأسباب تشتمل على نُقول من أحاديث للرّسول ﷺ أو الصّحابة الكرام، ويتّصل بالسّياق من خلال ما يُعرف بسياق الحال أو الظّروف المحيطة بالآية بورود نصّ في حادثة أو واقعة بعينها وتحصل الفائدة منها بدراستها في سياقها يقول الزّركشي: "وقد تنزل الآيات على الأسباب خاصّة وتوضع كل واحدة منها مع ما يناسبها من الآي رعاية لنظم القرآن وحسن السّياق فذلك الذي وضعت معه الآية نازلة على سبب خاص للمناسبة إذ كان مسوقا لما نزل في معنى يدخل تحت ذلك اللّفظ العام"[2] والتّعامل مع أسباب النّزول ينبغي أن يتّسم بالحرص على النّظر في الرّوايات صحّة وضعفا، ففيها الغثّ والسّمين، فقد يؤدّي عدم النّظر فيها إلى خطر عظيم في فهم القرآن، وهو عينُ ما نبّه إليه الأستاذ فضل حسن عبّاس في بحث مهمّ ذكر فيه أهمّ الثّغرات التّي حاول خصوم الإسلام بثّ شبهات وشوائب حولها منها:

أولا: عدم توثيق الأسانيد، أي عدم تمحيص الرّوايات المتعدّدة.

ثانيا: انعدام الدّراسة النّقدية لهذه الرّوايات غالبا؛ فدراسة أسباب النّزول بحاجة ماسّة إلى التّحقيق رواية ودراية.

ثالثا: إهمال السّياق، سياق الآيات عند ذكر سبب النّزول.

رابعا: المبالغة في البحث عن أسباب نزول آيات لا تحتاج إلى سبب."[3] فهذه أمور تجعلنا نقف على الروايات الواردة في أسباب النّزول وقفة متفحّصة، لإزالة الشّوائب العالقة به ومقاربة الصّواب في فهم كلام الله وفق منهج مُنضبط سليم، ويمكن تلخيص ما جاء عن الشيخ فضل عباس فيما يتعلّق بالسّياق في نقطتين:

---

(1)- الطوفي، الإكسير في علم التّفسير، مرجع سابق، ص 40.

(2)- الزركشي، البرهان، مرجع سابق، ج1، ص 25.

(3) فضل حسن عباس، **إتقان البرهان في علوم القرآن**، دار النّفائس -الأردن- ط: 2، 1340هـ/2010م، ج1، ص 301.

1- التأكّد من صحّة الرّوايات لأنّ السّبيل الوحيد لمعرفتها هو النّقل.

2- معرفة وجه ارتباط موضوع الرّواية بالسّياق والتأكّد من صحّة اتّصالهما.

ثانيا: دلالة اللّغة

ويُقصد بذلك ما يتعلّق بلغة القرآن العربيّة، والتّي تبيّنها آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: 193-195] ﴿قُرءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر:28] بحيث تجعلنا نقف عندها لمعرفتها معرفة معمّقة، وتوسيع النّظر فيها لأنّها من الأسس التي يجب أن يعتمدها المفسّر، و المراد بلغة العرب" معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم سواء حصلت تلك المعرفة بالسجيّة والسليقة، كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم، أم حصلت بالتلقي والتعلم كالمعرفة الحاصلة للمُوَلدين الذين شافهوا بقية العرب ومارسوهم، والمولدين الذين درسوا علوم اللسان ودونوها.

إنّ القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقا لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم لمن ليس بعربي السّليقة، ويعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة، والتصريف، والنّحو، والمعاني، والبيان."[1]فهذه المباحث اللغوية وما يتّصل بها تجعل المتمكّن منها على الطّريق السّليم لفهم كلام الله بقدر جُهده وطاقته في استيعاب المعاني، لأنّها ضروريّة جدّا وخطر كذلك، وبها يمكن "شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع؛ قال مجاهد: "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلّم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات

[1] - ابن عاشور محمد الطاهر بن محمد (ت: 1393هـ) **التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر – تونس- د ط، 1984هـ، ج1، ص 18.

العرب"، ثم إنه لا بد من التوسع والتبحر في معرفة ذلك، لأنّ اليسير لا يكفي، إذ ربما كان اللفظ مشتركاً، والمفسِّر يعلم أحد المعنيين ويخفى عليه الآخر، وقد يكون هو المراد."[1]

لأجل ذلك كان لابدّ من المعرفة المعمّقة في اللّغة العربيّة وما يتّصل بها من أمثال العرب وأشعارها ودلالة استعمال تلك الألفاظ سياقيّا لأنّ "أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللّفظ موافقته لما سبق من القول، واتّفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته."[2]

فمن خلال ما سبق يتبيّن لنا ما للّغة العربيّة وما يتّصل بها من أهميّة في تفسير الآيات بحيث تُعين على فهم كلام الله فهما سليما لاستنباط المعاني المتعلّقة به وتوجيهها.

ثالثا: دلالات أخرى

وممّا يتّصل بهذا الجانب من الدّلالات يمكن إضافة دلالتين هما: النّظر إلى جوّ السّورة العام ومعرفة المكّي والمدني؛ فبالنّسبة لجوّ السّورة العام نلحظ بأنّ ترابط المعاني في السّورة الواحدة وانتظامها يشكّل نسق السّورة العام أو الجوّ السّائد فيها، فاختصاص كلّ سورة باسمها وافتتاحيتها وخاتمتها وتعدّد أغراضها دليل انتظامها في سلك واحد، وهو ما أشار إليه الزمخشري من أنّ هذا التفصيل لسور القرآن الكريم وما تحمله كلّ سورة من تلاحق الأشكال والنّظائر وملائمة بعضها لبعض، يوصل إلى معرفة ما في السورة من تلاحظ للمعاني و تجاوب للنّظم[3]، وقد برز الاهتمام بهذا الجانب كثيرا في تفسير سيّد قطب حيث يبيّن اختصاص كلّ سورة بخصائص وموضوعات وأساليب تميّزها عن غيرها من السّور فعند تقديمه لسورة المائدة مثلا ذكر

---

[1] - الذهبي محمد السيد حسين (ت: 1398ه)، **التفسير والمفسرون**، مكتبة وهبة، القاهرة، د س ط، ج1، ص 190.

[2] - محمد رشيد بن علي رضا (ت: 1354ه)، **تفسير القرآن الحكيم –تفسير المنار**– الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: 1990 م، ج1، ص20.

[3] - الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو(ت: 538هـ) **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، دار الكتاب العربي – بيروت– ط: 1407 هـ ، ج1، ص 98.

ما يُميّزها عن غيرها من السّور الطّوال فقال: "ومع تقارب الموضوعات التي تعالجها السور الطوال الثلاث السابقة مع الموضوعات التي تعالجها هذه السورة- كما يبدو من هذا الاستعراض السريع- فإنه تبقى لكل سورة شخصيتها، وجوّها، وظلالها، وأسلوبها الخاص في معالجة هذه الموضوعات، والزوايا التي تعالجها منها، والأضواء التي تسلطها عليها، ونوع المؤثرات الموحية المصاحبة للعرض بحيث تتميز شخصية كل سورة تماما، ويبرز طابعها الخاص؛ والطابع البارز لهذه السورة هو طابع التّقرير والحسم في التعبير.. سواء في ذلك الأحكام الشرعية التي تقتضي بطبيعتها التقرير والحسم في القرآن كله أو المبادئ والتوجيهات، التي قد تتخذ في غير هذه السورة صورا أخرى ولكنها في هذه السورة تقرر في حسم وصرامة في أسلوب التقرير الدقيق، وهو الطابع العام المميز لشخصية السورة من بدئها إلى منتهاها."[1] والمؤكّد في هذا أنّ المعاني المستنبطة من خلال السّياق لا يُمكن أن تكون مخالفة لجوّ السّورة، ونسقها العام وإنّما تكون منسجمة أيّما انسجام معه لا ترى فيها عوجا ولا أمتا.

ويتّصل بهذا الجانب أيضا ما يُعرف بالمكّي والمدني كونه متعلّق بالزّمان والمكان والحال والمقام وهو ما يُساهم في إبراز موضوعات السّورة استنادا إلى الوقائع والأحداث التّي عالجتها السّورة الكريمة، وبيان أسلوبها، يقول الأستاذ محمد قطب:" حين يكون الموضوع الرّئيسي في السّورة المكّية هو العقيدة بتفصيلاتها يكون الأسلوب المناسب هو الحركة السّريعة، والنّبض السّريع ومخاطبة الوجدان، مكمن العقيدة. وحين يكون الموضوع الرئيسيّ في السور المدنية هو التشريعات والتنظيمات وبناء المجتمع المسلم وإقامة الدولة المسلمة وتثبيت أركانها إزاء الكيد الذي يكيده لها أعداؤها يكون الأسلوب المناسب هو الحركة المستأنية، والمخاطبة العقلية التي تدع المجال للتدبّر والتّفكير ومع ذلك فهو ليس ذلك الأسلوب العقلي الجاف الذي تستخدمه البحوث العلمية ولا هو التّجريد الذهني البحت الذي تستخدمه الفلسفة إنما هو نسق فريد من التعبير

---

[1]- سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي (ت: 1385هـ)، **في ظلال القرآن**، دار الشروق-القاهرة- مصر، ط: 17- 1412هـ، ج2، ص833.

لا مثيل له فيما يكتب البشر أو يتحدثون لا يفقد النّبض الحي والجرس الموسيقيّ حتّى في آيات التّشريع البحت ولا يُخاطب عقل الإنسان وحده دون بقيّة كيانه."[1] إذا فلكلّ مرحلة موضوعات تختلف عن المرحلة الأخرى وهو الأمر الذّي يُعيننا على تحديد جوانب موضوع السّياق، وعلاقته بجوّ السّورة وموضوعها العام.

ويتّضح ممّا سبق أنّ معرفة جوّ السورة وموضوعها العام يعين على فهم أبعاد السّياق القرآني من حيث المعاني ومعرفة المكّي والمدني ويعين كذلك على تيسير الوقوف على وقائع السّورة وأسلوبها وأحداثها.

---

[1] - قطب محمد قطب، **دراسات قرآنية**، بيروت لبنان، دار الشروق، ط:4، 1303هـ/1983م، ص 20.

المبحث الثاني: مفهوم القصّة القرآنيّة وبيان أهدافها وخصائصها

من الأهمية بمكان التّطرّق إلى بيان معاني مصطلحات الدّراسة والمتعلّقة بالقصّة القرآنية في مفهومها اللغوي والاصطلاحي وهو ما سيُحاول الباحث بيانه من خلال هذا المبحث إضافة إلى بيان أهمّ أهدافها وخصائصها في ثلاثة مطالب، على النّحو الآتي:

المطلب الأوّل: تعريف القصّة القرآنيّة

أوّلا: المعنى اللّغوي

الأصل اللغوي لكلمة " قص" في المعاجم اللغوية جاء بمعنى تتبّع الشّيء، وقد ورد في الحكاية ورواية الخبر خاصّة، ويمكن القول بأنّه تتفرّع منه معان أخرى، مقاربة له، وهو ما سيبينه الباحث فيما يلي:

نبدأ بأصل الكلمة للتعرّف على مدلول اللّفظ فإنّ" أكمل الطرق في تعريف مدلولات الألفاظ هو طريقة الاشتقاق"[1] وهو ما يُطلعنا عليه ابن فارس حيث يقول بأنّ القاف والصاد أصل صحيح يدل على تتبع الشيء[2]، وهذا ينطبق على تتبّع الأثر[3]، تقول قصصت أثره وقصصته: اتّبعته قصصا.

﴿ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ [القصص:11] واقتصصته و تقصّصته وخرجت في أثر فلان قصصاً

---

[1] - الرازي فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحســـن (ت: 606هـ)، **مفاتيح الغيب**، دار إحياء التراث العربي – بيروت- ط:3 ، 1420 هـ، ج1، ص 29.

[2] - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج5، ص 11،(مادة قص).

[3] -ابن دريد، محمد بن الحسن أبو بكر الأزدي (ت321هـ)، **جمهرة اللغة**، تحقق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت- ط:1، 1987م، ج1، ص 142. (مادة قص) و الفيروزآبادى مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب(ت817هـ)، **القاموس المحيط**، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان- ط:8، 1426 هـ - 2005 م، ج1، ص 627. (مادة قص)

﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف:64] وهو يقرو مقصّه: يتّبع أثره، ومنه أيضا تتبّع الخبر[1] أمّا في التوسّع الدّلالي للكلمة فنجد تتبّع الأثر في القصاص مثلا القصد منه المساواة في الفعل ليُفعل بالقاتل مثل ما فُعل بالمقتول فكأنّه اقتصّ أثره[2] سواء في قتل أو جرح أو حق من الحقوق [3] ثمّ عمّ في كلّ مساواة[4]، والقاصّ الّذي يروي القصّة على وجهها فهو متتبّع لمعانيها وألفاظها[5] فالقصة والقصص من الباب[6]، وفعل القصّ هو إخبار عن شيء ما فتقول قصّ عليّ خبره قصّا وقصصا أورده[7] وهو متضمّن أيضا معنى الحفظ[8]، فالّذي يأتي بالحديث على وجهه يستعين بحافظته في نقل جزئيات الكلام وحيثيّات الواقعة، بتتبّع أحداثها والرّبط بينها. ومنه أيضا فعل "أقصّه" وذلك في قول الأصمعي: ضربه ضربا أقصّه من الموت أي أدناه من الموت حتّى أشرف عليه[9]. وقد يكون له معنى مجازي أيضا فيقال في رأسه قصّة أي جملة من الكلام ونحوه[10]، أو كما قال الزمخشري: ومن المجاز عضّ بقصاص كتفيه وهو منتهاهما حيث التقيا. وقاصصته بما كان لي قبله أي حبست عنه مثل ذلك[11].

---

(1)- الأزهري أبو منصور محمد بن أحمد (ت370هـ)، **تهذيب اللغة**، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت- ط: 1، 2001م، ج8، ص 211. و ابن منظور، لسان العرب، ج7، ص37. (مادة قص)

(2)- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة،ج5، ص11.

(3)- ابن منظور، لسان العرب، ج7، ص 37.

(4)- المطَرِّزِيّ أبو الفتح ناصر بن عبد السيد أبى المكارم ابن على(ت610هـ)، **المُغرب في ترتيب المُعرب** ، دار الكتاب العربي، د ط، ص 285.

(5)- ابن منظور، المرجع نفسه، ج7، ص 37.

(6)– ابن فارس، المرجع نفسه.

(7) ابن منظور، المرجع نفسه، ج7، ص 37.

(8) الأزهري، تهذيب اللغة، ج8، ص211.

(9) الأزهري، المرجع نفسه، ج8، ص 212. / الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مرجع سابق، ج1، ص 628.

(10) أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي (ت170هـ)، **كتاب العين**، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال ج5، ص 10./ الأزهري، المرجع نفسه، ص 210.

(11) الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، (ت538هـ)، **أساس البلاغة**، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان- ط:1، 1419 هـ – 1998 م، ج2، ص83.

وبناء على ما سبق يمكن القول بأن لفظ القص في المعاجم اللغوية يدور حول معنيين: تتبع الأثر وغيره، وكذا الخبر، الحديث والبيان.

ثانيا: المعنى الاصطلاحي

بعد أن تعرّفنا على المعنى اللغوي للقصص نحاول في هذا المبحث التّعرّض لمعناه الاصطلاحي من خلال عرض آراء أصحاب الشّأن في ذلك والخروج بتعريف جامع لحدود المصطلح على النحو الآتي:

يقول عبد الباسط بلبول في تعريف القصص: "اخبار الله عمّا حدث للأمم السّابقة مع رسلهم، وما حدث بينهم وبين بعضهم، أو بينهم وبين غيرهم أفرادا وجماعات، من كائنات بشرية، أو غير بشرية بصدق للهداية والعبرة"[1]

أمّا الأستاذ عبد الكريم الخطيب فقد حاول صياغة مفهوم للقصص استنادا إلى الأصل اللغوي الذي ينبني على تتبّع الأثر حيث قال بأنّ القصّة "كشف عن آثار، وتنقيب عن أحداث نسيها الناس، أو غفلوا عنها، وغاية ما يراد بهذا الكشف هو إعادة عرضها من جديد لتذكير الناس بها ولفتهم إليها لتكون العبرة والعظة"[2]. فهذا التعريف ركّز فيه على الهدف أكثر من خلال إيراد ألفاظ مثل: كشف الأثر والذي يأتي بعد التتبّع له وكذا تذكير النّاس بها لتحصل العبرة والعظة.

أمّا تعريف محمد خير العدوي فلا يبتعد كثيرا عن تعريف عبد الباسط بلبول في بعض حدوده حيث يذكر بأن القصّة: "هي كل خبر موجود بين دفتي المصحف أخبر به الله تعالى

---

(1)- عبدالباسط محمد عبده ابراهيم بلبول، **القصص القرآني**، رسالة دكتوراه في التفسير، جامعة الأزهر الشريف، القاهرة –مصر– ط: د ت ط، ص 36.

(2) عبد الكريم الخطيب، **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه**، دار المعرفة للطباعة و النشر بيروت –لبنان– ط:2، 1395هـ-1975م، ص 48.

رسوله محمدا بحوادث الماضي بقصد العبرة والهداية سواء أكان ذلك بين الرسل وأقوامهم، أم بين الأمم السابقة أفرادا وجماعات."[1] ، وفي دراسة لمصطلح القصص في القرآن الكريم توصّل صاحبه إلى تعريف جامع بعد تتبّع معاني لفظ القصص في القرآن الكريم، يقول فيه بأنّ " القصص في الاصطلاح القرآني هو الخبر الصادر عن الذات الإلهية أو على لسان أحد المرسلين وهو يتضمن أحد أمرين:

. تتبع حقائق الأحداث والوقائع التي مرّت بها الأمم السّالفة

. تتبّع حقائق الدّين وشرائعه وعرضها وبيانها وذلك قصد تحقيق الغاية الكبرى التي جاءت من أجلها عقيدة التّوحيد[2]

وهذا التعريف حاول فيه صاحبه عدم إغفال المعنى اللغوي من التتابع والتتبّع لأحداث ووقائع لما تتضمنّه من شرائع وأحكام.

بعد عرض هذه التعريفات تبيّن للباحث بأنّ التّعريف المناسب للقصص القرآني هو ما تقدّم به عبد الباسط بلبول، وما قدّمته الباحثة أيضا في التّعريف الأخير فقدكان مشتملا على نقاط مهمّة تتميّز بها القصّة القرآنيّة عن غيرها من القصص وهي:

1. إلهية المصدر وهو أنّ الله هو المتكفّل بالإخبار عن أحوال الأمم السابقة.

2. ذكر الأمم السابقة وذلك لأنّ ما حدث للرّسول عليه السّلام بينه وبين قومه لا يَشملُه التّعريف.

3. اتّصاف القصّة بالصّدق، والحقّ.

4. ذكر الهدف من القصّة القرآنيّة بتحقيق الهداية وأخذ العبرة.

---

[1] محمد خير محمود العدوي، **معالم القصة في القرآن الكريم**، دار العدوي، عمان-الأردن- ط:1، 1988م، ص33.

[2] سعيدة الرجاني، **مفهوم القصص في القرآن الكريم**- دراسة مصطلحيّة- عالم الكتب الحديث- الأردن- ط: 1، 2019م، ص25.

من خلال ما سبق يتضح لنا بأنّ مفهوم القصص القرآني يتميز عن غيره من أنواع القصص الأخرى الأدبية بمميزات خاصّة، من مصدريّته الإلهية وصدقها وواقعيّتها وغايتها المتمثّلة في الهداية وأخذ العبر، ولمزيد معرفة بالمصطلح أكثر وبما يتّصل به من مفردات تتقاطع معها من جهة المعنى نعرّج إلى المبحث الثاني المتعلّق بمرادفات مصطلح القصص في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: مرادفات مصطلح القصص في القرآن الكريم

عند تتبّع آيات القرآن الكريم نجد مصطلحات لها نفس معنى القصص أو مرادفة أو مماثلة له وقد تؤدّي نفس الأغراض والمقاصد التّي تؤدّيها القصص أحيانا، ومن خلال هذا المطلب نعرض مجموع هذه المصطلحات ونحاول بيان علاقتها بمصطلح القصص.

أوّلا: التّلاوة

وهو المصطلح الذّي تربطه علاقة وطيدة بموضوع الدّراسة في جزء منه متعلّق بأخبار الأمم السّابقة وقد جاء هذا المصطلح في عدّة مواضع في القرآن الكريم منها:

- **قوله تعالى:** ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة 27]
- **قوله تعالى:** ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف 175]
- قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف 83]

هذه المواضع الثلاثة التّي ورد فيها لفظ التلاوة تراوحت معانيها بين قصّ الأخبار وذكرها كما ذهب إلى ذلك بعض المفسّرين كالإمام الطبري الذي قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ

﴿عَن ذِي ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ ويسألك يا محمد هؤلاء المشركون عن ذي القرنين ما كان شأنه، وما كانت قصته، فقل لهم: سأتلو عليكم من خبره ذكرا يقول: سأقص عليكم منه خبرا[1]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ يعني خبره وقصّته[2]، وابن كثير أيضا قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ﴾ اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة[3]، فمن خلال هذه الأمثلة لتفسير كلمة التّلاوة في سياقها يتبيّن لنا دلالة مصطلح التّلاوة على معنى القصّ في سياق معيّن متعلّق بخصائص المصطلحين فكلاهما من نوع الخبر الذي يُعرض أو يتلى بمراعاة تسلسل الأحداث وكذا صفة التّلفّظ الذّي يفترض وجود متحدّث بما يقُصّ أو يُتلى ومستمع يتلقّى عنه[4].

ثانيا: النّبأ

ورد مصطلح النّبأ في القرآن الكريم في أكثر من عشرين موضعا، ونقتصر على مثالين ممّا له علاقة بالقصص موضوع البحث:

قوله تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف 13]

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾ [طه 99]

من خلال الآيتين الكريمتين يتبيّن أنّ كلاً من القصص والنّبأ مصدرهما الوحي كما أشرنا إلى ذلك في تعريف القصّة، والنّبأ خبر لا يتطرّق إليه الكذب لعلوّ شأنه ومصدره فقد ارتبط بالوحي الإلهي في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ﴾ [هود 49] ﴿

(1) الطبري، جامع البيان، ج18، ص92.

(2) الطبري، المرجع نفسه، ج13، ص252.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج3، ص 73.

(4) سعيدة الرجاني، مفهوم القصص، مرجع سابق، ص 48-49.

﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ ﴾ [يوسف 102]، ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَ ﴾ [آل عمران 44] فالنّبأ خبر إلهي صادق " نحن نقص عليك نبأهم بالحقّ أي على وجه الصّدق[1]."

وكذا المقصد من إيراد القصص والنّبأ العظة والاعتبار كما نبّه إلى ذلك ابن عاشور في تفسير آية سورة طه من قوله تعالى:﴿وقد آتيناك من لدنا ذكرا ﴾ إيماء إلى أن ما يقص من أخبار الأمم ليس المقصود به قطع حصّة الزّمان ولا إيناس السامعين بالحديث إنما المقصود منه العبرة والتذكرة[2].

ثالثا: المثل

استعملت مادة مثل في القرآن الكريم على نطاق واسع، وتنوعّت بين التّشبيه والتّمثيل والمقارنة والموازنة والأمثلة القصصية، حيث كان من أهدافها تحقيق العبرة والعظة غير أن الأمثلة القصصيّة تتميّز عن غيرها من أنواع المثل بخصائص الأسلوب القصصي الهادف إلى تحقيق البعد الأخلاقي التّعليمي وليس مجرّد الحكاية والتّسلية، "فالخطاب القرآني خطاب هداية يهدف إلى الإقناع، واعتماده على ضرب الأمثال من الأساليب الناجعة في بلوغ هذه الغاية خصوصا حين يتعلّق الأمر بالأمور الغيبية أو تلك التي حدثت في العصور الغابرة، وقد بين المفسرون والبلغاء أن دلالة المثل في القرآن الكريم لا تخرج عن بيان الحال أو الصفة أو القصّة المتحدّث عنها بالمثل الذي يُضرب في سبيل بيانها[3] ومن الشواهد القرآنية التّي ورد فيها ذكر المثل بمعنى القصة ما يأتي:

. قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ [النحل 112]

---

[1] الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج21، ص 441.

[2] ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 16، ص302.

[3] سعيدة الرجاني، مرجع سابق، ص 66.

. قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف 32]

. قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس 13]

وتأخذ كلمة المثل في هذه الآيات معنى القصّة مثلما نجده عند الزمخشري حيث يقول: اذكر لهم قصّة عجيبة قصّة أصحاب القرية[1] وكذا صاحب التّحرير حيث يقول في آية سورة الكهف: "ضرب مثلا لحال الفريقين بمثل قصّة أظهر الله فيها تأييده للمؤمن وإهانته للكافر[2]." فمن خلال هذين القولين نجد أنّ المصطلحين متماثلين في المعنى ويشتركان أكثر في الغاية والقصد بغرض العبرة والموعظة كما أشار إلى ذلك السّعدي في تفسير آية سورة يس" واضرب لهؤلاء المكذّبين برسالتك، الرادين لدعوتك، مثلا يعتبرون به، ويكون لهم موعظة إن وُفّقوا للخير[3]." وممّا يشار إليه في معنى ضرب المثل في القرآن الكريم ما ذكره صاحب التّحرير والتّنوير من الفرق بين مجيء المثل بصيغة الخبر مُسندا إلى الله تعالى ومجيئه بصيغة الطّلب والأمر للنبيّ ﷺ فإنّ ما صيغ بصيغة الخبر كان في مقام تمثيل لإبطال الشّرك، أو لوعيد المشركين، أو لنحو ذلك، خلافا لما صيغ بصيغة الطّلب فإنه كائن في مقام العبرة والموعظة للمسلمين أو أهل الكتاب.[4]

خلاصة ما جاء في المبحث أنّ القصّة وردت بمدلولات مختلفة من مثل ونبأ وغيرها ممّا يعزّز حضورها في كتاب الله العزيز ويدعونا إلى التّفكّر ومزيد النّظر والبحث في مضامينها وتحليلها،

---

(1) الزمخشري، الكشاف، ج 4، ص 7.

(2) ابن عاشور، التحرير، ج 15، ص 315.

(3) السعدي عبد الرحمن بن ناصر(ت: 1376هـ)، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط:1، 1420هـ -2000م، ج1، ص693.

(4) - ابن عاشور، التحرير، ج 23، ص 401.

على أنّ القصّة القرآنية بتقاطعها مع أهداف سرد المثل من العظة والعبرة يمكن أن تعدّ جميعها أمثالا قصصيّة قرآنيّة لأنّها جميعا بين تاريخيّة وتمثيليّة.[1]

المطلب الثالث: مفهوم قصص غير الأنبياء

إنّ القصص الذّي شغل مساحة الثلث في القرآن الكريم ينقسم إلى قصص للأنبياء وآخر لغير الأنبياء، فما هو خاص بالأنبياء متعلّق بتبليغ أمانة الوحي وما صاحبه من معجزات إلهية وكذا ما كان من أقوامهم اتّجاه الرّسالة من تقبّل واستجابة للدّعوة أو رفض واستكبار، وعاقبة ومصير كلّ طرف، أمّا قصص غير الأنبياء من الأمم السّابقة فهي نماذج بشريّة اختارها الله تعالى من التّاريخ البشري الطّويل المليء بالتّجارب والمواقف والأحداث وخلّد ذكرها في القرآن الكريم، فهي بذلك تُعتبر "نماذج بشرية مكرورة : نماذج المؤمنين ونماذج الكافرين، نماذج الضعفاء الأذلاء ونماذج الرّجال الصادقين الأقوياء وإنها قيم دائمة توحي لنا بها قصص السّابقين: قيم الحقّ وقيم الباطل، قيم الفضيلة وقيم الرّذيلة إنّها المعركة المستمرة بين الحقّ والباطل وإنّ التّاريخ يعيد الكثير من ميادين هذه المعركة وأساليبها وصورها ومجالاتها ولا يختلف فيها إلاّ الأشخاص فقط."[2] ، فمفهوم قصص غير الأنبياء يتركّز على ما ذكره الله تعالى في القرآن الكريم من قصص الأمم السّابقة المتعلّق بالنّماذج البشريّة، ودورها كشاهد من شواهد الإنسانية، نماذج المؤمنين ونماذج الكافرين ونماذج الصّالحين المصلحين ونماذج الطّاغين المفسدين، ونماذج لمواقف سلبية لأشخاص أو أمم اختاروا الرّاحة والاستسلام والخضوع، ومواقف إيجابية لأشخاص أو أمم حاولوا تغيير الواقع المشهود، وغيرها من النّماذج.

---

[1] - انظر: محمد جابر الفياض (ت:1407هـ، 1987م)، **الأمثال في القرآن الكريم**، الدار العالمية للكتاب الإسلامي الرياض – السعودية – ط:2، 1415هـ، 1995م، ص238.

[2] - صلاح عبد الفتاح الخالدي، **قصص السابقين في القرآن**، دار القلم – دمشق – سوريا، ط: 5، 1428هـ-2007م، ص 29-30.

وهناك من ينظر في تقسيم القصص إلى محوريّة الشّخصيّة فيها مثلما نجده عند محمد قطب عبد العال الذّي يرى تقسيمها إلى ثلاثة نماذج:

الأول: القصّة التي تتناول الأنبياء والرسل وجهادهم في الدعوة إلى التوحيد

الثاني: القصّة التي تتناول جماعة من البشر كقصة أصحاب الكهف، وأصحاب الأخدود وأصحاب الجنة.

الثالث: القصة التي تتناول الأشخاص مُفردين كقصة قارون.

والملاحظ على النّوعين الأخيرين أنّ القرآن لا يكررهما فلا ترد إلاّ في موضع واحد وفي سورة واحدة بعكس قصص الأنبياء والرسل التي تتوزع على سور القرآن توزيعا واضحا ومكررا باستثناء قصّة يوسف عليه السلام التي وردت كاملة في سورة واحدة.[1]

ولما كانت القصّة القرآنيّة وسيلة من وسائل تبليغ الدّعوة فقد اتّجهت أحداثها إلى تحقيق أغراض دينيّة بحتة من إثبات وحدانية الله وإثبات البعث واليوم الآخر، ودعوة النّاس إلى مكارم الأخلاق ونبذ الأخلاق السيّئة وتعديل السّلوك، وبيان عاقبة الصّالحين والمفسدين وهي أغراض متداخلة يصعب تقسيمها وتصنيفها، وهو ما جعل الباحث يجتهد في تقسيم المادّة تقسيما منهجيّا وفق ما تقتضيه طبيعة المادة العلميّة بمراعاة الموضوع الذّي يركّز عليه السّياق العام للقصّة إلى ثلاثة جوانب: الجانب الإيماني العقدي، الجانب الدعوي، الجانب الاجتماعي التربوي.

خلاصة لما سبق نقول بأنّ قصص غير الأنبياء قسم من أقسام قصص القرآن الكريم وهي من الأحداث السّابقة لنبوّة محمّد ﷺ ونماذج بشرية مكرورة تحمل في أحداثها قيما سامية متنوّعة وموزّعة إلى مجالات متعدّدة خلّد الله ذكرها في كتابه العزيز للنّظر والاعتبار واستنباط أسرارها.

---

[1] - محمد قطب عبد العال، **نظرات في قصص القرآن**، مطبعة رابطة العالم الإسلامي، مكة – السعودية، 1408هـ-1988م، ج2، ص 197.

المطلب الرابع: من أهداف القصّة القرآنيّة

أهداف القصّة القرآنية من الصّعب استقصاؤها لأنّها من الأهداف التّي أُنزل من أجلها القرآن الكريم كما قال سيد قطب بأنّها ممّا يكاد يتسرّب إلى جميع الأغراض القرآنيّة كإثبات الوحي والرسالة وإثبات وحدانيّة الله وتوحّد الأديان في أساسها... [1] وسنقتصر على الأهداف التّي نصّ عليها القرآن الكريم كالآتي:

أوّلا: الدعوة إلى التفكّر

وذلك في قوله تعالى:﴿ **فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [الأعراف:176] هذه الآية الكريمة وردت في سورة الأعراف تعقيبا على قصّة الرّجل الذّي آتاه الله علما فانسلخ من آيات الله وكذّب بها وأخلد إلى الأرض واتّبع هواه وسبيل الشّيطان فكان من الخاسرين الضّالين، فشبّه الله حالته في الضلالة والخسران بحال الكلب في صفة اللّهاث وهي صفة خِلقية أصلية فيه، وكأنّ صفة الضّلال بعلمه أصليّة فيه سواء أوعظته أم لم تكن من الواعظين النّاصحين فهو عنوان لذلك، فالله تعالى أمر رسوله الكريم أن يقصّ أمثال هذه القصص لما لها من أهميّة كبيرة فهي نماذج مكرورة في تاريخ البشريّة وفي النّظر فيها والتفكّر في أحداثها تحصيل للعبرة والعظة والفائدة منها فالأمثال القصصيّة كهذه لها وقعها في النّفوس عند المقارنة بين الأحوال المتشابهة "فلها شأن عظيم في اهتداء النّفوس بها، وتقريب الأحوال الخفيّة إلى النفوس الذّاهلة أو المتغافلة، لما في التّنظير بالقصّة المخصوصة من تذكّر مشاهدة الحالة بالحواس، بخلاف التّذكير المجرّد عن التّنظير بالشّيء المحسوس[2]،فالتّفكير فريضة إسلامية ونعمة ربّانيّة، ينبغي على دارس القصّة القرآنيّة أن يُعملها حتّى تحصُل له الفائدة.

---

[1] - انظر: سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي (ت: 1385هـ) ، **التّصوير الفني في القرآن الكريم**، دار الشروق، القاهرة- مصر- د.س.ط، ص 144.

[2] - ابن عاشور، التحرير، ج 9، ص179.

ثانيا: تحقيق العبرة والموعظة

ويؤخذ هذا من قوله تعالى:﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الاَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُومِنُونَ** ﴾ [يوسف:111]، وهذه الآية وردت في خاتمة سورة يوسف عليه السّلام والتّي ذكرت فيها قصّة يوسف عليه السّلام حيث استغرقت جلّ أجزاءها وتعتبر مثال القصّة الطّويلة الكاملة التّي لم تتكرّر في أيّ سورة أخرى، حيث جاء التّعقيب على أحداثها مختتما ببيان أنّ ما من قصّة في القرآن إلاّ وفيها عبرة أو عبر تستدعي إعمال العقل والفكر لإدراكها لا بمجرّد التّسلية والحكاية كما هو حال بعض القصص الأدبي لتبيّن سموّ القرآن في أهدافه، لذلك وصفت بأحسن القصص إشارة إلى أنّ الحسن فيها حاصل بالعبرة ومعرفة الحكمة والقدرة فالله عزّ وجلّ" ذكر في أول السّورة نحن نقص عليك أحسن القصص، ثم ذكر في آخرها: لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب تنبيها على أن حسن هذه القصّة إنّما كان بسبب أنّه يحصل منها العبرة"[1]، والتي تتحصّل للقارئ بقياسها على مثيلاتها مما يشهده في الأحوال الحاضرة، فأولوا الألباب هم المنتفعون بهذه القصص بما يحصل لهم من العبرة بعد التفكّر والتّأمّل في أحداثها ووقائعها، فبمعرفة مثل هذه القصص يتنبّه المؤمن من غفلته ويأخذ منها ما يرشده إلى الخير والرشد والاستقامة في سبيل الحقّ.

ثالثا: تثبيت فؤاد النبيّ ﷺ وتسليته

وذلك من قوله تعالى:﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ اَنبَآءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُومِنِينَ** ﴾ [هود: 120]. وردت هذه الآية في خاتمة سورة هود بعد أن ذكر الله تعالى ما كان من حال بعض الأنبياء مع أقوامهم كنوح وإبراهيم ولوط وهود وصالح وشعيب وما لاقوه من عنت وعناد وصدّ من أقوامهم في سبيل الدّعوة إلى التّوحيد،

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، ج 18، ص522.

عقّب بالتّنبيه إلى الغاية من سرد هذه الأحداث والمواقف بتثبيت الرّسول ﷺ وطمأنته ومواساته في الشّدائد التّي يلاقيها ومساندته في مهمّة التّبليغ الّتي هي امتداد لرسالة الأنبياء الذين حملوا أمانة الدّعوة من قبله وصبروا عليها وتحمّلوا أعبائها، وليستيقن بأنّه على الحقّ المبين و ما واجهه به المكذّبون والمشركون ما هو إلاّ موقف من المواقف التّي مرّ بها من قبله من الأنبياء والمرسلين، فيزداد يقينه وعلمه بما وعده الله "لأنّ كل ما يعاد ذكره من قصص الأنبياء وأحوال أممهم معهم يزيده تذكّرا وعلما بأنّ حاله جَارٍ على سنن الأنبياء وازداد تذكّرا بأنّ عاقبته النّصر على أعدائه، وتجدد تسلية على ما يلقاه من قومه من التّكذيب وذلك يزيده صبرا، والصّبر: تثبيت الفؤاد."[1] وقد أشار القرآن الكريم إلى أنّ الرّسل قد حصل لهم من التّكذيب والأذيّة مثل ما حصل لمحمد عليه السّلام فقال:﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام 34] وهكذا فالآية خطاب للنبيّ ﷺ ومن خلاله إلى أمّته جميعا حتّى لا يتسرّب إليهم القلق و هواجس النّفس من اليأس والقنوط، ويزدادوا إيمانا وصبرا على الحقّ فإنّ القصص بذلك تكون وسيلة لتثبيت الحقّ في النّفوس والجهاد في سبيل الله، "فالإنسان إذا ابتلي بمحنة وبليّة فإذا رأى له فيه مشاركا خفّ ذلك على قلبه، كما يقال: المصيبة إذا عمّت خفّت"[2]، ثمّ هي بعد ذلك تُمني النفس بالفرج القريب، وتهدي إلى نصرة الحقّ ملدن العزيز الحكيم وما كان ربّك نسيّا.

المطلب الخامس: من خصائص القصّة القرآنيّة

تفرّدت القصّة القرآنية بميزات، واختصّت بخصائص جعلتها مختلفة عمّا سواها من القصص وضمن لها تلك المنزلة الرّفيعة في القدر وذلك السموّ في تحقيق الأهداف وبسط الحقائق بخلاف القصص البشري الذي يعتريه الخيال والوهم في نسج خيوط الحكاية، وتقمّص

---

(1)- ابن عاشور، التحرير، ج12، 192.

(2) - الرّازي، مفاتيح الغيب، ج 18، ص412.

أدوار شخصيّاتها وبناء تصوّرات متعدّدة حولها؛ ومن خلال هذا المبحث يحاول الباحث بيان أهمّ ما تميّزت به القصّة القرآنية استنادا إلى ما ورد في كتب بعض المتخصّصين[1] وهي:

أوّلا: ربّانيّة المصدر

من المعلوم أنّ كلّ ما جاء في القرآن من عند الله تعالى، وتمثّلت مهمّة النبيّ عليه السّلام في تبليغه للنّاس كافّة﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ**﴾ [المائدة:67]، والقصص الذّي جاء في القرآن الكريم ما كان للنبيّ عليه السّلام أن يعلمه ولا أن يبلّغه للنّاس بتلك التّفاصيل والمعلومات الدّقيقة التّي لا يمكن أن تصدر إلاّ ممّن حضرها وكان شاهدا عليها، وهو ممّا يدخل في علم الله الغيبي، فقد أشار القرآن في أكثر من موضع إلى تفرّد الله تعالى بعلمه بما كان من تفصيلات في أحداث القصص فقال معقّبا بعد أن ذكر كفالة زكريا لمريم عليهما السّلام: ﴿**ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٤٤] وقال أيضا بعد ذكر قصّة هود عليه السّلام ﴿**تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ**﴾ [هود: 49]، وقال أيضا بعد ذكر ما جرى بين سيدنا موسى عليه السّلام وفرعون: ﴿**وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ(44) وَلَكِنَّآ أَنشَانَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمُ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ(45) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(46)**﴾ [القصص: 44 - 46]، فهذه الآيات وغيرها صريحة في أنّ ما ورد من قصص في

[1] - من الكتب التي استفدت منها : التصوير الفني في القرآن لسيّد قطب، قصص القرآن الكريم لفضل حسن عباس، معالم القصة في القرآن الكريم لمحمد خير محمود العدوي، البيان القرآني إبراهيم عوضين، اتجاهات التّأليف ومناهجه في القصص القرآني لسليمان الدقور.

القرآن كلّه وحي من عند الله وليس لأحد من البشر أن يحدّث الناس عن أخبار و أحداث لم يكن قد عاشها فضلا عن سردها بتفاصيلها فالرّسول "لم يكن يعرف شيئا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم, ثمّ أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمات السير من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه"(1) وهذه من الأمور الغيبيّة التّي تعجز أفهام البشر عن إدراكها لذلك نجد التّعقيب الالهي على هذه الأحداث بأنّها غيب لا يعلمها إلاّ هو ونفى عن النبيّ محمد ﷺ و عن قومه العلم بها.

ثانيا: الصّدق والواقعيّة

تستمدّ القصّة القرآنية صدقيّتها من المصدر الإلهي الذي لا حقّ قبله ولا بعده، فقد أخذ القصص القرآني نهج القرآن الكريم كله في أنّه الحق الذّي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأنه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الاسراء 105] والحقّ الذي يتميّز به القصص القرآني هو الصّدق "لأنّ الصّدق حقّ إذ الحقّ هو ما يحق له أن يثبت عند أهل العقول السليمة والأديان القويمة"(2)، وقد جاء القرآن الكريم بالقول الفصل في كثير من القصص التّي وردت بروايات مختلفة في كتب أهل الكتاب من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران 62] بعد أن قصّ ما جاء من أحداث في قصّة سيّدنا عيسى عليه السّلام، ومعلوم أنّ هذه القصّة من أكثر الأخبار التّي وقع فيها الانتحال من لدن أهل الكتاب في إلهية عيسى عليه السّلام ليأتي القرآن صريحا بنفي الإلهية عنه بعد بسط الحقائق، وقوله تعالى أيضا بعد أن عرض للأحداث التّي وقعت في قصّة يوسف عليه السّلام: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي

(1) - أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب (ت403هـ)، **إعجاز القرآن**، قدم له وشرحه وعلق عليه: الشيخ محمد شريف سكر، دار إحياء المعارف-بيروت- لبنان، ط:1، 1408هـ/1988م، ص 64.

(2) - ابن عاشور، التحرير، ج20، ص 65.

﴿ إِلَّا أُوْلِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف:111] فهذا الّذي ورد في القرآن "خبر صدق واقع وليس بقصّة مخترعة"[1] .

ولم يكتف القرآن ببسط الدلائل على الحقائق والوقائع التاريخية، بل كان يرشد في أكثر من موضع إلى النّظر والسّير في الأرض لمعاينة آثار الأمم والأقوام التّي أتى على ذكرها في مواضع عدّة من القرآن الكريم، "فالأمر بالسّير في الأرض دليل ثقة هذا القرآن بما أخبر عنه وصدقه فيه قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران 137]، وقال أيضا: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ [هود 100] فتلك القرى أصبحت أطلالها تنبئ عن خبرها منها ما هو قائم وباق مشاهد ومنها ما اندثر وانمحى وما بقي منه أثر، وفي ذلك إشارة لنا إلى الحركة والسّير والتّفاعل مع الحاضر والمستقبل في ضوء أحداث الماضي، فالإنسان المعاصر بعد ما وصل إليه من تقدّم كبير وسريع في مجال التكنولوجيا والمعلوماتية الرّقمية ليس له من جهد في تقصّي آثار هذه القرى والوقوف على أطلالها سوى البحث فيها عن طريق الانترنت وكتابة الكلمات المفتاحيّة حتّى تصبح ماثلة بين عينيه، فلا يبقى له من عذر سوى الاعتبار والتفكّر في مصائرها ومن ثمّ الأخذ بالأسباب، وهذا ممّا لا يطيقه إلاّ ذووا العقول السّليمة، وتقصر عن إدراكها القلوب الغافلة، " لو عزلنا القصة الماضية ـ أي قصة ـ عن ذوات أصحابها وأبقينا على حوادثها فقط لو فصلنا ذلك لخيل إلينا أن القصة تقع في الزمن الحاضر بل وتتكرر في مختلف البيئات فالإنسان هو الانسان وهذا ما يجعلنا نقول: إنّ القصة تدور مع الزمن الحاضر فكأن واقعية الماضي تعني تصوير حقيقة ما وقع فعلا وواقعية الحاضر تعني تكرر الحدث وترابط وقائع الماضي مع حوادث الحاضر ... ولو قلنا واقعية المستقبل فإن ذلك يعني امكانية تكرر الحوادث بنفس وقائعها كما كانت في الماضي

[1] - ابن عاشور، التحرير، ج13، ص 81-82.

والحاضر وذلك أكبر برهان على الواقعية القرآنية[1] حتى كان من منهجه اختيار مقاطع ومشاهد معينة وعدم البسط في حيثيات كل قصّة على حدة مما سنعرفه في العنصر الموالي.

ثالثا: انتخاب الأحداث

إن القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ ولا أدب وإنما هو كتاب على غير معهود العرب ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الاسراء 88] فقد كان من جملة ما أعجز الثقلين بأن يأتوا بمثل القرآن الكريم، الأسلوب المحكم في بسط الحقائق وعرضها في قالب قصصي، إذ يعمد إلى انتخاب أجزاء من القصة و يعرضها بما يتناسب والهدف المنشود أو المقصد منه سواء للاعتبار والعظة، أو لتقرير أشياء معينة مما يفهم من سياقها الذي وردت فيه وهذا مما تتّسع فيه الأفهام وتختلف إليه المدارك؛ فمشاهد القصة لا تنقل أحداثها ومواقفها بشكل كامل في معرض واحد، ولكن يقتصر على جزء مختار منها فيعرضها في موضع و يُعرض عنها في موضع آخر، لذا فإن القصّة " نجدها تركز على الرقي المادي وأسباب القوة لأن هذه المادة عنصر أساسي رئيس في مقومات هذا الانسان ونجدها تركّز على ما هو أهمّ وهو أن التديّن الحقّ لا ينفصل عن الحياة العملية، ولا ينفصم عن واقع هذا الانسان، وإنما هو مرتبط به ارتباطا وثيقا بل هو جزء منه، ولهذا نجد القصة تفصل في أسباب السعادة الروحية وأسباب الرقي المادي حتى تتم السعادة للمؤمنين بهذا القصص العاملين بتوجيهاته وارشاداته"[2] لذا فإنّ هذا المنهج يمكن اعتباره "من أبرز الخصائص الفنية في القصة القرآنية التي يعجز المخلوق عن مجاراة البيان القرآني فيها، لما يحوج إلى استجماع القوى الفنية جميعا في وقت واحد حتى لا يسقط موقف في معرض أو يزاد موقف وحتى يتمكن

---

(1)- مريم عبد القادر عبد الله السباعي، **القصّة في القرآن الكريم**، رسالة دكتوراه إشراف أ. د. أحمد أحمد غلوش، 1404هـ، ص 74.

(2)- فضل حسن عباس، **قصص القرآن الكريم**، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط:2، 1427هـ-2007م، ص 46-47.

من إدراك أبعاد المعرض وحضر متطلباته من الأحداث والقدرة على حشد تلك الأحداث واستهلالها من القصة، بحيث لا يهتز المسار الفني فيها وبحيث لا يتناقض حدث في حلقة سابقة مع حدث في حلقة لاحقة"[1] .

رابعا: القصّة القرآنية قصّة هادفة

إنّ من ميزات القصّة في القرآن تركيزها على العبرة والعظة وعرض أحداثها بأسلوب يتّسم بالصّدق والواقعيّة بعيدا عن الوهم والخيال لذلك لا نجد ذكرا كثيرا لأسماء وأمكنة وأزمنة بعينها وتحديدها والتّركيز عليها في القصّة فهي أمور ثانوية وليست من أهدافها لأنّها تدعوا في مُجملها إلى فضائل الأخلاق وتبتعد عن سفسافها، وتسعى إلى إقامة قوانين ثابتة للمؤمنين والكافرين على السواء كبيان ما كان من أحوال الأمم السابقة وما كان من مصائرهم بحيث يحمل المتلقي على التفكّر والتدبّر في كلّ ما يُقدم عليه﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: 111] وحتّى تدفع الكافرين إلى الإيمان ويأخذوا بحبل النجاة لئلاّ يحل عليهم العذاب يوم القيامة أو يكون قريبا من دارهم كما فُعل بقوم هود و قوم صالح و قوم لوط، وتدفع المؤمنين أيضا للتمسك بدينهم، وتثبيتهم على الايمان، وتحمّل الأذى في سبيله، لينالوا من النعيم ما أعد الله لهم ولأمثالهم من السابقين.

خامسا: القصّة القرآنية قصّة معجزة

القرآن الكريم معجزة الله الخالدة، أعجزت سوره وآياته البشر بأن يأتوا بمثله ولو في أصغر جزء منه، حتّى تعدّدت مناحيه الإعجازية من نظم وبلاغة وأسلوب رفيع يقرع الأسماع، ويؤنس الضمائر، ويأخذ بالألباب ويرقى بها، و القصّة جزء لا يتجزّأ من ذلكم الاعجاز

---

[1]- إبراهيم عوضين، **البيان القصصي في القرآن**، دار الأصالة، الرياض-السعودية-ط: 2، 1990م، ص 142.

سواء في الأسلوب الماتع الجامع بين مخاطبة العقل والوجدان، أو الحقائق الصّادقة عن الأمم الغابرة وما صاحبها من دقة في الوصف والتحليل، أو تناوله للأمور الغيبية الماضية والمستقبلة والحديث عن اليوم الآخر، كلّ ذلك أعجز البشر بأن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

وقد أشار القرآن في أكثر من موضع إلى تفرّد الله تعالى بعلمه بما كان من تفصيلات في أحداث القصص فقد قال معقّبا بعد أن ذكر كفالة زكريا لمريم عليهما السّلام: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤] وقال أيضا بعد ذكر قصّة هود عليه السّلام ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: 49]، وقال أيضا بعد ذكر ما جرى بين سيدنا موسى عليه السّلام وفرعون: ﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ(44) وَلَكِنَّآ أَنشَانَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ(45) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(46)** ﴾ [القصص: 44 - 46].

فهذه الآيات وغيرها صريحة في أنّ ما ورد من قصص في القرآن كلّه وحي من عند الله وليس لأحد من البشر أن يحدّث الناس عن أخبار و أحداث لم يكن قد عاشها فضلا عن سردها بتفاصيلها، فالرّسول ﷺ لم تكن له معرفة بكتب السّابقين وأخبارهم إلاّ أنّه أتى بتفاصيل ما وقع من أحداث بعيدة الزمن عنه، فهي من الأمور الغيبيّة التّي تعجز أفهام البشر عن إدراكها، لذلك نجد التّعقيب الالهي على هذه الأحداث بأنّها غيب لا يعلمها إلاّ هو، ونفى عن النبيّ محمد عليه السّلام و قومه العلم بها؛ وهذا جانب واحد من جوانب الإعجاز الكثيرة التّي لو ذهبنا نتقصّى مواضعها لأخذت منّا الصّفحات الطّوال على أنّ الجاحظ وأبو

الحسن الرماني، وعبد القاهر الجرجاني، والباقلاني، والرافعي، وطنطاوي، وفضل عباس، وغيرهم قد ألّفوا في ذلك صفحات لبيان أوجه الإعجاز المتعدّدة، يحسن الرجوع إليها متمثّلين بقول الباقلاني: "وعلى هذا فقس بحثك عن شرف الكلام، وماله من علو الشأن، لا يطلب مطلباً إلا انفتح، ولا يسلك قلباً إلا انشرح، ولا يذهب مذهباً إلا استنار وأضاء، ولا يضرب مضرباً إلا بلغ فيه السماء، لا تقع منه على فائدة فقدرت أنها أقصى فوائدها إلا قصرت، ولا تظفر بحكمة فظننت أنها زبدة حكمها إلا وقد أخللت"[1].

هذا ما يمكن قوله في هذا المبحث عن خصائص القصّة القرآنيّة الكثيرة "فلا شك أن القرآن الكريم بهذه الجوانب لا تضارعه صفة بشرية إذ إنّ القصة مهما نضجت في عصرنا، ومهما استكملت مقوماتها كما يذكر بعض الباحثين، فإنها لا يمكن أن تقارن بهذا السمو الإلهي وهذه القصص المحكمة التي أبدع الله تعالى قصّها."[2]

خلاصة الفصل:

خلاصة القول في هذا الفصل التّمهيدي نجملها في النّقاط الآتية:

. مفهوم السّياق القرآني هو: تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود دون انقطاع أو انفصال، وينقسم إلى ثلاثة محاور سياق السّورة الذي يرتبط بالوحدة الموضوعية للسورة ببيان المحور الذي تدور عليه آيات السورة المترابطة، وسياق المقطع الذي يشكّل محورا من محاور سياق السّورة، وسياق الآية الذي يرتبط ببيان معاني ألفاظها.

---

(1) - أبو بكر الباقلاني، **إعجاز القرآن**، ص 278.

(2) - عمر محمد عمر باحاذق، **الجانب الفني في قصص القرآن الكريم**، دار المأمون لتراث، بيروت، ط:1، 1413هـ 1993م، ص 169.

. يعدّ السّياق القرآني أصلاً من أصول التفسير الذي لا غنى للمفسّر عنه، لفهم مراد الله من كلامه وبيان المعنى الصّحيح للآية، وله أهمية كبرى في توجيه نظر المتلقي إلى المعاني الصّحيحة الدّقيقة لمدلولات الألفاظ والآيات القرآنية باعتباره صاحب سلطة وحاكميّة في ذلك.

. القصّة القرآنية تتميّز بمصدريّتها الإلهية وصدقها وواقعيّتها وغايتها المتمثّلة في الهداية وأخذ العبر، وقصص غير الأنبياء قسم من أقسام القصص القرآني وهي من الأحداث السّابقة لنبوّة محمّد ﷺ ونماذج بشرية مكرورة تحمل في أحداثها قيما سامية متنوّعة وموزّعة إلى مجالات متعدّدة خلّد الله ذكرها في كتابه العزيز للنّظر والاعتبار واستنباط أسرارها.

وبعد بيان هذه المفاهيم المتعلّقة بالسّياق والقصة القرآنية يتعيّن علينا معرفة دور السّياق القرآني في استخراج معاني آيات القصص في الجانب العقدي الإيماني منها، وهذا ما سنتعرّف عليه في الفصل الموالي.

الفصل الثّاني: أثر السّياق في بيان المعاني العقديّة الإيمانية للقصص

وفيه تمهيد وعدّة مباحث:

- ❖المبحث الأول: قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة
- ❖المبحث الثاني: قدرة الله على البعث والنّشور
- ❖المبحث الثالث: وحدانية الله
- ❖المبحث الرابع: عاقبة عدم الثّبات على الحقّ بعد معرفته والتّحايل على أوامر الله
- ❖المبحث الخامس: عاقبة من أنعم الله عليه بالعلم ولم يثبت على الحقّ
- ❖المبحث السادس: ابتلاء الله للمؤمن في دينه وسبل الثّبات على الإيمان
- ❖المبحث السابع: كمال قدرة الله تعالى على الخلق والتّكوين
- ❖المبحث الثامن: حكمة الله تعالى في الابتلاء بالعطاء والمنع وعاقبة ذلك
- ❖المبحث التاسع: التّضحية في سبيل الله والثّبات على الحقّ
- ❖المبحث العاشر: رعاية الله لبيته المقدّس

تمهيد:

العقيدة الإسلامية تشمل الاعتقاد بأركان الإيمان أو ما تُعرف بأصول العقيدة وهي التي ذكرها الله تعالى في سورة البقرة:﴿ اٰمَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُومِنُونَ كُلٌّ . اٰمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ(285)﴾ [البقرة: 285] وحدّدها الرسول ﷺ في حديث جبريل المشهور: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشرّه»[1]

والمؤمن إيمان خالصا لله يعقد قلبه على هذه الأصول وتصدّقها جوارحه وأفعاله واقعا مثلما تُشير إليه الآيات القرآنية في وصف المؤمن الذي يأتي ذكره في كثير من الأحيان مقرونا بالعمل الصّالح ﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيئَةِ(7) ﴾ [البيّنة: 07] ﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً(107)﴾ [الكهف: 107] فالله تعالى يرشدنا إلى أن تكون هذه العقيدة ممثّلة في حركيّة واقعيّة فعليّة ولا تبقى في مستوى الإيمان القلبي، وقد تعدّدت أساليب التّذكير بهذا المفهوم في القرآن الكريم وكان للقصص دور بارز في ذلك فقد اعتنى القصص القرآني بتركيز العقيدة في النّفوس والدّعوة إلى عبادة الله الواحد، وهي الحقيقة التّي يقوم عليها دين الله كلّه والتي تكرّرت على لسان كلّ رسول في قومه حيث يبيّن لنا السّياق القرآني بأنّ الكلمات التي عبّر بها جميع الرّسل –صلوات الله عليهم–مع اختلاف لغاتهم كانت موحّدة وقد جاءت ترجمتها في نصّ واحد:﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنِ اِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾[الأعراف: 59] وذلك لتحقيق معنى وحدة العقيدة السّماويّة – على مدار التاريخ – حتّى في صورتها اللّفظية! لأنّ هذه العبارة دقيقة في التّعبير عن حقيقة العقيدة، ولأنّ عرضها في

[1] - انظر: د.سليمان عمر الأشقر(ت: 1433هـ/ 2012م) **العقيدة في الله**، دار النفائس، الأردن، ط:12، 1419هـ/1999م، ص 12، والحديث: رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة، رقم:1،ج1، ص 36.

السّياق بذاتها يصوّر وحدة العقيدة تصويراً حسّيّاً؛ ولهذا كلّه دلالته في تقرير المنهج القرآني عن تاريخ العقيدة.[1]

والنّاظر إلى القضايا العقدية المعالجة في القصص القرآني يجد منها الكثير كإثبات وحدانية الله تعالى، وإثبات الوحي والنبوءة للرّسول ﷺ والردّ على شبهات ودعاوى المشركين والكفّار، والحديث عن اليوم الآخر وأهواله، وإثبات البعث والحشر والجزاء والمصير، والإيمان بالرسل والملائكة والقضاء والقدر وغيرها... وأغلب القصص القرآني ورد في الفترة المكيّة، وقد كان التّركيز في هذه الفترة على تثبيت أسس العقيدة السّليمة في النّفوس بإبطال المعتقدات الوثنيّة الجاهليّة، وحمل معتنقيها على التفكّر والتدبّر في الحجج والبراهين التّي ساقها القرآن الكريم لإصلاح معتقداتهم وتثبيت الايمان في نفوسهم من الآيات الكونية والتفكّر في قصص الأنبياء والأمم السّابقة، والنّفس مع القصّة تكون مُقبلة على السّماع ومتشوّقة إلى التّفاصيل فيكون تثبيت دعائم الإيمان وترسيخها في النّفس معها أقوى وأرسخ، وتطمئن إليها القلوب وتكون يقينا عند أصحابها لا يُمازجها ريب ولا يخالطها شكّ.

لذلك فإنّ الجانب العقدي كان المحور الرّئيس لأغلب قصص القرآن، وهو ما يفسّر كبر حجم هذا الفصل مقارنة بالفصلين الآخرين من اعتبار الجانب الدعوي والجانب الاجتماعي.

---

[1] - انظر: سيد قطب، الظلال، ج3، ص 1304.

المبحث الأوّل: قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة

يُحاول الباحث من خلال هذا المبحث إبراز دور السّياق في بيان معنى قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة من خلال الأحداث التّي تضمّنتها قصّة بقرة بني إسرائيل في سورة البقرة وكذا بيان بعض صفات اليهود الدنيئة من جحودهم لنعم الله عليهم وسوء أدبهم مع الرّسل وتعنّتهم في تطبيق أوامر الله في ثلاث مطالب من سياق السّورة وسياق المقطع والعلاقة بين سياق القصّة والسّياق العام للسّورة.

المطلب الأول: سياق سورة البقرة

تعتبر سورة البقرة من السور الطوال، جاءت بعد الفاتحة وقبل آل عمران في ترتيب المصحف وهي مدنية بالاتفاق على ما ذكره ابن حجر في فتح الباري[1] وهي من السّور التّي لم تنزل دفعة واحدة كما هو مشهور عند العلماء وإنّما "نزلت في مدد شتى"[2] وقد قيل إنها أول ما نزل بالمدينة لما جاء فيها من فرض الصوم في أواخر السنة الأولى أو بداية الثانية واستمر نزولها إلى سنة خمس أو ست لما اشتملت على أحكام الحج والعمرة وعلى أحكام القتال من المشركين في الشهر الحرام والبلد الحرام، وقد يمتد إلى ما بعد سنة ثمان، على أنه قد قيل أن آخر آية نزلت قوله تعالى:﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 281][3]، هذا من حيث الترتيب والنزول، أما السّياق العام لها فيمكن تقسيم ما ذكره المفسّرون إلى محاور ثلاثة على النّحو الآتي:

المحور الأوّل: علوّ شأن الدّين

---

(1) - ابن حجر أحمد بن علي أبو الفضل(ت:852هـ)، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة – بيروت، 1379هـ،ج8، ص160.

(2) - ابن عطية أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن (ت: 542هـ) **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت–ط:1، 1422 هـ، ج1، ص81.

(3) - التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج1، ص 201-202.

أشار ابن الزبير الغرناطي إلى أنّ الله بيّن للمسلمين المنهج السّليم للدّين الذي عبّر عنه بالصّراط المستقيم، وشرف من أخذ به، وسوء حال من تنكّب عنه[1]. وهو ما بيّنه كلّ من ابن عاشور[2] ، وشلتوت[3] حيث اعتبرا بأنّ التّشريع الالهي أسهم في تخريج جيل متميّز في عبادته وعاداته ومعاملاته.

المحور الثّاني: الجانب الغيبيّ

أشار إليه البقاعي وربط آيات السورة كلّها بهذا المحور من مفتتح السّورة حتّى الختام، وهو محور استنبطه من قصّة البقرة[4].

المحور الثّالث: موضوع الاستخلاف

وهو ما أشار إليه البقاعي من أنّ البداية السورة هداية وخاتمتها خلافة[5] وما صرّح به أيضا سيّد قطب من أنّ للسّورة خطّين منها ما يتعلّق بإعداد الأمّة لحمل أمانة الدعوة والخلافة في الأرض[6]، وابن عاشور الذّي اصطلح عليه بالجماعة المسلمة[7]، وفضل عباس حيث اعتبر بأن السّورة سورة التّكاليف وقد جاءت هذه التّكاليف مع ما يناسب شخصية السّورة وموضوعها من إعداد الفرد المسلم للخلافة[8]، وإلى ذلك أيضا ذهب بعض المعاصرين،

---

(1) -ابن الزبير الغرناطي أحمد بن إبراهيم، (ت: 708هـ) **البرهان في تناسب سور القرآن**، تحق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ المغرب، 1410 هـ - 1990 م ، ص 194.

(2) - ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 203.

(3) - شلتوت محمود، **تفسير القرآن الكريم: الأجزاء العشرة الأولى**، ، دار الشروق، القاهرة، ط12: 1424هـ، 2004م، ص51-52.

(4) - البقاعي إبراهيم بن عمر بن حسن (ت: 885هـ) **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**، تحقيق: عبد السميع محمد أحمد حسنين، دار المعارف، الرياض-السعودية- ط:1، 1408هـ،1987م، ج2، ص9.

(5) - البقاعي إبراهيم بن عمر بن حسن (ت: 885هـ) **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة – مصر-، ط: د ت ط، ج4،ص187.

(6) - سيد قطب، الظلال، ج1، ص28.

(7) - ابن عاشور، التحرير، ج1، ص202.

(8) - فضل حسن عباس، القصص القرآني، ص 54.

وهو ما يتوافق إلى حدّ كبير مع مضمون السورة، التّي تشتمل على أغراض عدّة منها بيان الشّرائع التّي تخصّ المجتمع المسلم الفتيّ في بنائه الجديد من أحكام الصّيام والحجّ والجهاد والقصاص وما يتّصل بعلاقة المسلمين مع اليهود والمشركين وحدودها وأحكامها وبيان جانب من شخصيّة بني إسرائيل وتاريخهم كونهم يمثّلون فئة من مجتمع المدينة، فقد ابتدأ الحديث عنهم بأمر الله لهم بالوفاء بالعهد والايمان والعمل بما أُنزل إليهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان باليوم الآخر من الآية 40 إلى الآية 141 وجاء الحديث فيها أيضا عن صفاتهم السيّئة من تنطّع في قبول أوامر الله واستخفاف بها أحيانا ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَامُرُكُمُ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنَ اَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ والحرص على الحياة وكراهية الموت ﴿قُلِ اِن كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الاَخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كنتُمْ صَادِقِينَ وَلنْ يَّتَمَنَّوْهُ أَبداً بِمَا قَدَّمَتَ اَيْدِيهِمْ واللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَلَتَجِدَنَّهُمُ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُّعَمَّرَ واللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾، وغيرها من الصّفات التّي لا تصلح أن تكون في فئة خصّها الله تعالى بإرسال الرّسل وحمل أمانة الدّين.

فهذه الآيات بمثابة العبرة والتّحذير للمسلمين بالمدينة بأن يكونوا أمثالهم وهم في بداية الطّريق لبناء المجتمع الجديد وإن يتولّوا يستبدل الله قوما غيرهم، ثمّ الإشارة بعد ذلك إلى مقوّمات التّكليف التّي خوطب بها المؤمنون بموجب الخلافة وإقامة الدّولة الفتيّة بتعاليم أحكام الدّين العامة من صلاة وصيام وحج وجهاد، فالسّياق العام للسّورة بهذا القدر متعلّق بمنهج الخلافة في الأرض بين من أقاموه ومن أضاعوه وهو ما يتوافق إلى حدّ كبير مع مضمون السورة التّي كانت أوّل سورة نزلت بالمدينة وقد صار للمسلمين عندئذ دولة وأرض فناسب أن يخاطبوا لوراثة الاستخلاف الإلهي لهم. [1]

[1] - انظر: مصطفى مسلم وآخرون، **التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم**، ط1، الامارات: جامعة الشارقة، 1431هـ-2001م ج1، ص28.

المطلب الثاني: سياق المقطع

أوّلا: عرض أحداث القصّة

أحداث القصّـــة تتعلّق بجريمة قتل وقعت في بني إســـرائيل أدّت إلى خلاف بين النّاس في معرفة القاتل وتدافعوا تهمة القتل بينهم فاحتكموا إلى موسى عليه السّلام للكشف عن هوية القاتل، فأوحى الله إلى موســى عليه السّــلام أن يأمرهم بذبح بقرة ذات سمات خاصّــة، وأن يُضرَب جسد القتيل الميت بجزء من البقرة المذبوحة ففعلوا فأحيا الله القتيل وكشف عن هويّة قاتله، وقد جاء تفصيل أحداثها في سورة البقرة من الآيات 67 إلى 73.

ثانيا: علاقتها بسباقها ولحاقها

جاءت آيات القصّة في سياق الحديث عن اليهود وذكر مخالفاتهم وتعنّتهم في تطبيق أوامر الله وأحكامه، ولما كانت آيات القصّة تعرض لبيان مساوئهم ناسب أن يُمهّد لها بخبر من أخبار سلفهم في تعاطيهم مع أوامر الله من الاستخفاف بها والاعتداء عليها مثلما حدث مع أصحاب السّبت حيث ذكّرهم الله تعالى بهذه الحادثة بما فيها من الزّواجر والرّحمة والتّوبة[1] فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ(65) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ(66)﴾ [البقرة: 65-66]

ويربط البقاعي أحداث هذه القصّة بالسّياق العام الّذي وردت فيه القصّة من الحديث عن اليهود وتعداد مساوئهم وسفههم فيقول بأنّه تعالى لما بيّن قساوتهم في حقوقه عامّة ثمّ خاصّة أتبعه ببيان غلظتهم وجفاءهم في مصالح أنفسهم لينتج أنّهم أسفه النّاس، ويذكر في موضع آخر نوعا من المناسبة بينهما من حيث تشديد الله تعالى عليهم في أمر السّبت والبقرة فقد أوجب الله عليهم العبادة يوم الجمعة لكنّهم أبو ذلك فابتلاهم الله بالسّبت وشدّد عليهم وفي قصّة

[1] - انظر: ابن عاشور، التحرير، ج1، ص 543.

البقرة شدّد الله عليهم في أمرها لما تعنّتوا في تطبيق أوامر الله وإبائهم ذبح أيّ بقرة تيسّرت فكانت قصّة البقرة أنسب الأشياء تعقيبا على قصّة السّبت.[1]

أمّا من حيث اللّحاق فكانت الآيات التفات بالخطاب إلى النبيّ ﷺ والمؤمنين يؤيّسهم الله تعالى من إيمان اليهود برسالة الإسلام لقساوة قلوبهم عن ذكر الله وتكرر كفرهم لنعمه تعالى تسلية له عليه السّلام عمّا كان يشتدّ حرصه من طلب إيمانهم فقال تعالى:﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُّومِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ(75) ﴾ [البقرة: 75]، وما بعدها من الآيات.[2]

ثالثا: تحليل أحداث القصّة

تتمحور أحداث القصّة حول سلوك اليهود وكيفيّة تعاملهم مع أوامر الله من جهة ومع الرّسل من جهة أخرى وهذا ما تبيّنه الأحداث التّي صُدّرت بها القصّة من الحوار الذي دار بين موسى عليه السّلام وقومه من بني إسرائيل وإخبارهم بأمر الله لهم بأن يذبحوا بقرة ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَامُرُكُمُ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنَ اَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ(67)﴾ ولكنّ المتلقي عندما يواصل تلاوة آيات القصّة يكتشف بأنّ هناك أحداثا قد سبقت هذا المشهد من قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(72)﴾ من أنّهم اختلفوا واختصموا في جريمة قتل وأصبح بعضهم يتّهم آخرين في ارتكاب ذلك الجرم فاحتكموا إلى موسى عليه السّلام؛ فهذا المشهد يعتبر بداية الأحداث للقصّة ثمّ تلتها آيات تمثّل نهاية أحداثها في قوله تعالى:﴿ فَقُلْنَا اَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمُ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(73)﴾ حيث أمرهم الله تعالى أن يضربوا القتيل ببعض أجزاء البقرة "ليعيد الله الحياة للقتيل فيفصح عمن قتله ليقتص منه موسى عليه السلام وذلك

[1] - انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج1، ص 466 و 472-473.

[2] - انظر: البقاعي، المرجع نفسه، ج1، ص 484-485.

الجزء المضروب به القتيل، ما هو إلا وسيلة جعلها الله لردّ الحياة إلى القتيل -وهو جزء ميت- حتى لا يظن القوم أن الحياة انتقلت من حيّ إلى ميّت، بل هي قدرة الله جسدها في هذه الوسيلة المادية ليستيقن القوم - وهم يؤمنون بالبعث-، وليستيقنوا بقدرة الله وهم يشاهدون ما حدث، وأنّ ذلك من آيات قدرة الله وعظمته."(1)وهذا هو الهدف الرّئيسي للقصّة من معرفة قدرة الله تعالى على البعث والنّشور والإحياء والإماتة، فلماذا بدأت أحداث القصّة من الأمر بذبح البقرة بدلا من أن تبدأ من أوّل الأحداث ومقدّمتها حسب التّرتيب المنطقي لها؟

إنّ المسوّغ لبداية الأحداث بأمر الذّبح له دلالة كبيرة على أنّ القصّة تُركّز عليها لتُلفت الانتباه إليها والإشارة إلى عمليّة إحياء الميّت، مُضافا لذلك ذكرها في سياق عرض المواقف الإسرائيلية التّي يطبعها التمرّد ونعم الله عليهم.(2) والتّي كان منها في القصّة الاستهزاء بالأمر وسوء الفهم للمقصود، وجوابهم المخالف للأدب مع الرّسل، والاستقصاء في السّؤال وسوء أدبهم في ذلك، وترك المصارعة إلى الامتثال.(3)وقسوة قلوبهم التي لا تلين لذكر الله ولا تخشع رغم الآيات الظّاهرة والمعجزات الحسيّة التّي كانوا شاهدين عليها فهي كالحجارة أو أشدّ، فهذه هي طباعهم وطباع أسلافهم.

---

(1) - كعباش محمد بن إبراهيم سعيد، **نفحات الرحمن في رياض القرآن**، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، ط: 1، 1425هـ/ 2004م، ج1، ص 156.

(2) - انظر: محمود البستاني، **دراسات فنيّة في قصص القرآن**، دار البلاغة، بيروت، ط:1، 1409هـ - 1989م، ص 24-25.

(3) - انظر: الألوسي شهاب الدين محمود بن عبد الله (ت: 1270هـ) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم**، تحق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت – ط:1، 1415هـ، ج1، ص 285. (بتصرّف)

المطلب الثّاني: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة

من خلال أحداث القصّة يتبيّن بأنّ سياق القصّة متعلّق بإبراز قضيّتين الأولى وهي قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة، والثانية بيان مساوئ بني إسرائيل وجحودهم لنعم الله عليهم واستهزائهم وتكذيبهم لرسلهم، وتأكّد تأصّل هذه الطّباع فيهم، وبيان ذلك من خلال ما يلي: قضيّة الإحياء والإماتة كانت الهدف الرّئيسي في القصّة لأنّ أحداثها تدور كلّها حول هذا المعنى فأصل بداية أحداث القصّة كان مشهدا لجريمة قتل وإزهاق روح وختامها إحياء ذلك القتيل ثمّ إماتته بقدرة الله تعالى، وما بين مقدّمة القصّة وخاتمتها حوار بين موسى عليه السّلام وقومه من بني إسرائيل للكشف عن هويّة مُرتكب هذا الجرم الشّنيع، وكان ذبح البقرة وسيلة لإحياء الميّت ويخبر عن قاتله، في مشهد حسّي مُشاهد ومُدرك مُيسّر لا يدع مجالا للارتياب والتّشكيك في قدرة الله تعالى على ذلك.

أمّا قضيّة مساوئ بني إسرائيل فإنّ القصّة جاءت متّسقة مع سباقها من الحديث عن تمرّد بني إسرائيل وكفرهم بنعم الله عليهم، ومع لحاقها الذي بيّن الله تعالى لنا فيه أنّ بني إسرائيل بعد كلّ تلك النّعم والمعجزات قست قلوبهم ولم تخشع لذكر الله ولم يكن هذا التّعقيب لأحداث قصّة البقرة فقط وإنّما لكلّ ما مرّ بهم من مُعجزات مثلما ذكر سيد قطب فقال "بأنّ هذه الآيات كانت تعقيبا كذلك على كل ما سلف من المشاهد والأحداث والعبر والعظات، تجيء هذه الخاتمة المخالفة لكل ما كان يتوقع ويرتقب: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوَ اَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الاَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(74) ﴾ والحجارة التي يقيس قلوبهم إليها، فإذا قلوبهم منها أجدب وأقسى، هي حجارة لهم بها سابق عهد فقد رأوا الحجر تتفجر منه اثنتا عشرة عيناً، ورأوا الجبل يندك حين تجلى عليه الله وخر موسى صعقاً! ولكن قلوبهم لا تلين ولا تندى، ولا تنبض بخشية ولا تقوى، قلوب قاسية جاسية مجدبة كافرة، ومن ثم هذا التهديد:﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(74)﴾.

وبهذا يختم هذا الشطر من الجولة مع بني إسرائيل في تاريخهم الحافل بالكفر والتكذيب، والالتواء واللجاجة، والكيد والدسّ، والقسوة والجدب، والتمردّ والفسوق."[1] وسياق آيات القصّة بهذه المعاني تتّسق مع السّياق العام لسورة البقرة في بيان منهج الخلافة في الأرض بين من أقاموه ومن أضاعوه، فإنّ بني إسرائيل قد فضّلهم الله بكثير من النّعم ومنها إرسال الرّسل وتطبيق منهج الله وتعاليمه والحفاظ عليها، ولكنّهم لم يكونوا أهلا لذلك فناسب أن يبيّن الله تعالى للمسلمين صفات هؤلاء القوم من بني إسرائيل ويحذّرهم من كيدهم وهم بينهم في المدينة ويعتبروا بمآلهم فلا يكونوا أمثالهم وهم في بداية الطّريق لبناء المجتمع الجديد، ومضمون السورة يُعالج هذا الجانب كونها أوّل سورة نزلت بالمدينة وقد صار للمسلمين عندئذ دولة وأرض، فقصّة البقرة وما صاحبها من أحداث جزء من تاريخ بني إسرائيل الحافل بنقض المواثيق والعهود وتكذيب الرّسل والإفساد في الأرض ممّا لا يتوافق مع متطلّبات الخلافة. والله أعلم.

---

(1) - سيد قطب، الظلال، ج1، ص 53.

المبحث الثاني: قدرة الله على البعث والنّشور

من خلال هذا المبحث يُحاول الباحث بيان أثر السّياق في تجلية معاني قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة والبعث والنّشـــور من خلال شـــخصـــيّة الذي مرّ على قرية وكيف جعله الله تعالى حجة على من جهل قدرته، وشكَّ في عظمته، وهو القادر على فعل ما يشاء من إماتة وإحياء، وإنشاء، ولا يقدر عليه غيره.

المطلب الثاني: سياق المقطع

أوّلا: عرض أحداث القصّة

القصّة تتحدّث عن رجل مرّ على قرية، ولم يُحدّد القرآن اسم الرّجل ولا اسم القرية، حيث وجد خاوية خالية من أهلها وأبنيتها ساقطة وقد أصابها الخراب، فتساءل متعجّبا كيف يعيد الله الحياة لهذه القرية؟ فأراه الله من الآيات ما يزيل عنه حالة الرّيب، حيث أماته مائة عام ثمّ بعثه، فأراه من آيات قدرته على الإحياء والإماتة ممّا يشاهده عيانًا من نفسه وطعامه وحماره، وقد كان في ظنّه أنّه لبث يوما أو بعضا منه، حينها تيقّن من قدرة الله تعالى وعظمته وأنّه على كلّ شيء قدير.

ثانيا: تحليل أحداث القصّة

من خلال الدّلالات اللغوية والنّقليّة لمعاني آيات القصّة، يتبيّن بأنّ القصّة جاءت في سياق بيان قدرة الله تعالى على البعث والإحياء والإماتة، وأنّه على كلّ شيء قدير، ولتجلية هذا المحور نذكر النّقاط التّالية:

1- الألفاظ التّي سيقت في القصّة والتّي تتضمّن معاني الإحياء والإماتة، منها: قرية خاوية على عروشها، فمن خلال هذا التّعبير القرآني تنقدح في ذهن القارئ صورة

الخراب الذّي أصاب القرية وانقطاع الأسباب التّي تمدّها بالحياة من أنّها صارت خاوية وحيطانها ساقطة على سقوفها[1]، وتفتّت العظام في أرجاءها ممّا جعل العبد المارّ منها يتساءل عن كيفيّة بعث الله الموتى وبثّ عنصر الحياة في أرجاء القرية، "فتقديم المفعول (هذه) على الفاعل (الله) للإيحاء بأن حالة التّدمير في القرية بلغت حدّا غير معهود، وأنّ تعجّب الرّجل وارتياعه ولّد عنده الشّك في قدرة تُعيد القرية إلى ما كانت عليه"[2]، بالإضافة إلى تعبيرات أخرى من قَبيل قوله تعالى:

(أنّى يُحيي هذه الله بعد موتها) (فأماته الله) (ثمّ بعثه)

(انظر إلى العظام كيف ننشرها ثمّ نكسوها لحما).

2- عنصر الزّمن:

ويتعلّق الأمر بمفردات وردت في القصّة تُشير إلى عُنصر الزّمن وما له من تأثير في قضيّة الإحياء والإماتة مثل كلمة اللّبث، و كلمة لم يتسنّه، فبالنّسبة لكلمة (اللّبث) ذُكرت ثلاث مرّات للعناية بهذا (اللّبث) "لأنّه أفخم حدث في القصّة، إذ كان يكفي أن يُقال: (يوما أو بعض يوم) في الردّ على السّؤال وأن يُقال في الردّ على الردّ: بل مائة عام."[3]، وجملة (لم يتسنّه) لم يتغيّر طعامه وشرابه رغم مرور السّنين عليه، وكذا حماره الذي أماته فأصبح جثّة ثمّ بعثه حيّا ونلاحظ في الحالتين "أنّ الله تعالى قاهر على الزّمن يستطيع أن يقبض المائة سنة عن مخلوقاته فتصير يوما أو يمُدّها فتكون مائة سنة، فقبض المائة سنة عن الطّعام ولم يتغيّر ولم يتلف، بينما مدّ الزّمان للحمار فهلك وتحلّل، ثمّ أعاد تركيبه وبعثه حيّا، وهي آيات تكشف عن سلطان الله القابض الباسط للزّمان دون تقييد بنظام حركيّ

[1] - انظر: البيضاوي أبو سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر (ت: 685هـ)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط:1، 1418 هـ، ج1، ص 156.

[2] - المطعني، التّفسير البلاغي للاستفهام، مرجع سابق، ج1، ص 146.

[3] - المطعني، المرجع نفسه، ج1، ص 146.

ومكان."[1] وهو ما يدخل في خرق القوانين التّي يألفها الإنسان ليعلم أنّ خالق تلك القوانين قادر على تغييرها متى شاء وكيف ما شاء.

إذا فسياق القصّة حديث عن قضيّة الموت والحياة والبعث والنشور، فالموت آية عظيمة مهولة عند البشر ولكن إعادة الرّوح للجسد ورؤية تلك المشاهد العجيبة وبثّ عنصر الحياة فيها يدعوا إلى الإيمان بقدرة الله تعالى على البعث والنّشور فتردّ القلوب الحائرة إلى اليقين، لذلك قال بعد أن عاين المشاهد ووقف على البراهين:﴿ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: 259]، حيث جاءت " أعلم" بصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدّد "لأنّه علمه في قبل وتجدّد علمه إيّاه"[2] في موقف المستسلم الخاضع لقدرة الله، عكس الكافر الذي بُهت أمام حجّة إبراهيم عليه السّلام وأصرّ واستكبر استكبارا.

3- من حيث السباق واللّحاق فإنّ المناسبة ظاهرة بيّنة بقرينة العطف فقد جاءت هذه الآية معطوفة على ما قبلها عطف معنى على معنى "لأنّ من شأن العرب العطف بالكلام على معنى نظير له قد تقدّمه وإن خالف لفظُه لفظَه"[3] بمعنى ألم تر يا محمّد كالّذي حاج إبراهيم في ربّه وكالّذي مرّ على قرية، فالتّرابط بينهما جليّ من خلال العطف، لأنّ قصّة الذي حاجّ إبراهيم عالجت موضوع قدرة الله تعالى وحده على الإماتة والإحياء وهذه القصّة كذلك، ومن حيث اللّحاق ذكر الطّبري بأنّ صحّة عطف الآيات الثلاث من قوله تعالى: (ألم تر) بمعنى: ألم تر بقلبك، ألم تعلم فتذكر، فهو وإن كان لفظه لفظ الرّؤية فيُعطف عليه أحيانا بما يُوافق لفظه من

---

(1)- انظر: مصطفى محمود، **من أسرار القرآن**، دار العودة، بيروت، لبنان، ط: 1976، ص 24-25.

(2) - ابن عاشور، التحرير، ج3، ص 38.

(3) - الطبري، جامع البيان، ج5، ص 438.

الكلام وأحيانا بما يُوافق معناه."[1] فالقصص الثلاث جاءت بهذا التّرتيب لمعالجة موضوع الإماتة والإحياء.

4- سياق المقطع يتعلّق بالقصّتين الخاصّتين بسيّدنا إبراهيم عليه السّلام والقصّة التّي تتوسّطهما للذّي مرّ على قرية، لأنّ الرّابط بينها محور الإماتة والإحياء ويتبيّن ذلك من خلال ما يلي:

بداية أحداث القصص والتّي تحدّد المقصود بوضوح فالأولى بدأت ب:﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾ والثانية ب: ﴿ قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ والثالثة ب: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾ فالجامع بينها كما نلحظ هي عبارات الإحياء والإماتة، والسّؤال الذي يمكن طرحه أنّه مادامت هذه القصص في قضيّة واحدة لماذا ذكرت متفرّقة؟ ولماذا فُصل بين قصّتي سيدنا إبراهيم بقصّة الذي مرّ على قرية؟ والإجابة عن هذه التّساؤلات تقودنا إلى تذوّق أسرار القرآن والفنّ القصصي فيه لأنّ كلّ واحدة من هذه القصص عالجت جانبا خاصّا قد تدرّج به النص على مستويات فالأولى استهدفت قدرة الله تعالى على الإحياء و الإماتة وانتهت بعد المناقشة بين النّمرود وإبراهيم عليه السّلام بتسليم الجاحد بالحقيقة ﴿ فَبُهِتَ الذِي كَفَرَ﴾ والثانية في قدرته تعالى على خرق القوانين حيث يشكّك المارّ على القرية بقدرة الله على الإماتة والإحياء ويستبعد وقوع ذلك تبعا للقوانين التّي يرسمها الله تعالى من حصول ذلك في البعث يوم الآخر مثلا ولكن الله يبيّن له قدرته على إمكان خرق القوانين بإماتته مائة سنة ثمّ إحياؤه أمّا الثالثة في الاطمئنان بعمليّة تجريبيّة في خرق القوانين وعدم استبعاد حصول ذلك[2] وهذه المستويات الثّلاث تمثّل درجات الإيمان بقدرة الله تعالى كما نبّه إليها البقاعي قائلا بأنّ :" المراد التحذير عن حال الأوّل والنّدب

---

[1] الطبري، جامع البيان، ج5، ص 485.

[2]- أنظر: محمود البستاني، **التفسير البنائي للقرآن الكريم**، مجمع البحوث الإسلامية ، مشهد، ط:1، 1422هـ ج1، ص 122-123.

إلى الارتقاء عن درجة الثّاني إلى مقام الثّالث الذي حقيقته الصّدق في الإيمان لرجاء الحيازة ممّا أُكرم به"(1) من اليقين والطّمأنينة.

المطلب الثالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة

سياق سورة البقرة كما عرفنا يدور حول الاستخلاف وإعداد الأمّة الفتيّة لهذا الدّور الحضاريّ، ولا يخفى ما للإعداد العقدي من أهميّة في هذا الجانب فقوّة المؤمن يستمدّها من صلته المتينة بالله تعالى ومعرفته حقّ المعرفة والامتثال لشريعته فكان مما اهتمّت به السّورة الكريمة بيان دلائل الإيمان وتعميقه في النّفوس واتّخذت في ذلك أساليب متنوّعة؛ ففي هذا الجزء جرى معالجة هذا الجانب بأسلوب القصّة بعرض ثلاثة نماذج، تدور حول إنشاء بعض قواعد التصوّر الإيماني لقدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة وإجراءها على جميع مخلوقاته وتثبيت دعائمها، وهداية المؤمنين إلى الحقّ ببيان مراتبه الثلاث:" أوّلها: الهداية بالبرهان والاستدلال كما في قصّة الذي حاجّ إبراهيم في ربّه حيث هدى إبراهيم إلى حقّ القول ولم يهد الذي حاجّه بل أبهته وأضلّه كُفره، الثانية: الهداية بالإرائة والإشهاد كما في قصّة الذي مرّ على قرية فإنه بيّن له ما أشكل عليه من أمر الاحياء وبإماتته وإحيائه وسائر ما ذكره في الآية، الثّالثة: بإرائة السّبب والمسبب معا"(2) وهذه المراتب من بيان الحقّ بالبراهين المقنعة السّاطعة من شأنها أن تفضي إلى الإيمان اليقيني والطّمأنينة الصّادقة ولا شكّ أنّ ذلك يزيد في رصيد المؤمن العقدي ويُكسبه يقينا ثابتا بحقائق الوجود وخالق الموت والحياة "وكان هذا محطّاً في خطّ السّورة الطّويلة؛ الّتي تعالج -كما أسلفنا – إعداد الجماعة المسلمة للنّهوض بتكاليف دورها في قيادة البشريّة."(3)

---

(1)- أنظر: البقاعي، نظم الدرر، ج1، ص 509

(2)- الطباطبائي السيد محمد حسين (ت: 1402هـ) **الميزان في تفسير القرآن**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان – ط:5، 1403هـ-1983م، ج3، ص 361.

(3)- سيد قطب، الظلال، ج1، ص 283.

استكمالا لما ذُكر من قبل يمكن القول بأنّه في نماذج الإحياء والإماتة توجيه بالقول إلى المؤمنين بأنّكم إن لم تكونوا أهلا للخلافة والتّمكين فسوف يأتي الله بقوم غيركم؛ فقد أرانا الله نموذجا للملأ من بني إسرائيل من بعد موسى كيف أمدّهم أسباب التّمكين والتّغيير لأوضاعهم من الذلّ والاستعباد والهوان إلى حياة أفضل باتّباع منهجه القويم، لكّنهم لم يكونوا على قدر المسؤولية إلاّ قليلا منهم ممّن كُتب لهم النّصر بهزيمة جالوت على يد داود عليه السّلام وبداية عهد وحياة جديدة عزيزة لبني إسرائيل بملك داود وسليمان عليهما السّلام، وتعتبر هذه الحقبة "أعلى قمّة وصلت إليها دولة بني إسرائيل في الأرض، وهي عهدهم الذهبي الذي يتحدّثون عنه"[1] فحالهم قبل طالوت وداود أشبه بميّت ليس له دور في الحياة سوى التّواجد الجسدي، والله أعلم.

---

[1]- سيد قطب، الظلال، ج1، ص 243.

المبحث الثالث: وحدانية الله

في هذا المبحث يُحاول الباحث بيان أثر السّياق في تجلية معنى وحدانية الله تعالى من خلال أحداث قصّة امرأة عمران ومريم حيث نقف على القول الحق في عيسى عليه السّلام، بإثبات نسبه البشري إلى آل عمران ونفي الألوهيّة عنه، والإشارة إلى القرائن والدّلالات التّي تُبرز تلك المعاني، وتفصيل ذلك في ثلاث مطالب من سياق السّورة وسياق المقطع وسياق القصّة وما بينها من اتّصال.

المطلب الأول: سياق السورة

سورة آل عمران من السّور الطّوال ووجه تسميتها بسورة آل عمران أنها ذكرت فيها فضائل آل عمران وهو عمران بن ماتان أبو مريم وءاله هم زوجه حنة وأختها زوجة زكرياء النبيء، وزكرياء كافل مريم إذ كان أبوها عمران توفي وتركها حملا فكفلها زوج خالتها.[1]، والسّورة مدنية وحكى ابن عطية الاجماع على ذلك.[2]

وقد ذكر في سبب نزولها أنّها نزلت في الوفد من نصارى نجران يُخاصمون في ألوهيّة عيسى عليه السّلام حيث أنزل الله فيهم صدر السورة إلى بضعة وثمانية آية منها[3]

بالنظر إلى حجم السورة التي تعتبر من الطّوال فإنّ الموضوعات التي تناولتها كثيرة فقد شملت عدّة جوانب من عقيدة وتشريع، ومجادلة لأهل الكتاب، مما جعل أمر الفصل في السّياق العام للسّورة في غاية الصعوبة وهو ما يُفسّر اختلاف أوجه النّظر إليها من قِبل المفسّرين والكاتبين في هذا المجال.

---

(1) - ابن عاشور، التحرير، ج3، ص 143.

(2) – ابن عطية، المحرر، ج1، ص 396.

(3)–انظر: الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري،(ت: 468هـ) **أسباب نزول القرآن**، تحق:عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدمام- السعودية، ط:2، 1412هـ - 1992م، ج1، ص 97-98.

يقول البقاعي بأنّ السّورة سيقت لإثبات الوحدانية لله تعالى وبأنّ أدلّ ما في السّورة على ذلك ذكر آل عمران لما فيها من الأدلّة على القدرة التّامة الموجبة للتّوحيد الذي ليس في درج الإيمان أعلى منه.[1]

ويذكر سيد قطب بأن سياق السّورة يتلخّص في ثلاث خطوط عريضة هي: بيان معنى الدين ومعنى الإسلام الثاني وهو تصوير حال المسلمين مع ربهم واستسلامهم له وتلقيهم لكل ما يأتيهم منه بالقبول والطاعة والاتباع الدّقيق...الثالث وهو التحذير من ولاية غير المؤمنين والتهوين من شأن الكافرين وتقرير أنه لا إيمان ولا صلة بالله مع تولي الكفار الذين لا يحتكمون لكتاب الله ولا يتبعون منهجه في الحياة، وتقرير التصوّر الإسلامي وتوضيح حقيقة التوحيد ومقتضاه في حياة البشر.[2]

أما الألوسي أشار إلى أن سياق السورة امتداد لما جاء قبلها في سورة البقرة من بيان حقيقة الكتاب من إنزال الكتاب وتصديقه للكتب قبله والهدى إلى الصراط المستقيم.[3]

وفي التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم يذكر بأنّ محور السورة العام: "هو إثبات وحدانية الله تعالى وما يتعلّق به من تقرير بشرية عيسى عليه السلام ووحدة الدين والرسالات وأهمية طاعة الله تعالى ورسوله. وإقامة الأدلة عليه نقلا وعقلا."[4].

هذه آراء بعض المفسّرين والدارسين في تقرير السّياق العام للسّورة حيث نلحظ أنّهم مُجمعون على الجانب العقدي من إثبات لوحدانية الله تعالى ووحدة الدّين والكتب والرّسالات وبيان التصوّر الصّحيح للدّين وحدود التّعامل مع أهل الكتاب، وهذا ما حدا بالباحث إلى اعتبار السّياق العام للسّورة متعلّق بإثبات الوحدانية لله تعالى لتوافر عدد من الشّواهد ذكرها مفصّلة صاحب التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ولا بأس أن نذكرها ملخّصة فيما يلي:

---

(1) – انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج4، ص 195-197.

(2) – انظر: سيد قطب، الظلال، ج3، ص 357-358.

(3) – انظر: الألوسي، روح المعاني، ج2، ص 72.

(4) – مصطفى مسلم وآخرون، التفسير الموضوعي، ج1، ص 418.

- سورة آل عمران الوحيدة التي فُصل فيها بين الأحرف المقطعة والحديث عن القرآن الكريم، فقد فُصل بينها بالتأكيد على وحدانية الله تعالى وأنّه حيّ قيّوم ﴿ أَلَمّ (1) اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ(2) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ بخلاف باقي السّور التي افتتحت بالحروف المقطعة يأتي الحديث عن القرآن مباشرة بعد الأحرف المقطّعة.
- شهادة توحيد الله تعالى ذكرت صراحة خمس مرات في السّورة﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [6] ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [18] ﴿ وَمَا مِنِ اِلَهٍ اِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [62]
- ذكر الأمر بعبادة الله وعدم الاشراك به واتّخاذ البشر آلهة قال تعالى: ﴿ قُلْ يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ اِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا اَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [64]
- تكرّر في السورة إطلاق المشيئة والإرادة لله تعالى وإسناد الأمور له وحده قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُوتِي الْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [26] وقوله أيضا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَّشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [37] ﴿ كَذَالِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [40] ﴿ كَذَالِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ اِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [47].
- ذُكر في السورة إثبات العلم المطلق لله تعالى﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [66] وتصرفه في الكون بمشيئته ﴿ قُلِ اِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَنْ يُوتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلِ اِنَّ الفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُوتِيهِ مَنْ يَّشَآءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(73) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَّشَآءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [73-74] وتنزيه الأنبياء عن الدعوة إلى الشرك كما يزعم النصارى ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُّوتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوءَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ

وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ(79) وَلاَ يَامُرَكُمُ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيئِينَ أَرْبَابًا اَيَامُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذَ اَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [79-80] وهكذا نرى أن آيات السورة الكريمة تتناول محور السورة الرئيس بشكل مباشر كما تتناول أيضا الموضوعات المرتبطة به والله أعلم.[1]

- اسم السورة حيث ذُكر أن وجه تسميتها ب: "آل عمران" لما ورد فيها من ذكر فضائل آل عمران والمقصود بأسرة آل عمران هم: عمران بن ماتان أبو مريم وآله هم زوجه حنّة وأختها زوجة زكرياء النبيء. وزكرياء كافل مريم إذ كان أبوها عمران توفّي وتركها حملا فكفلها زوج خالتها[2]

- معظم الحوار في السّورة يدور مع النصارى وأكبر خلاف هو في بشرية عيسى عليه السلام....أما تسمية السورة فهو لدحض شبهة الألوهية عن عيسى عليه السلام لأنه لا خلاف في أمر مريم عليها السلام وهي بنت عمران وامرأة عمران هي أمها وبالتالي فإن عيسى عليه السلام هو من آل عمران إذن فاسم السورة يشير إلى النسب البشري الذي لا خلاف فيه لعيسى عليه السلام فمجرد اسم السورة يكفي في حسم هذا الخلاف لذلك جاء في آخر السورة قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُّومِنُ بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِئَايَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمُ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [199][3]، وهذا اعتبار وجيه وملحظ مهمّ يُضاف إلى ما قد قيل من قبل في أنّ السياق العام للسورة يركّز على إثبات وحدانية الله تعالى من عدّة جوانب فقضيّة نفي الإلهية عن سيدنا عيسى عليه السلام وإثبات بشريته وانتمائه نسبا إلى آل عمران من أهمّ القضايا المتعلّقة بسياق السّورة.

---

(1) – مصطفى مسلم وآخرون، التفسير الموضوعي، ج1، 409-413

(2) –ابن عاشور، التحرير، ج3، ص 143.

(3) – مصطفى مسلم وآخرون، المرجع نفسه، ج1، ص 416.

المطلب الثاني: سياق المقطع

يتناول سياق هذا المقطع الآيات التّي ورد فيها ذكر مناقب آل عمران وما اختصّوا به من إكرام الله تعالى لهم فكانت الإشارة إلى امرأة عمران والنّذر الذي نذرت به نفسها بتقديم حملها لخدمة بيت الله واختيار اسم مريم العابدة تيمّنا بذلك وزيادة إخلاص ورجاء قبول الله تعالى لها ﴿ اِذْ قَالَتِ اِمْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيَ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيَ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (36) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّآءُ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّآءُ الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَّشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(37) ﴾ [35-37]، ثمّ تتبعها الآيات التي تبيّن مكانة مريم عليها السّلام عند الله تعالى فهي الطّاهرة العفيفة العابدة المتنسّكة وتبيّن الحوار الذي دار بينها وبين الملائكة ومولد عيسى عليه السّلام من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَآءِ الْعَالَمِينَ(42) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ(43) ذَالِكَ مِنَ اَنبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمُ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمُ إِذْ يَخْتَصِمُونَ(44) إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالاَخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ(45) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ(46) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَالِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ اِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ(47) ﴾ [42-47].

أوّلا: عرض أحداث القصّة

قصّة امرأة عمران ذُكرت مُختصرة في آيتين من السّورة ذلك أنّها كانت تمهيدا لقصّة مريم في قوله تعالى: ﴿ اِذْ قَالَتِ اِمْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيَ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(35) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ

وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(36)﴾ [آل عمران: 35-36] حيث اقتصرت الأحداث على النّذر المتعلّق بتحرير امرأة عمران ما في بطنها لخدمة بيت الله والانقطاع لعبادته، فلمّا وضعت حملها اكتشفت أنّها أُنثى فتحسّرت لفوات ما قصدته من تحريره لخدمة البيت فالأنثى لا تصلح لذلك عادة ففوّضت أمرها إلى الله متضرّعة مخلصة بأن يحفظها وذريتها من مكائد الشّيطان.

ثمّ تلتها أحداث قصّة مريم التّي تبدأ بسرعة الاستجابة لدعاء امرأة عمران من الله تعالى فقد أُحيطت مريم بعناية الله وحفظه فأنشأها تنشئة حسنة واختار لكفالتها عظيما من عظماء بني إسرائيل ورسلهم: إنّه زكرياء النبيء.

ثانيا: علاقتها بسباقها ولحاقها

بيّن الله تعالى قبل آيات قصّة امرأة عمران اصطفاءه لصفوة خلقه كآدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران تمهيدا للتّفصيل في قصّة سيدنا عيسى عليه السلام من حيث مولدُه ونشأته وبعثه رسولا إلى بني إسرائيل فقد خصّ الله آل عمران بالذّكر في المصطفين الأخيار الذين اختارهم لمهمّة إيصال رسالة السّماء للخلق والخلافة في الأرض وبيان مناقبهم التّي أهّلتهم لهذه المكانة من اظهار كمال العبودية لله والاستعداد لنشر الخير والصّلاح وإجرائه في الذريّة الطيّبة الصّالحة، من خلال نذر امرأة عمران ما حملته في بطنها لخدمة بيت الله وكذا اختيار اسم مريم ومعناه عندهم: المتعبّدة، التّي وصفها الله تعالى بالقانتة والمتعبّدة والطّاهرة، إلى أن اكتملت هذه المناقب بنبوءة سيدنا عيسى عليه السّلام وما خصّه الله به من الآيات المعجزة؛ فهذه الأوصاف الخيّرة سيقت في هذه الآيات لبيان مكانة آل عمران عند الله تعالى ووجه من وجوه اتّصال الآيات ببعضها وتسلسل المعاني في سلك الألفاظ القرآنية.

أمّا عن لحاقها فسياق الآيات امتداد لقصّة مريم عليها السلام من البشارة بالمسيح عيسى عليه السلام وما أكرمه الله به من علم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وحمل الرّسالة إلى بني

إسرائيل وتأييده بالمعجزات الحسيّة الخارقة ودعوتهم إلى عبادة الله الواحد ممّا يجلّي قضيّة محاجّة الوفد من نجران في بشرية عيسى عليه السّلام ونفي الألوهيّة المزعومة عنه بدعوتهم إلى المباهلة "التّي تركوها لما علموا تفرّد الخالق بالوحدانية وأنّه المعبود بحقّ —كما عُلم ذلك من السّياق – وبأنّهم له عاصون ولحقّه مُضيّعون وأن ما يدّعون إلاهيّته لا شيء في يده من الدّفع عنهم ولا من النّفع لهم فلا برهان أقطع من هذا."[1] لذلك صرّحت الآيات بعدها بأنّ ما قصّه الله عن عيسى وأمّه هو الحقّ الذي لا مِرية فيه وأن لا معبود بحقّ سواه.

ثالثا: تحليل أحداث القصّة

قصّة امرأة عمران وقصّة مريم جاءتا ضمن سلسلة من القصص الحق في سورة آل عمران حيث ابتدأت هذه السلسلة بقصّة امرأة عمران وذكر طرف من قصّة مريم ثمّ قصّة زكريا وقصّة يحي عليهم السّلام، ولما كان البحث مُقتصرا على امرأة عمران ومريم فكان لزاما على الباحث التّركيز على الآيات التّي تشمل أحداث قصّتهما.

قصّة امرأة عمران ومريم عليها السّلام اختصّتا بالعنصر النّسوي وبالتّالي فإنّ أحداثها تكون خاصّة بالنّساء وما يدخل في تركيبتهنّ الخِلقيّة من الولادة والرّعاية للمولود والتّنشئة والتّربية الحسنة، ولكنّ امرأة عمران ومريم خصّهما الله تعالى بالذّكر لما تميّزتا به عن بقيّة النّساء من إخلاص العبودية وحسن التوكّل على الله، وكلّ ما يدخل في صفات المرأة التقيّة النقيّة الطّاهرة، فسياق آيات قصّة امرأة عمران تقدّم لنا نموذجا للمرأة الصّابرة العابدة المحتسبة المتوكّلة على الله ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(35) ﴾ حيث يذكر المفسّرون بأنّ الولد قد أمسك عنها حتّى تقدّمت في العمر وأسنّت فدعت الله أن يهبها ولدا فحملت بمريم وهلك عمران فنذرت حملها أن يكون خالصا لخدمة

[1] - البقاعي ، نظم الدرر، ج4، ص 445.

بيت الله[1] فهذه هي امرأة عمران الصّابرة العابدة المتوكّلة على الله حتّى وإن أمسك عنها الولد طيلة فترة شبابها -وهي فترة مظنّة الحمل بالولد دون سنّ اليأس- تتمسّك بالأمل الإلهي وتتضرّع إليه أن يرزقها الولد وهي مسنّة عقيمة؛ ولم تطلب ولدا ليكون كبقيّة الأولاد وإنّما يكون محرّرا خالصا للعبادة وخدمة بيت الله، ثمّ يقدّم لنا السّياق نموذجا آخر من صبرها وثباتها وحسن توكّلها بالله ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيَ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(36) ﴾ فهذه الآيات تبيّن بأنّ الله رزقها بالأنثى وكانت ترجو أن يكون ذكرا ليكون مُحررا لخدمة بيت الله ولا يجوز تحرير الإناث للبيت عندهم فتلهّفت وأفزعها أن نذرت ما لا يجوز نذره[2] إلاّ أنّها أوكلت أمرها إلى الله وثبتت على نذرها إخلاصا لله تعالى واختارت لها اسم مريم وهي بمعنى العابدة عندهم ودعت الله أن لا يجعل للشيطان إليها سبيلا ولا إلى ذريّتها، وبمقتضى هذا الإخلاص في الدّعاء والتضرّع والتوكّل على الله كانت الإجابة السّريعة لدعائها ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّآءُ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّآءُ الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَّشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(37) ﴾ فقد تقبّل الله منها نذرها واقتضت حكمته تعالى تغيير تلك العادة بجعل الأنثى في المسؤولية الدينيّة كالذّكر سواء بسواء[3]، ثمّ تتوالى الكرامات لآل عمران بحفظ الله ورعايته لهم بتقبّل النّذر وإبلاغ زكريّا بذلك وحيا وأمره بكفالة مريم وإقامتها لخدمة المسجد وقد كان زكريا أعظم أحبارهم[4] حيث اقتضت حكمة الله ورعايته وحفظه أن تنشأ في كنف هذا الحبر التقيّ لتكتسب بتربيته صلاحا وطهرا، وبالفعل فقد انعكس على سلوكها وعبادتها لله في محرابها وزادها الله مكانة وفضلا بأن أنعم

---

(1) - انظر: الطبري، جامع البيان، ج6، ص 330.، ابن عطية، المحرر الوجيز، ج1، ص 424.ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2، ص 28.

(2) - انظر، ابن عطية، المحرر الوجيز، ج1، ص 425.

(3) - كعباش، نفحات الرحمان، ج2، ص 277.

(4) - أنظر: ابن عاشور، التحرير، ج3، ص 235.

عليها برزق وفير جعل زكريا يتعجّب ويستفسر عن مصدره، فيجد إجابة المتوكّل الصادق بإرجاع الفضل إلى الله الرزّاق العليم؛ ولما شاهد تلك الكرامة لمريم طلب من الله تعالى أن يرزقه ذرية طيّبة على أمل أن تكون له كرامة مثل ما لآل عمران ومريم من كرامات، فاستجاب الله تعالى له ووهب له يحي على كبره وعقم زوجته.

أحداث قصّة مريم بعد ذلك تنتقل إلى الآيات من قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلآَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَآءِ الْعَالَمِينَ(42) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ(43)﴾ عطف على جملة إذ قالت امرأة عمران وانتقال من ذكر أمّ مريم إلى ذكر مريم وفي هذه الآيات بيان لمزيد رعاية الله لها وتنويه بمقامها وما خصّها الله به من كرامات وهي:

. تكليم الملائكة لها.

. اصطفاء الله لها بجعلها منزهة زكية، ومفضلة على غيرها من نساء زمانها أو نساء العالمين.

. إعادة النداء في قول الملائكة: يا مريم اقنتي لقصد الإعجاب بحالها والتنويه بحالها.

. أمرها بملازمة العبادة والقنوت، والركوع مع الراكعين والإذن لها بالصلاة مع الجماعة، وقد كانت خصوصية لها من بين نساء إسرائيل إظهارا لمعنى عُلوّ شأنها عن بقية النّساء، ولذلك جيء في الرّاكعين بعلامة جمع التّذكير.

. البشارة بميلاد المسيح عيسى عليه السّلام بدون واسطة أسباب النّسل المعتادة وتكوين الجنين والبشارة بنبوءته وما يصاحبها من إرهاصات ومعجزات.[1]

هذه أحداث قصّة امرأة عمران ومريم في السّياق الذي وردت فيه حيث نلحظ أنّ المعاني التّي سيقت قُصد منها التّنويه بحالهما من الإيمان الصّادق والعبوديّة والإخلاص لله تعالى ومكانتهما عنده تعالى من خلال الكرامات التّي أسلفنا الحديث عنها ممّا جعل ذكر آل عمران يأتي مقرونا بصفوة خلق الله من آدم ونوح وآل إبراهيم.

---

[1] - انظر: ابن عاشور، المرجع نفسه، ج3، ص 243-246.

المطلب الثّالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة

عرفنا فيما سبق بأنّ السّياق العام للسورة يتمحور حول إثبات وحدانية الله تعالى، وقد كان للعنصر القصصي في السورة حضور مُعتبر حيث تُبسط من خلاله الحقائق وغالبا ما تكون هذه المعاني والحقائق مرتبطة بالسّياق العام للسّورة وللقضايا المهمّة التي تعرضها وهنا نجد أنّ القصص المتعلّق بآل عمران يعرض المناقب والمكارم التّي خصّ الله بها امرأة عمران ومريم وعيسى وزكرياء ويحي وبيان مكانتهم عند الله تعالى، وتأكيد حقيقة انتماءهم إلى العنصر البشري ونفي الإلهية عن عيسى عليه السلام "وتنفي فكرة الولد والشريك، وتستبعدهما استبعاداً كاملاً، وتُظهر زيف هذه الشّبهة وسُخف تصورها، وتبسط مولد مريم وتاريخها، ومولد عيسى وتاريخ بعثته وأحداثها بطريقة لا تدع مجالاً لإثارة أيّة شبهة في بشريته الكاملة، وأنّه واحد من سلالة الرسل، شأنه شأنهم، وطبيعته طبيعتهم، وتفسّر الخوارق التي صاحبت مولده وسيرته تفسيراً لا تعقيد فيه ولا غموض، من شأنه أن يريح القلب والعقل، ويدع الأمر فيهما طبيعياً عادياً لا غرابة فيه."[1]

يُضاف إلى ذلك تقرير مبدأ الاصطفاء للنّهوض برسالة السّماء وقد ذكرت في سياق المقطع ثلاث مرات الأولى لآل عمران مجتمعين ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33)﴾ والثانية والثالثة لمريم عليها السّلام ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَآءِ الْعَالَمِينَ(42) ﴾ والاصطفاء من شأن الله وقدرته ومشيئته وحكمته.

وكذا التّعقيب على القصص بعد أن بسط الله القول في بيان حقيقة عيسى وأمّه عليهما السّلام ونسبه البشري إلى آل عمران وأصله من تراب مثله كمثل آدم، وصف ذلك بالحقّ الذي لا مِراء ولا جدال فيه نافيا بذلك كلّ الأقاويل والافتراءات المزعومة في كتبهم﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ

[1]- سيد قطب، الظلال، ج4، ص 390.

الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنِ اِلَهٍ اِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(62) ﴾ والاقتصار في أحداث القصص على ما يخدم السّياق العام للسورة مثل:

. إرهاصات ولادة مريم التي وُلدت يتيمة، ثمّ عناية الله لها حيث هيّأ لها البيئة الصّالحة الآمنة وتربّت في بيت النبوّة بكفالة زكريا وتوفير الرّزق لها وهو ما يدخل في معنى الاصطفاء ولذلك عُرفت بالطّهر والعفاف والقنوت والإخلاص في العبادة، وكان لها مزيّة اختصاص على نساء العالمين.

. التّركيز على الأحداث المتعلّقة بالولادة ولادة مريم، ولادة يحي، وولادة عيسى عليهم السّلام، فقصّة امرأة عمران كانت تمهيدا لقصّة مريم وولادتها لعيسى عليه السّلام من دون أب بقدرة الله ومشيئته وقصّة زكرياء عليه السلام واستجابة الله لدعوته بالذرية الطيّبة بميلاد يحي كانت تمهيدا في السّياق أيضا لقصّة عيسى عليه السّلام وكلّها معجزة الله التّي تدخل في مُطلق قدرته ومشيئته.

وتبقى نقطة مهمّة أخرى متعلّقة بإثبات بشرية عيسى عليه السّلام فقد افتتح الله تعالى السورة ببيان وحدانيته وبأنّه الحيّ القيّوم وختم بها سياق الآيات التّي تحدّثت عن مريم وعيسى عليهم السلام في قوله:﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنِ اِلَهٍ اِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(62)﴾ وفي ذلك إشارة إلى أنّ القضيّة الرئيسيّة في هذه السّورة الكريمة هي إثبات وحدانية الله تعالى وقصّة آل عمران (امرأة عمران ومريم وعيسى) سيقت لتجلية هذه المعاني وبيان القول الحقّ فيها والله أعلم.

المبحث الرابع: عاقبة عدم الثّبات على الحقّ بعد معرفته والتّحايل على أوامر الله

من خلال هذا المبحث يُحاول الباحث بيان أثر السّـــياق في بيان معنى عدم الثّبات على الحقّ الذّي جاء من عند الله ومعرفته بعد تبليغه من الرّســـل وعاقبة التّحايل على شـــرع الله وأوامره ممّا وقع فيه بنو إسرائيل في قصّة أصحاب السّبت، حيث كانت الحادثة تجربة اختباريّة سلوكيّة عقديّة، لأنّهم أُمروا بعدم الصّيد يوم السّبت فخالفوا وعصوا أمر الله فمسخهم قردة جزاء تعدّيهم على حُرمات الله بالتّحايل والتّمادي والإصرار على المعاصي.

المطلب الأول: سياق سورة الأعراف

سمّيت السّورة بهذا الاسم واشتهرت به، ووجه تسميتها بذلك ذكر لفظ الأعراف في قوله تعالى:﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى **الأَعْرَافِ** رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ ﴾ [الأعراف: 46]، وما ورد من شأن أهل الأعراف في الآخرة، وذلك ممّا لم يذكر في غيرها من السور بهذا اللّفظ، ولكنّه ذكر بلفظ (سور) في قوله:﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحديد: 13][1] والسّورة ممّا نزل بمكّة[2]

وفيها آيات نزلت بالمدينة وقد ذكرها السّيوطي ممّا استُثني من المكّي والمدني ونقل عن قتادة قوله: الأعراف مكية إلا آية: {واسألهم عن القرية}. وقال غيره من هنا إلى: {وإذ أخذ ربك من بني آدم} مدني.[3]

أمّا عن سياق السّورة فللعلماء في استجلاء أغراض السورة ومقاصدها وأبعادها آراء متعدّدة كلّ وطريقته في بيان ذلك فقد ذهب الامام الزّركشي إلى القول بأنّ قصص سورة الأعراف

---

(1) – ابن عاشور، التحرير، ج8، ص 5.

(2) – انظر: الزركشي، البرهان، ج1، 193.

(3) – السيوطي، الاتقان، ج1، ص 51.

مقصودها تسلية قلب النبيّ ﷺ والتّخفيف عنه وشرح قلبه ليطمئنّ إلى وعد الله بنصره على الكفّار لذلك ورد فيها شرحا لقصص آدم ومن بعده من الأنبياء، وبنى قوله هذا على تأمّل فاتحة السّورة وزيادة حرف الصّاد فيها لأجل قوله:﴿ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: 2] ولهذا قال بعضهم معنى المص:﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح: 1][1]

أمّا الامام البقاعي فقد يرى بأنّ مقصود السّورة امتداد لما في سورة الأنعام من إنذار من أعرض عما دعا إليه الكتاب في السّورة الماضية من التّوحيد والاجتماع على الخير والوفاء لما قام على وجوبه من الدّليل في الأنعام وتحذيره بقوارع الدّارين؛ وأدلّ ما فيها على هذا المقصد أمر الأعراف فإنّ اعتقاده يتضمن الإشراف على الجنّة والنّار والوقوف على حقيقة ما فيها وما أعدّ لأهلها الدّاعي إلى امتثال كلّ خير واجتناب كلّ شرّ والاتّعاظ بكلّ مرقق."[2]

وسيّد قطب يقول عن سياق سورة الأعراف أنّها تعالج موضوع العقيدة وتعرضه في مجال التّاريخ البشري وتعرض موكب الايمان من لدن آدم عليه السّلام إلى محمّد عليه السلام مبرزة معارك الهدى والضّلال، مع التّعقيب للإنذار والتّذكير، وبيان موقف المؤمنين والمكذّبين اتجّاهها.[3]

ويقول صاحب نفحات الرحمن بأنّ السّورة تعالج موضوعات العقيدة الاسلامية من بيان لأصولها.[4]

وجاء في كتاب التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم أنّ محور سورة الأعراف يدور حول عقيدة التّوحيد عبر رحلة البشريّة منذ وجودها الأوّل ومسيرها الطّويل إلى نهاية عودتها ورجوعها إلى الدار الآخرة.[5]

---

(1) - الزركشي، البرهان، ج1، ص 170.

(2) - البقاعي، نظم الدرر، ج7، ص 347.

(3) - سيد قطب، الظلال، ج 8، ص 442- 444.

(4) - كعباش، نفحات الرحمن، ج 5، ص 6.

(5) - مصطفى مسلم وآخرون، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج3، ص 4.

نلحظ من خلال هذه الآراء الثّلاثة الأخيرة من كلام سيّد قطب وكعباش وصاحب التّفسير الموضوعي اتّفاقهم على أنّ السّورة تعالج موضوع العقيدة وبيان أصولها عبر التّاريخ البشري لما ورد فيها من قصص الأنبياء من آدم إلى النبيّ ﷺ وبيان لجهودهم في إثبات الحقّ من العقيدة الصّحيحة وكشف مصير المؤمنين والمكذّبين.

وفي دراسة أكاديمية حول: بناء المعاني وعلاقاتها في سورة الأعراف توصّلت صاحبة الدّراسة إلى بيان غرض مهمّ للسّورة بعد دراسة الأغراض والمقاصد التي أشار إليها العلماء وأهل الاختصاص وذكرت بأنّ الثّبات على الحقّ بعد معرفته باتّباع ما أنزل الله هو مضمون السّورة الذي دلّ عليه اسمها ومكنونها الذي أسفرت به فاتحتها، ومن جهة أخرى أن مدلول الأعراف أقوى على معاني الثبات على الحق من الإنذار بعمومه، من حيث أنه أشد حسرة في قلوب أهله حين الإشراف عليه، ورؤيتهم نعيم الجنة وأهلها عياناً، ورؤيتهم جحيم النار وأهلها عياناً، ولعلهم لأنّهم عرفوا الحق، وما ثبتوا عليه باتباع ما أنزل الله، أعقبهم الوقوف على سور الأعراف، الذي كان لهم جزاء من جنس عملهم.[1]

والحقيقة أنّ السّورة تتضمن قصصا وأحكاما وقضايا وتصورات وسننا ومواعظ وآداب من الصّعوبة بمكان جمعها وضمّها في غرض واحد.

بعدما عرفنا آراء العلماء الأجلاء حول سياق السّورة فإنّ الباحث يرى بأنّ سياق سورة الأعراف متعلّق بالثّبات على الحقّ بعد معرفته باتّباع ما أنزل الله، وهذا بناء على ما ذكرته الباحثة من علاقة فاتحة السورة بالسّياق العام لها من أنّ الله تعالى أمر النبيّ ﷺ أن يَثبُت على الحقّ الذي أنزله إليه ويبلّغه ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُومِنِينَ﴾ [الأعراف: 2] ويكون متيقّنا من ذلك لأنّ المتيقّن منشرح الصدر منفسحه[2] وأهمّ

[1] – انظر: عواطف حمزة خياط، **بناء المعاني وعلاقاتها في سورة الأعراف** (رسالة دكتوراه) جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، السعودية، 1424هـ، ص 37– 43.

[2] – الزمخشري، الكشاف، ج 2، ص 86.

مظهر من مظاهر التّثبيت للنبيّ ﷺ القصص الوارد في السّورة مثلما نبّه الزّركشي من أنّ المقصد من القصص تثبيته على الحقّ ليزداد يقينا بوعد الله بنصره على الكفّار، وتذكيرا للمؤمنين، فقد خصّ الله تعالى بالذّكر أنباء أولئك الرّسل مع أقوامهم دون غيرهم "لأنّهم اغترّوا بطول الإمهال مع كثرة النعم فتوهموا أنهم على الحق، فذكرها الله تعالى تنبيها لقوم محمد عليه الصلاة والسلام عن الاحتراز من مثل تلك الأعمال."(1)

من جهة أخرى فإنّ لمدلول اسم السّورة أثر بالغ في اكتشاف مضمون السّورة فالباحثة رجّحت أن يكون معنى أصحاب الأعراف هم الذين تساوت حسناتهم مع سيّئاتهم فيقفون على الأعراف ينتظرون رحمة الله، وهو قول من بين الأقوال العشرة التّي ذُكرت في تفسير أصحاب الأعراف ومن هم(2)، وهذا لا يستقيم مع سياق الآيات ومدلول الاسم فالأعراف جمع عُرف وهو كل مكان عال مرتفع ومنه عُرف الفرس وعُرف الديك وكل مرتفع من الأرض عُرف وذلك لأنه بسبب ارتفاعه يصير أعرف مما انخفض منه.(3)وقد جاء عن الطبري نقلا عن السدي: إنما سمي الأعراف أعرافًا، لأن أصحابه يعرفون الناس(4) فأصحاب الأعراف هم الذين يحملون هذه الصّفة من المكانة في الشّرف والعلوّ ممّا يجعلهم معروفين بين النّاس بهذه الصّفة مثل الأنبياء والرّسل، وهو ما رجّحه الألوسي حيث قال بأنّ أصحاب الأعراف قوم علت درجاتهم لأن المقالات الآتية وما تتفرغ هي عليه لا تليق بغيرهم.(5) وهو الرّأي الذي رجّحه محمود شلتوت أيضا استنادا إلى سياق الآيات وقال بأنّ رجال الأعراف هم عدول الأمم والشّهداء على النّاس، وفي مقدمتهم الأنبياء والرّسل، وذلك لسببين :

---

(1) – الرازي، مفاتيح الغيب، ج14، ص 324.

(2) – ذكرها الامام القرطبي في تفسـيره، ينظر: القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت: 671هـ) **الجامع لأحكام القرآن**، تحق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة – ط:2، 1384هـ/ 1964م، ج7، ص 211.

(3) – الرازي، المرجع نفسه، ج14، ص 248.

(4) – الطبري، جامع البيان، ج12، ص 450.

(5) – الألوسي، روح المعاني، ج4، ص 363.

1. لأنّ ما نُسب إليهم من الأقوال لا يتفق مع انحطاط منزلتهم عن أهل الجنة، أنظر قولهم للمستكبرين:﴿ أَهَؤُلَآءِ الذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾[الأعراف:49].؟؟ فإنّ هذا الكلام لا يصدر إلاّ من أرباب المعرفة الذين اطمأنّوا إلى مكانتهم أمّا قوله تعالى:﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ فليس حديثا عنهم، ولكن عن أهل الجنة.

2 . جاء التّصريح بهؤلاء في كثير من الآيات مثل قوله تعالى:﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَآءِ شَهِيداً ﴾[النساء:41]، ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمُ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ ﴾[البقرة:143][1]

وبهذا يتّضح لدينا معنى الأعراف إستنادا إلى مدلول الاسم في اللّغة وكذا سياق الآيات التّي ذكر فيها أصحاب الأعراف، والله أعلم.

وبالمحصّلة نقول بأنّ: الثّبات على الحقّ بعد معرفته باتّباع ما أنزل الله، هو مضمون السّورة والسّياق العام الذي تدور عليه معاني آياته وهو لا يخرج عمّا ذكره العلماء الأجلاّء في خطوطه العريضة من بيان أصول العقيدة، وهي الرّسالة الحقّة التّي نافح عنها الرّسل من أجل إيصالها لأقوامهم والحرص على ثباتهم عليها.

المطلب الثاني: سياق المقطع

أوّلا: عرض أحداث القصّة

قصّة أصحاب السّبت من سورة الأعراف تذكر أنّ قوما من بني إسرائيل كانوا يعيشون في قرية قريبة من البحر، أُمرو بعدم صيد الحيتان والأسماك يوم السّبت وأُبيح لهم الصّيد باقي أيّام الأسبوع فابتلاهم الله في هذا التّكليف بإلهام الحيتان أن تكون قريبة منهم ظاهرة على الماء يوم السّبت، وفي غيره تبتعد وتختفي في عرض البحر، فتحايلوا على الله وتجاوزوا حدّه بإقامة حواجز

(1) – انظر: محمود شلتوت، تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى)، ص 491-493.

للحيتان لتحبسها عن الهرب ثم تصيدها يوم الأحد، فانقسم أهل القرية إزاء هذا التصرّف إلى ثلاث:

أ . الطّائفة العاصية وهم المعتدون على أمر الله.

ب . الطّائفة المستنكرة لهذا العمل المحرّم، إذ قامت بالموعظة والنّصح لهم.

ج . طائفة اتّخذت موقفا سلبيّا، وسكتت عن عدوان المعتدين وتوجّهوا باللّوم والإنكار على الصالحين الدعاة بحجّة أنّه لا فائدة من نصح ووعظ قوم هالكين معذّبين، لكن الدّائبين على الوعظ منهم أجابوا بأنّنا نعتذر إلى ربّنا بأنّنا لم نُقصّر في القيام بواجبنا وعسى أن يتوب هؤلاء القوم المعتدون ويرجعون إلى ربّهم تائبين.[1]

ثانيا: مناسبتها لسباقها ولحاقها

الحديث قبل آيات القصّة كان متوجّها إلى بيان ما كان من حال بني إسرائيل أيّام سيّدنا موسى عليه السّلام وما بعدها من كيفيّة تعاطيهم مع أوامر الله ونواهيه وجرأتهم على المعاصي ونقض المواثيق وآيات قصّة أصحاب السّبت من أشدّ مخازيهم يقول البقاعي: "ولما فرغ من هتك أستارهم فيما عملوه أيّام موسى عليه السلام وما يليها، أتبعه خزيا آخر أشدّ ممّا قبله، كان بعد ذلك بمدة لا يعلمه أحد إلا من جهتهم أو من الله."[2]

أمّا من حيث اللّحاق فالآية توجّهت بالحديث إلى بني إسرائيل كذلك على سبيل الإجمال في الوعيد على ما بدر منهم من المعاصي والآثام، فقال تعالى:﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[الأعراف: 167]، يقول

---

[1] - انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج 15، ص 390-391. كعباش، نفحات الرحمن، ج 5، ص 221-222. صلاح عبد الفتاح الخالدي، **مع قصص السابقين في القرآن**، دار القلم – دمشق – ط: 5، 1428هـ - 2007م، ص 229- 230.

[2] - البقاعي، نظم الدرر، ج 8، ص 137.

البقاعي في معنى الآية: "ولما تبيّن بما مضى من جرأتهم على المعاصي وإسراعهم فيها استحقاقهم لدوام الخزي أخبر أنّه فعل بهم ذلك على وجه موجب للقطع بأنهم مرتبكون في الضلال، مرتكبون سيئ الأعمال، ما دام عليهم ذلك النكال."[1]

فالآية إذا جاءت في مقام الحديث عن بني إسرائيل "وتشير إلى وعيد الله إياهم بأن يسلط عليهم عدوهم كلما نقضوا ميثاق الله تعالى، وقد تكرر هذا الوعيد من عهد موسى عليه السلام إلى هلم جرا.[2]

فمن خلال ذلك نُدرك شدّة ارتباط القصّة بسباقها ولحاقها في سياق الحديث عن بني إسرائيل بما بدر منهم من انتهاك حرمات الله ونقض المواثيق التي أُخذت منهم وارتكاب المعاصي والآثام الموجبة لوعيد الله لهم بتسليط عدوّ عليهم يذيقهم أشدّ العذاب، ما داموا على حالهم من العصيان.

ثالثا: تحليل أحداث القصّة

إنّ قصّة أصحاب السّبت جاءت ضمن قصص بني إسرائيل الذين فسقوا عن أمر الله ونقضوا ميثاقه فاستحقّوا العقاب على أعمالهم، وقد ركّز القرآن في السّورة على بني إسرائيل حيث كانت الآيات التي تتحدّث عن سيّدنا موسى وفرعون تبتدئ من آية 103 وتنتهي في الآية 136، بينما الآيات التي تتحدث عن بني إسرائيل كانت أكثر من ذلك حيث بدأت من آية 137 واستمرت إلى الآية 171، ممّا يدلّ على أنّ الحديث عن بني إسرائيل سيأخذ منحى آخر غير ما كان من قصّة موسى عليه السّلام مع فرعون والتّي كان فيها بيان ما لاقاه من إعراض وكفر من فرعون وملئه وعاقبة كُفرهم والكرامة التّي حلّت للمؤمنين برسالته، فقد اتّجه الكلام بعد ذلك إلى "وصف تكوين أمّة بني إسرائيل وما يحق أن يعتبر به من الأحوال العارضة

(1) – البقاعي، نظم الدرر، ج 8، ص 141.

(2) – ابن عاشور، التحرير، ج 9، ص 156.

لهم في خلال ذلك مما فيه طمأنينة نفوس المؤمنين الصالحين في صالح أعمالهم، وتحذيرهم مما يرمي بهم إلى غضب الله فيما يحقرون من المخالفات، لما في ذلك كله من التشابه في تدبير الله تعالى أمور عبيده، وسنته في تأييد رسله وأتباعهم، وإيقاظ نفوس الأمة إلى مراقبة خواطرهم ومحاسبة نفوسهم في شكر النعمة ودحض الكفران."[1]

لقد ابتدأت الآيات بأمر الرّسول ﷺ أن يتوجّه بالسّؤال إلى اليهود عن أمر لا يُعلم إلاّ عن كتاب أو وحي على طريق التّقرير والتّقريع بتقديم كفرهم وتجاوزهم حدود الله، فإذا أعلمهم به من لم يقرأ كتابهم، عُلم أنّه من جهة الوحي[2] وفي ذلك دليل على أنّ هذه الآيات مدنيّة وُضعت في هذه السّورة المكّيّة حيث لم تكن في مكّة مواجهة بين الرسول ﷺ واليهود؛ لذلك نجد تغييرا في أسلوب الخبر عن بني إسرائيل من أسلوب الحكاية عن ماضي بني إسرائيل إلى أسلوب المواجهة لذراريهم التي كانت تواجه رسول الله ﷺ في المدينة تكملة للحديث عما ورد فيها من قصة بني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السّلام، وهم في هذه المرة لا يخالفون الأمر جهرة ولكنهم يحتالون على النصوص ليفلتوا منها، ويأتيهم الابتلاء فلا يصبرون عليه[3]

فقد أُمروا بعدم مباشرة عمل الصّيد في يوم السّبت و في معنى الكلمة يُقال بأنّ السّبت مصدر من سَبتت اليهود، إذا عظمت سبتها بترك الصّيد والاشتغال بالتعبد[4]، ويجوز أن يكون بمعنى الاسم العلم لليوم الواقع بعد يوم الجمعة، وتعدية فعل يعدون إلى في السبت مؤذن بأن العدوان لأجل يوم السبت، نظرا إلى ما دلّت عليه صيغة المضارع من التّكرير المقتضي أنّ عدوانهم يتكرّر في كل سبت، وبأنهم يعدون في السبت ولم يمتثلوا أمر الله بترك العمل فيه، ولا اتعظوا بآية إلهام الحوت أن يكون آمنا فيه، وهذا التّكليف ابتلاء من الله تعالى لهم بتعريضهم

---

[1] – ابن عاشور، التحرير، ج 9، ص 79.

[2] – انظر: الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 170.

[3] – سيد قطب، الظلال، ج 9، ص 655.

[4] – الزمخشري، المرجع نفسه، ج2، ص 171.

لداعي العصيان وهو وجود المشتهى الممنوع، لاختبار طاعتهم وامتثالهم ومدى تمسّكهم بشرائع دينهم.[1]

وإزاء هذا العمل الشّنيع انتقل السّياق لبيان مواقف أهل القرية حِياله، ففرقة نهت عن ذلك واستنكرت ووعظت المعتدين وفرقة لم تنه ويئست من عودة العصاة إلى جادّة الصّواب وقالت للمنكرة لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله، فكانت عاقبة الذين قاموا بواجب الموعظة والإنكار باللّسان، -وهو أعظم تأثير في التّربية متى توفرت شروطه- وأدنى من ذلك الإنكار بالقلب كما فعل اليائسون النّجاة من العذاب وعاقبة المعتدين المسخ إلى قردة أذلاّء مهينين[2]

فعُلم من كلّ ما سبق أنّ الآية دليل صدق رسول الله فيما يُخبر به عن ربّه بإطلاعه على أمور لا تُعلم إلاّ عن طريق الوحي ممّا يكتمه اليهود "من أحوالهم وما فيه معجزة لأسلافهم، وما بقي معرة لأخلافهم، وذلك تحد لهم، ووخز على سوء تلقيهم الدعوة المحمدية بالمكر والحسد."[3] وهذا من أهمّ مقاصد إيراد هذه القصّة، وفيها أيضا وعيد للمؤمنين وتحذير من سلوك هذا المسلك في التحايل مع شرع الله وقد حذّر النبي ﷺ من ذلك في الحديث الذي رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلّوا محارم الله بأدنى الحيل.»[4]

المطلب الثّالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة

قصّة أصحاب السّبت جاءت ضمن مجموعة اختبارات لبني إسرائيل حيث كانت الحادثة تجربة اختباريّة سلوكيّة عقديّة، فقد أُمروا بعدم الصّيد يوم السّبت فخالفوا وعصوا أمر الله

---

(1) - انظر: ابن عاشور، الظلال، ج 9، ص 148- 150. (بتصرف)

(2) - كعباش، نفحات الرحمن، ج5، ص 222- 223.

(3) - ابن عاشور، المرجع نفسه، ج9، 147.

(4) - ذكره ابن كثير في تفسيره وقال عن إسناده: وهذا إسناد جيد فإن أحمد بن محمد بن مسلم هذا ذكره الخطيب في تاريخه ووثقه وباقي رجاله مشهورون ثقات ويصحح الترمذي بمثل هذا الإسناد كثيرا. ج3، ص 444.

فمسخهم قردة جزاء تعدّيهم على حُرمات الله بالتّحايل والتّمادي والإصرار على المعاصي رغم النّذر القريبة والبعيدة ونصح ووعظ الواعظين فاستحقّوا أشدّ العذاب جزاء انحرافهم عن شرع الله وما أُنزل ونقضهم العهد القاضي بالثّبات على الحقّ الذي جاء به موسى عليه السّلام وهذا ما تبيّنه أيضا آيات لحاقها التّي تضمّنت سؤالا تقريرياً في مقام التّوبيخ والتّقريع ﴿ أَلَمْ يُوخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: 169] والمعنى أنّه قد أُخذ منهم الميثاق وهم عالمون به لأنّهم درسوا ما فيه ولكّنهم كذبوا على الله وأصرّوا على الذّنب واختاروا عرض الدّنيا على خير الآخرة فأُنزلوا منزلة من لا عقول لهم[1] ثمّ يختم السّياق قصص بني إسرائيل بقصّة رفع الطّور عليهم وهي من أمّات قصصهم[2] ببيان حجّة الله عليهم وكيف أُخذ منهم الميثاق وهذه المرّة أُخذ عليهم في ظرف لا يُنسى برفع الطّور فوقهم كأنّه ظُلّة "ولقد أمروا في ظل تلك الخارقة القوية أن يأخذوا ميثاقهم بقوّة وجدّية، وأن يستمسكوا به في شدة وصرامة، وألا يتخاذلوا ولا يتهاونوا ولا يتراجعوا في ميثاقهم الوثيق، وأن يظلوا ذاكرين لما فيه، لعل قلوبهم تخشع وتتقي، وتظل موصولة بالله لا تنساه! ولكن إسرائيل هي إسرائيل! نقضت الميثاق، ونسيت الله، ولجّت في المعصية، حتّى استحقّت غضب الله ولعنته."[3]

وهكذا الشّخصيّة اليهوديّة ذات تاريخ طويل من الانحرافات رُغم نعم الله ومعجزاته الكثيرة عليهم؛ وهذا التّفصيل الطّويل في قصّة موسى عليه السّلام مع فرعون أو بني إسرائيل لما فيها من نماذج كثيرة لعدم الثّبات على الحقّ لمن كفر ولمن آمن، فقد لاقى منهم عنتا شديدا عند دعوتهم للثّبات على الحقّ، وما قصّة أصحاب السّبت إلاّ نموذج لبيان وتجلية هذه المعاني.

---

[1] – ابن عاشور، التحرير، ج9، ص 163.

[2] – ابن عاشور، المرجع نفسه، ج9، ص 164.

[3] – سيد قطب، الظلال، ج9، ص 665.

المطلب الرّابع: تحكيم السّياق في بعض قضايا القصّة

عند تفسير آيات قصّة أصحاب السّبت تباينت آراء المفسّرين في بيان بعض المعاني المتعلّقة بها من ذلك:

- الاختلاف في اسم القرية في قوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ [الأعراف:163] فقالوا هي: أيلة أو مدين أو طبرية أو مقنا[1]...والاحتكام في ذلك إلى دلالة الخبر الذي يوجب العلم كما قال الطّبري "ولا خبر عن رسول الله ﷺ يقطع العذر بأنّ ذلك من أيٍّ، ولا يوصل إلى علم ما قد كان فمضى ممّا لم نعاينه، إلا بخبر يوجب العلم."[2] ولم يذكر القرآن اسم هذه القرية لأنّ ذكرها بالاسم لا فائدة منه في العبرة من القصّة.

الاختلاف في مصير الفرقة السّاكتة التّي ذُكرت في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: 164] هل شملهم عذاب الله بالمسخ أو كانوا من النّاجين، ومرجع الاختلاف أنّ الله تعالى سكت عنهم، وبالرّجوع إلى النصّ في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: 165-166] حيث يذكر الله تعالى فريقين حيث النّجاة كانت من نصيب الذين نهوا عن السّوء والمعصية وشمل العذاب الذين ظلموا باعتدائهم في السّبت، فاستحلوا فيه ما حرَّم الله من صيد السمك وأكله، فأحلَّ بهم بأسَه بما كانوا يخالفون أمر الله، فيخرجون من طاعته إلى معصيته، وذلك هو الفسق[3] فهذه المخالفة والمعصيّة من صيد السّمك وأكله لم

[1] - انظر: الألوسي، روح المعاني، ج5، ص 84.

[2] - الطبري، جامع البيان، ج13، ص 180 – 182.

[3] - الطّبري، المرجع نفسه، ج13، ص 199.

تصدر من الفرقة السّاكتة، وإنّما صدر منهم استنكار قلبي وهو أضعف الإيمان في مجال الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، لذلك قال سيّد قطب في سبب سكوت النصّ عنها ربّما تهوينا لشـــأنها – وإن كانت لم تُؤخذ بالعذاب – إذ أنّها قعدت عن الإنكار الإيجابي ووقفت عند حدود الإنكار السّـلبي فاسـتحقّت الإهمال ولم تسـتحقّ العذاب[1] وزيادة في البيان نذكر رأي ابن عاشـور حيث اسـتدلّ على رأيه بقرينتين في الآية فقال: " وقد أجملت الآية ما كان من الأمّة القـائلة إيجازا في الكلام، اعتمـادا على القرينـة لأنّ قولهم: الله مهلكهم يـدل على أنّهم كـانوا منكرين على الموعوظين، وأنّهم مـا علموا أنّ الله مهلكهم إلاّ بعـد أن مـارســـوا أمرهم، وسبروا غورهم، ورأوا أنّهم لا تُغني معهم العظات، ولا يكون ذلك إلا بعد التقدم لهم بالموعظة، وبقرينة قوله بعد ذلك أنجينا الذين ينهون عن الســـوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس إذ جعل الناس فريقين، فعلمنا أن القائلين من الفريق الناجي، لأنهم ليســـوا بظالمين، وعلمنا أنهم ينهون عن السوء."[2] وبذلك يتّضح لنا بأنّ مصير تلك الفرقة النّجاة، وأنّ النصّ سكت عنها تهوينا لشأنها، وأنّ اتّخاذهم موقف الإنكار القلبي كان موقفا سلبيا.

---

(1) – سيد قطب، الظلال، ج 9، ص 659.

(2) – ابن عاشور، التحرير، ج9، ص 151.

المبحث الخامس: عاقبة من أنعم الله عليه بالآيات ولم يثبت على الحقّ

يُحاول الباحث في إطار هذا المبحث إبراز دور السياق في بيان عاقبة من أنعم الله عليه ورفع شأنه وآتاه من علمه، فلم يثبت على الحقّ وتنكّر لذلك كلّه واتّبع هواه وهوى الشّيطان لأعراض الدّنيا الزّائلة، من قصّة الذي انسلخ من آيات الله، فأصبح من الخاسرين بنقض عهد الله ومعصيته واتّباع الشّيطان، وخطر هذا الفعل على المجتمع، فكان مثلا لكلّ عالم آتاه الله العلم فلم يثبت على الحقّ واتّبع هواه ولم ينتفع بعلمه وحاذ عن صراط الله المستقيم فكان من الضّالين المضلين.

المطلب الأوّل: سياق المقطع

أوّلا: عرض أحداث القصّة

هذه القصّة من سورة الأعراف ابتدأت بطلب للنبيّ ﷺ بأن يقصّ خبر أحد الأشخاص حيث آتاه الله حُجَجه وأدلته،وأعطاه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع، ولكنّه انسلخ من هذا كله انسلاخا، واتّبع الشّيطان فكان من الظّالمين، ولو أنّه انتفع بتلك الآيات لوفّقه الله وعصمه من كيد الشّيطان وفتنته، لكنّه سكن إلى الحياة الدّنيا في الأرض ومال إليها وآثر لذّتها وشهواتها على الآخرة، واتّبع هواه،فمثله كمثل الكلب في عادته الأصليّة من اللّهث سواء حملت عليه وطردته أم تركته ولم تطرده فإنّه لا يدع اللّهث في كلتا الحالتين، وهي شبيهة بحاله لتركه العمل بآيات الله التّي آتاها إيّاه سواء وُعظ أو لم يوعظ لا يَترك ما هو عليه من خلافه أمر ربّه.[1]

---

[1] – انظر: الطبري، جامع البيان، ج 13، ص 259– 273، سيد قطب، الظلال، ج9، ص 676.

ثانيا: مناسبتها لسباقها ولحاقها

لما كانت العقيدة غرضا من أغراض السّورة بيّن المولى في الآية السّابقة من قوله تعالى:﴿ وَإِذَ اَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمُ... ﴾كيف أخذ الميثاق العامّ على بني ءادم قاطبة بأنّه تعالى هو ربّهم وخالقهم ثمّ "أعقب ما يفيد أنّ التّوحيد جُعل في الفطرة بذكر حالة اهتداء بعض الناس إلى نبذ الشّرك في مبدأ أمره ثم تعرض وساوس الشيطان له بتحسين الشرك؛ ومناسبتها للّتي قبلها إشارة العبرة من حال أحد الذين أخذ الله عليهم العهد بالتوحيد والامتثال لأمر الله، وأمدّه الله بعلم يعينه على الوفاء بما عاهد الله عليه في الفطرة، ثم لم ينفعه ذلك كله حين لم يقدّر الله له الهدى المستمر.[1]

فالمثل القصصي الذي أعقب آية أخذ الميثاق من بني آدم كان لتقريب مفهومه إلى الأذهان بتجسيده في قالب حيّ للتفكّر وأخذ العبرة.

أمّا مناسبتها للحاقها فإنّ الآيات التّي أعقبت القصّة كانت تذييلا لها ووصف لحال من كان مثله مثل الذّي آتاه الله الآيات ولم ينتفع بها ﴿سَآءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الذِينَ كَذَّبُوا بِئَايَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ مَنْ يَّهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُّضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 177-178] ويرى البقاعي بأنّ الآية من فذلكة ما مضى، وما أحسن ختمها بالخسران في وعظ من ترك الآخرة بإقباله على أرباح الدنيا وأعراضها الفانية، ثم تعقيبها بذرء جهنم الذين لا أخسر منهم، ثمّ ذكر بأنّ السّياق القصصي بيّن بأنّ أكثر الخلق هالك[2] لذلك ذكر الله تعالى مصيرهم في الآيات اللّاحقة بأنّهم إلى النّار بما أخلفوا الله ما وعدوه ولما أوجد فيهم من مدارك واستعدادات من شأنها الإذعان والتّسليم لوحدانيّته واتّباع الرّسل وهديهم، ولكّنهم أخلدوا إلى الأرض، واتّبعوا أهوائهم فكانوا أقرب إلى أصل البهيمة وغرائزها منها إلى الإنسانية ومعانيها، بل هم أضلّ من الأنعام.

---

(1) – ابن عاشور، التحرير، ج9، ص 173.

(2) – البقاعي، نظم الدرر، ج 9، ص 126.

ثالثا: تحليل أحداث القصّة

بعد أن بيّن الله تعالى ما يُفيد بأنّ التّوحيد جُعل في الفطرة ضرب مثلا للذين يكذّبون آياته الظّاهرة والباطنة برجل ولم يذكر النصّ اسمه ولا في أيّ زمن ومكان ومجتمع وقعت هذه الحادثة، لذلك نسير مع القرآن في إبهامه لاسم هذه الشّخصيّة ونتأمّل الوصف الذّي وصفه الله به لنأخذ منه العبرة، فقد يسّر الله عليه العلم بآياته، ولكّنه انسلخ منها "والانسلاخ حقيقته خروج جسد الحيوان من جلده حينما يسلخ عنه جلده، واستعير في الآية للانفصال المعنوي، وهو ترك التلبس بالشيء أو عدم العمل به، ومعنى الانسلاخ عن الآيات الإقلاع عن العمل بما تقتضيه"[1] فلم يرع الأمانة ولم يؤدّ حقّ شكر النّعمة، فكان ذلك سببا في دخوله في حزب الشّيطان فأصبح من الغاوين، وفي منزلة دنيا حيث استبدل الذّي هو أدنى بالذي هو خير، واتّبع هواه وركن إلى متاع الحياة الدّنيا، ولوشاء الله لرفعه وهداه بما آتاه من العلم والمعرفة إلى طريق الهدى المستمرّ ولكن واقع الرّجل الممثل به جاء مناقضا لتلك المشيئة، وفق الفعل الإراديّ الذي اختاره الرّجل، والذي تدلّ عليه الأفعال الثّلاثة: {فَانسَلَخَ مِنْهَا}، {أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ}، {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ}[2]، لذلك لم يشأ الله أن يهديه ويرفعه لما آثر متاع الحياة الدّنيا على الآخرة.

فإذا عرفنا هذه المعاني من خلود الشّخصيّة إلى الأرض واتّباع الهوى نتساءل عن صلتها بالمثل في قوله تعالى:﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ اَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾؟ إذا تأمّلنا في المثل نجد أنّ هذه الشّخصية لا تنتفع بما يُسدى إليها من نصح وإرشاد سواء وعظتها أو لم تعظها كحال الكلب إن تطارده وتهاجمه، أو تتركه في دعة يلهث في كلتيهما "فهذا تشبيه تمثيل مركب منتزعة فيه الحالة المشبهة والحالة المشبه بها من متعدد، ولما ذكر تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث في شق الحالة المشبه بها، تعين أن يكون لها مقابل في الحالة المشبهة، وتتقابل أجزاء هذا التمثيل بأن يشبّه الضال بالكلب، ويشبّه شقاؤه واضطراب أمره في مدة البحث عن الدّين

[1] - ابن عاشور، التحرير، ج9، ص 173.

[2] - كعباش، نفحات الرحمن، ج5، ص 237.

بلهث الكلب في حالة تركه في دعة، تشبيه المعقول بالمحسوس، ويشبّه شقاؤه في إعراضه عن الدّين الحقّ عند مجيئه بلهث الكلب في حالة طرده وضربه تشبيه المعقول بالمحسوس."[1] فهذه هي الحالة التّي يمكن أن نأخذها من المثل حيث طبع الله على قلبه واتّبع هواه فأرداه إلى أسفل سافلين، ليبيّن السّياق بعد ذلك المقصودين بهذا المثل ﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الذِينَ كَذَّبُوا بِئَايَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ "وهم الذين كانوا ضالين قبل أن يأتيهم النبيّ عليه السّلام بالهدى والرّسالة ثم جاءهم بذلك فبقوا على ضلالتهم ولم ينتفعوا بذلك، فمثلهم كمثل الكلب"[2] وهذا المثل القصصي وغيره ممّا جاء في السّورة من أخبار الأمم أمر للنبيّ عليه السّلام أن يقصّه على قومه: "اقصص يا محمد على قومك من قريش، ومن قبلك من يهود بني إسرائيل، ليتفكروا في ذلك، فيعتبروا وينيبوا إلى طاعتنا، لئلا يحلّ بهم مثل الذي حل بمن قبلهم من النقم والمثلات، ويتدبره اليهود من بني إسرائيل، فيعلموا حقيقة أمرك وصحّة نبوّتك."[3]

الملاحظ من خلال ما أورده المفسّرون من معان جليلة في هذه القصّة اختلافهم في اسم الشّخصية التي ضُربت مثلا بالرّغم من أنّ القرآن أَبهم اسمها إلّا أنّ البعض خاضوا فيها ورجّحوا أسماء بناء على ما لديهم من حجج فذهب ابن كثير إلى أنّ الشخصية تُدعى: بلعم بن باعوراء وتكون الآيات موجّهة لبني إسرائيل.[4] والألوسي يقول: أنّ كونه إسرائيليا أنسب بالمقام كما لا يخفى، والأشهر أنّه بلعام أو بلعم وكان قد أوتي علما ببعض كتب الله تعالى، ودون ذلك في الشّهرة أنّه أميّة وكان قد قرأ بعض الكتب"[5] أمّا ابن عاشور فرجّح اسم أمية ابن أبي الصلت واعتبر بأنّ هذه الآيات موجّهة لمشركي مكّة ليتّعظوا بها وذلك بالنّظر إلى قرائن استدلّ بها [6]

---

(1) – ابن عاشور، المرجع نفسه، ج9، ص 178.

(2) – ابن عطية، المحرر الوجيز، ج2، ص 478.

(3) – الطبري، جامع البيان، ج13، ص 274.

(4) – انظر: ابن كثير، ج3، ص 460.

(5) – الألوسي، روح المعاني، ج5، ص 104.

(6) – ابن عاشور، التحرير، ج9، ص 173 – 174.

وصاحب الظّلال انتبه إلى المغزى من المثل القصصي وقال بأنّ الأرجح أنّه نموذج غير مقيد بزمان ولا مكان، إنما هو تصوير لحالة مكرورة في النّفوس والتّاريخ، كلما أوتي بعض الناس نصيباً من العلم كان خليقاً أن يقوده إلى الحق والهدى، فإذا هو ينسلخ ممّا أوتي من العلم، فلا ينتفع به شيئاً، ويسير في طريق الضلالة كمن لم يؤتوا من العلم شيئاً، بل يصير أنكد وأضلّ وأشقى بهذا العلم الذي لم تخالطه بشاشة الإيمان، الذي يحوّل هذا العلم إلى مشكاة هادية في ظلام الطريق![1] فهذه بعض الآراء في اسم الشّخصية أو سبب نزول الآية ولنا عودة لهذه القضيّة في مبحث تحكيم السّياق.

المطلب الثاني: علاقة سياق القصة بسياق السورة

عند تعرّضنا لدراسة سياق سورة الأعراف عرفنا بأنّ الثّبات على الحقّ بعد معرفته باتّباع ما أنزل الله، هو مضمون السّورة والسّياق العام الذي تدور عليه معاني آياته، وفي قصّة الذّي انسلخ من آيات الله ما يُجلّي لنا هذا المفهوم ويُعطي لنا بعدا آخر لسياق السّورة فالقصّة تتناول بالحديث شخصيّة صدر منها هذا الفعل الشّنيع من مخالفة أمر الله بعد أن عُرضت عليه الآيات والدّلائل لكنّه اتّخذها وراءه ظِهريّا واتّبع هواه فكان من الضّالين، فهي تلقي الضّوء على موضوع الثّبات على الحقّ على مستوى الأفراد بخلاف قصّة أصحاب السّبت على المستوى الجَمعي، من جهة أخرى بيان خطر هذا الأمر إذا صدر ممّن رفع الله شأنه و آتاه من علمه ثمّ تنكّر لذلك كلّه واتّبع هواه وهوى الشّيطان لأعراض الدّنيا الزّائلة لأنّه بمخالفة أمر الله سَيَهلِك ويُهْلك الكثير ممّن ظنّوا فيه العلم الصّلاح والتّقوى والثبّات على الحقّ، يقول سيد قطب في أمثال هؤلاء: "وكم من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها، ويعلن غيرها، ويستخدم علمه في التّحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل! يحاول أن يثبت بها

[1] - سيد قطب، الظلال، ج9، ص 668.

هذا السلطان المعتدي على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعاً."[1] فهو مثل لكلّ عالم آتاه الله العلم فلم يثبت على الحقّ واتّبع هواه ولم ينتفع بعلمه وحاد عن صراط الله المستقيم فكان من الضّالين المضلين فالسّياق يبيّن لنا هذا المفهوم ببيان أنّه فضّله الله بعلم الآيات التّي أوتيها وخبرها والتّي من شأنها أن يرفعه الله بها ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ﴾ إلى منازل الأبرار من العلماء إلاّ أنّه اختار سبيل الهوى والضّلال فأتبعه الشّيطان وأمكن منه فأصبح من الغاوين، وتمثيل حاله بحال الكلب يبيّن مدى تمكّن الهوى وحبّ الدّنيا ومتاعها عليه ولهثه ورائها حتّى طبع الله على قلبه فاستحقّ الضّلال في الحالين حال معرفته لحقائق الله وحال انسلاخه منها وعدم الثّبات على الحقّ الذّي خَبَره فهذه "الآيات جاءت في سياق الاستدلال على أنّ أكثر الخلق هالك بالفسق ونقض العهد"[2]

فمن خلال هذه المعاني تتّضح العلاقة الوطيدة بين سياق السّورة الذي يدور حول الثّبات على الحقّ باتّباع ما أنزل الله وسياق القصّة الذّي يُبرز نموذج شخصيّة آثرت الدّنيا ومتاعها وهوى النّفس ووسوسة الشّيطان عن اتّباع الحقّ بعد أن أنعم الله عليه بمعرفتها، فتكون القصّة بذلك قد أدّت دورها في هذه السّورة الكريمة فكانت أداة لتوصيل هذه المفاهيم لنا.

المطلب الثالث: تحكيم السياق في بعض قضايا القصّة

من القضايا التّي كثُر الخلاف حولها في القصّة، اسم الشّخصيّة فقيل: هو رجل من بني إسرائيل، وقيل هو بلعم، وقيل هو بلعام، وقيل هو بلعم بن باعوراء وقيل هو أمية بن أبي الصلت[3]...وبالرّجوع إلى سياق الآيات نجد أنّ الآيات السابقة لها كان الحديث فيها عن بني إسرائيل ببيان النعم التّي أُرسلت إليهم وكيف كفروا بها فاستحقّوا اللّعنة والعذاب إلى قوله

---

[1] – سيد قطب، الظلال، ج9، ص 678.

[2] – البقاعي، نظم الدرر، ج 9، ص 126.

[3] – انظر: الطبري، جامع البيان، ج13، ص 252 – 257.

تعالى:﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظلّة ...﴾ وما تحمله من معاني التّذكير بالميثاق الذّي أُخذ منهم، ثمّ الانتقال من الميثاق الخاصّ إلى الميثاق العام الذي أُخذ من بني آدم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَ اَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمُ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ يقول سيد قطب عن العلاقة بين الآيتين: "كانت نهاية الدّرس السابقة في قصّة بني إسرائيل هي مشهد الميثاق الذي أخذه الله عليهم في ظلّ الجبل المرفوع، فهذا الدّرس الجديد يتابعه فيبدأ بقضيّة الميثاق الأكبر الذي أخذه الله على فطرة البشر"[1]

ثمّ انتقل السّياق لبيان أنموذج آخر من نقض العهود والانسلاخ من آيات الله بعد معرفتها بسوق قصّة الذّي انسلخ من آيات الله فهو امتداد للنّماذج السّابقة من الأمم السّالفة ويمكن أن يكون من بني إسرائيل لأنّ السّياق مرتبط بالحديث عن سلوكهم فيما يرتبط بنقض العهود وجحد النّعم والكفر بها باتّباع الهوى وإيثار الدّنيا وشهواتها عن الثّبات على الحقّ الذّي أُمروا باتّباعه، وليس بالضّرورة أن نخصّه بالاسم لأنّه لا دليل من القرآن ولا حديث عن رسول الله نطمئنّ إليه في ذلك والله أعلم، والصّواب كما قال الطّبري: "إنّ الله تعالى ذكره أمر نبيه ﷺ أن يتلو على قومه خبر رجل كان الله آتاه حججه وأدلته، وهي "الآيات"... وجائز أن يكون الذي كان الله آتاه ذلك "بلعم"، وجائز أن يكون أمية؛ وكذلك "الآيات" إن كانت بمعنى الحجة التي هي بعض كتب الله التي أنزلها على بعض أنبيائه فتعلمها الذي ذكره الله في هذه الآية، وعناه بها، فجائز أن يكون الذي كان أوتيها "بلعم"، وجائز أن يكون "أمية"، ولا خبرَ بأيّ ذلك المراد، وأيّ الرجلين المعنيّ، يوجب الحجة، ولا في العقل دلالة على أيِّ ذلك المعنيُّ به من أيٍّ. فالصّواب أن يقال فيه ما قال الله، ونُقِرّ بظاهر التنزيل على ما جاء به الوحي من الله.[2]

---

[1] - سيد قطب، الظلال، ج9، ص 669.

[2] - الطبري، جامع البيان، ج13، ص 259 – 260.

ويؤيّد ما ذكرناه من قبل ما رجّحه صاحب المحرّر في أسباب النّزول مستندا في ذلك إلى سياق الآية حيث خلُص إلى أنّ الآية لم تنزل بسبب خاص لعدم الدّليل على ذلك، وإنّما تتحدث عن رجل من الأمم السابقة والله أعلم.[1]

إذا فالمهمّ ليس هو تحديد هويّة تلك الشّخصيّة ولا معرفة كنه تلك الآيات ولكن القرآن وظّفها كأداة للوصول إلى ما يهدفه من أفكار وعبر فالشّخصيّة ليست مقصودة بذاتها ولكن ما تحمله من دلالات ترتبط بها يركّز عليها القرآن ليوصلها للمتلقّي.

---

(1) – خالد بن سليمان المزيني، **المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة** دراسة الأسباب رواية ودراية، دار ابن الجوزي، الدمام – السعودية – ط:1، 1427هـ - 2006م، ج1، ص245- 546.

المبحث السادس: ابتلاء الله للمؤمن في دينه وسبل الثّبات على الإيمان

يُحاول الباحث من خلال هذا المبحث بيان أثر السّياق في إبراز معاني ابتلاء الله تعالى للمؤمن في دينه وعقيدته وأنّه مُعرّض لأن يُفتتن فيهما من خلال قصّة فتية الكهف الذين رأوا من قومهم ضلالا في العقيدة وانحرافا عن مبدأ التّوحيد فأعرضوا عنهم وعقدوا العزم وتوكّلوا على الله، واتّخذوا أسباب حفظ الإيمان حتّى يسّر لهم الله وفتح عليهم من أبواب رحمته وخصّهم برعايته وكرمه.

المطلب الأول: سياق سورة الكهف

سورة الكهف مكّية بالاتّفاق في قول جميع المفسرين كما حكاه ابن عطيّة حيث قال: "هذه السورة مكية في قول جميع المفسرين، وروي عن فرقة أن أوّل السورة نزل بالمدينة إلى قوله: ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف: 8] والأوّل أصح."[1]

وذُكر في سبب نزول السّورة ما رواه الطّبري عن ابن عبّاس: أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا الرّسول عن ثلاث، فإن أخبرهم بها فهو نبي، وإلاّ فهو متقوّل كاذب، قالوا: سلوه عن فتية ذهبوا في الدّهر الأول ما كان أمرهم؟ وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها؟ وسلوه عن الرّوح ما هي؟[2] وقد نزلت السّورة جوابا على مسائلهم، ومع أنّ الرّواية تكلّم بعض الدّارسين في سندها لوجود راو مجهول حيث جاء في السّند (عن شيخ من أهل مصر) إلاّ أنّ "واقع السورة وما ورد فيها من صيغ الاستفسار كقوله تعالى:﴿ اَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنَ ـ ايَاتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف:09] وقوله تعالى:﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف:83] وقوله تعالى:﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ اِنِّي

---

[1]- ابن عطية، المحرر الوجيز، ج3، ص494.

[2]- انظر: الطبري، ج17، ص 592-593.

فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَنْ يَّشَآءَ اللَّهُ ﴾[الكهف:23-24]، كل ذلك يؤكد حادثة الاستفسار من رسول الله ﷺ عن الفتية وعن الرجل الطواف، وعن نسيان ذكر المشيئة."[1]

وسمّيت بسورة الكهف وهو الاسم الذّي سمّاها به النبيّ ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم وأبو داوود عن أبي الدرداء عن النبيّ ﷺ قال: « من حفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف عُصم من الدجّال »[2] وكلمة الكهف تحمل معاني المأوى والطّمأنينة والملاذ الآمن، يقول ابن منظور: الكهف كالمغارة في الجبل إلاّ أنّه أوسع منها، فإذا صغر فهو غار ... ويُقال: فلان كهف فلان أي ملجأ... ويُقال فلان كهف أهل الرِّيَبِ إذا كانُوا يَلُوذون به فيكونُ وَزَراً ومَلْجأً لَهم"[3] فدلالة الكهف مرتبطة بمكان يجد فيه الانسان الملاذ الآمن لما قد يكون سببا لخوفه واضطرابه في بعض شؤونه ومدلول اسم السّورة من القرائن المعينة على تحديد سياق السّورة، وسنتعرّف على ذلك بعد أن نستعرض أقوال بعض المفسّرين والباحثين حول سياق السّورة والبداية بالبقاعي الذّي يقول بأنّ مقصود السورة امتداد لمقصد من مقاصد سورة الاسراء المتمثّل في نفي الشريك عن الله وبيان وحدانيّته وعلمه وقدرته على كلّ شيء، واعتبر بأنّ قصة أصحاب الكهف كانت الأقرب إلى إيصال هذا المعنى لأن خبرهم أخفى ما فيها من القصص، مع أن سبب فراقهم لقومهم الشرك، وكان أمرهم موجباً بعد طول رُقادهم للوحدانية، وإبطال الشرك."[4]

أمّا سيد قطب فيرى بأنّ سياق السّورة مرتبط بتصحيح العقيدة وذلك لما ورد في السّورة من إعلان للوحدانية وإنكار للشرك، وإثبات للوحي، وتمييز مطلق بين الذات الإلهية وذوات الحوادث، وتصحيح منهج النظر والفكر يتجلى في استنكار دعاوى المشركين الذين يقولون ما ليس لهم به علم، والذين لا يأتون على ما يقولون ببرهان، وفي توجيه الإنسان إلى أن يحكم بما

(1) - مصطفى مسلم، **مباحث في التفسير الموضوعي**، ص173.

(2) – رواه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي 555/1، حديث رقم 257 – (809)، ورواه أبو داود في السنن كتاب الملاحم باب خروج الدجال 376/6 حديث رقم 4323.

(3) – ابن منظور، لسان العرب، ج9، ص 310-311.(بتصرف).

(4) – البقاعي، مصاعد النظر، مرجع سابق، ج2، ص243-244.

يعلم ولا يتعداه، وما لا علم له به فليدع أمره إلى الله، وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة بإرجاعها إلى الإيمان والعمل الصّالح واستصغار ما عداها من القيم الأرضية التّي تُبهر الأنظار[1]

والأستاذ مصطفى مسلم يرى بأنّ سورة الكهف بيّنت القيم التيّ يمكن للمسلم أن يتّخذها كميزان للتفريق بين الحق والباطل وبين الصدق والكذب لذلك اختار عنوان "القيم في ضوء سورة الكهف" لدراسة السورة التّي ألقت أضواء كاشفة على كل أسباب الفتن، وأعطت المؤمن الميزان الحق لمعرفة الحقائق من الأباطيل، والصّدق من الكذب والصّحيح من الزيف.[2]

وجاء في كتاب التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم أن المقصد العام للسورة يدور حول "الهدف الأساسي الذي نزل من أجله القرآن: إنّه العصمة من أمواج الفتن المتلاطمة وحشودها المتلاحمة، فتن متنوعة متباينة متزاحمة تجعل الحليم حيران: فتنة السّلطان، وفتنة الأهل والعشيرة، وفتنة المال، وفتنة الولد، والاغترار بالدّنيا الفانية، وفتنة إبليس اللّعين، وفتنة العلم، وفتنة يأجوج ومأجوج، وفتنة الأهواء...وتخطّ لنا طريق العصمة باتّباع المنهج الربّاني والاستعانة بالله تعالى واللّجوء إليه وتصحيح المفاهيم وتقويم الموازين وتأصيل القيم ... والاعتبار بقصص السّابقين"[3]

والدكتور فضل عباس يقول بأن سورة الكهف جاءت لتهدي المسلمين في فجاج هذه الحياة إلى سبل الخير، مستندا في ذلك على الأحاديث الواردة في فضلها والتّي تبيّن بأنّ من قرأها من أوّلها إلى آخرها عُصم من الدجّال، واعتبر بأنّ قصص السورة جاءت لتبيّن العناصر التي يجب أن تتوافر عند المسلمين ليكونوا أقوياء، والمتمثّلة في: العقيدة والعلم والجهاد.[4]

بعد عرض هذه الآراء المتعلّقة بسياق السّورة يتبيّن للباحث بأنّها متكاملة، وتدور حول بيان سبل الهداية التّي تجعل الانسان يقف على أسباب الفتن المحيطة به موقف المتبصّر الخبير بأمر دينه ودنياه، مستعينا في ذلك برصيده الإيماني من موالاة لله تعالى واتّباع نهجه للنّجاة من الفتن

---

(1) – سيد قطب، في ظلال القرآن، ج5، ص368-369.

(2) – مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، ص178.

(3) – مصطفى مسلم وآخرون، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج4، ص287-288.

(4) – فضل حسن عباس، قصص القرآن الكريم، ص739-740.

المحيطة به، لذلك فإنّ ما ورد في كتاب التّفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم من اعتبار العصمة من الفتن عنوان السّياق العام للسورة، هو الرّاجح في نظر الباحث لأنّه الأقرب إلى الجوّ العام للسورة، وذلك لورود الأحاديث التّي تبيّن بأنّ من قرأها عُصم من فتنة الدجّال، والتّرغيب في تلاوتها ليلة الجمعة[1] فمن شأن ذلك تذكير المؤمن بالفتن المحدقة به حتّى يكون بصيرا بشؤون دنياه وآخرته واقتصرت على فتن الدين والعلم والمال والهوى والسّلطان وغيرها وسنتعرّف على بعضها من خلال هذه الدّراسة لقصص السّورة، ومن جهة أخرى فإنّ في مدلول اسم السّورة وما يحمله من معاني الايواء والطّمأنينة والملاذ الآمن ما يجعله عاصما من الفتن، لذلك يقول الشّيخ الشّعراوي عن سورة الكهف أنّها سورة الكهوف المعنوية[2]، ويعتبر أنّ كل قصّة فيها هي كهف من الكهوف فيقول: الكهف الأوّل: كهف أهل الكهف، الكهف الثاني: كهف صاحب الجنّتين...وهكذا مع كلّ قصص السّورة، أمّا الجانب الآخر والذّي تناولته السّورة هو بيان سبل النّجاة من هذه الفتن " وذلك من خلال دعوة النّاس للتمسّك بعقيدتهم كما في قصّة أصحاب الكهف وعدم الافتنان بمتاع الدنيا الزائل كما في قصّة صاحب الجنتين وعدم الاغترار بأقوال الضالين كما في قصة آدم عليه السلام وإبليس واتخاذ العلم طوقا للنّجاة وطريقا للهداية كما في قصّة موسى عليه السلام والخضر وتسخير القوّة في سبيل العمل الصالح والخير وعدم اتّخاذ الملك ذريعة للبطش كما في قصّة ذي القرنين هذه كلها معالم وأطواق للنّجاة والهداية وهي كما نرى مرتبطة أشدّ الارتباط بعنوان السورة ودلالته الرمزية.[3]

---

(1) – حديث أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين » رواه البيهقي في السنن الكبرى كتاب الجمعة باب : ما يؤمر به في ليلة الجمعة ويومها من كثرة الصلاة على رسول الله وقراءة سورة الكهف 3 / 249، رقم (6209) والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الكهف، 2 / 399، رقم (3392) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(2) – الشعراوي، محمد متولي، **سورة الكهف**، دار أخبار اليوم، قطاع الثقافة، القاهرة- مصر- ط: د ت ط، ص4.

(3) – زكية محمد خالد أحمد، **التشابك القصصي في سورة الكهف**، كلية الدراسات الاسلامية والعربية دبي – الامارات- ط: 1429هـ-2008م، ص53.

وبذلك نكون قد خلصنا إلى أنّ السّياق العام للسّورة يتمثّل في العصمة من الفتن عموما وبيان طرق النّجاة منها استناد إلى ما جاء عن النبيّ ﷺ في فضل تلاوة السّورة من أنّها تعصم قارئها من الفتن المحيطة به ومن فتنة الدجّال، وإلى مدلول اسم السّورة وما فيه من معاني الإيواء والطّمأنينة.

المطلب الثّاني: سياق المقطع

أوّلا: عرض أحداث القصّة

ذكر الله تعالى في سورة الكهف من الآية 09 إلى الآية 26 خبر فتية في ريعان شبابهم، آمنوا بين ظهراني قوم مشركين فهداهم الله إلى سواء السّبيل وربط على قلوبهم حتّى يثبتوا على الدّين الحقّ فاعتزلوا قومهم وأووا إلى كهف استقرّوا فيه وطلبوا من الله أن يُحيطهم برحمته ويهدهم سبيل الرّشاد، فأكرمهم الله بأن ألقى عليهم نوما بقوا فيه سنين كثيرة، ثمّ بعثهم من رقدتهم، وجعلهم آية من آياته العجيبة في البعث والنّشور ثمّ توفّاهم بعد ذلك وجعل أهل زمانهم يختلفون في إحصاء زمن لبثهم في الكهف وفي معرفة عدد الفتية، فبيّن الله تعالى أنّهم لبثوا ثلاثمئة سنة وازدادوا تسعا، وهو فصل الخطاب في ذلك من أنّ عددهم لا يعلمه إلاّ هو سبحانه.

ثانيا: مناسبتها لسباقها ولحاقها

تتّصل آيات قصّة أصحاب الكهف بسباقها اتّصالا وثيقا من حيث تسلسل المعاني فقد ورد قبها قوله تعالى مخاطبا النبيّ ﷺ: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُومِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝ اِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ۝ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف: 6-8] على أنّ النبيّ عليه السّلام كان يخوض بمكّة معركة العقيدة مع كفّار قريش ومسألة البعث بعد الموت من المسائل التّي لم يسلّم بها كفّار قريش ورفضوها رفضا قاطعا "فكان ذكر أهل الكهف وبعثهم بعد خمودهم سنين طويلة مثالا لإمكان

البعث"[1] وبيان لآيات الله العجيبة في خلقه فما صدّهم عن ذلك سوى حبّهم للحياة الدّنيا وإيثار زينتها وملذّاتها على التّسليم بحقائق الإيمان حتّى افتُتنوا بها فأنكروا ما يقطع عنهم انغماسهم فيها وما علموا أنّها درا ابتلاء، وأنّها إلى النّهاية والزّوال، فبيّن الله لهم هذه الحقيقة في مشهد حسّي قريب متمثّل في فتية أصحاب الكهف "وهو نموذج لإيثار الإيمان على باطل الحياة وزخرفها، والالتجاء إلى رحمة الله في الكهف، هرباً بالعقيدة أن تمسّ."[2]

أمّا من حيث اللّحاق فالآيات تعقيب على أحداث القصّة بإعلان أنّ الوحدانية الظّاهرة الأثر في سير القصّة وأحداثها﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 26] وبتوجيه الرسول ﷺ إلى تلاوة ما أوحاه ربّه إليه، وفيه فصل الخطاب وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل، والاتجاه إلى الله وحده، فليس من حمى إلاّ حماه، وقد فرّ إليه أصحاب الكهف فشملهم برحمته وهُداه:﴿ وَاتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ [الكهف: 27]"[3] ثمّ انتقل السّياق إلى بيان مصير المؤمنين الصّابرين العاملين الدّاعين الله غدوّا وعشيّا بأنّ لهم الجنّة وحسنت مرتفقا، والغافلين عن ذكر الله المتّبعين لأهوائهم وغرّتهم الحياة الدّنيا وزينتها فإنّ عاقبتهم النّار وساءت مرتفقا، وفي هذا المشهد ارتباط وثيق بما ذكره الله تعالى من أمر الفتية الذين اعتزلوا قومهم لعبادة الله فأكرمهم بالمرفق الحسن "والمرتَفَق: محل الارتفاق، وهو اسم مكان مشتقّ من اسم جامد إذ اشتق من المرفق وهو مجمع العضد والذراع. سُمّي مرفقا لأن الإنسان يحصل به الرفق إذا أصابه إعياء فيتكىء عليه، فلمّا سمي به العضو تنوسي اشتقاقه وصار كالجامد، ثم اشتق منه المرتفق. فالمرتفق هو المتّكأ."[4]

---

[1] – ابن عاشور، التحرير، ج15، ص 258.

[2] – سيد قطب، الظّلال، ج 5، ص 370.

[3] – سيد قطب، المرجع نفسه، ج 5، ص 380.

[4] – ابن عاشور، المرجع نفسه، ج 15، ص 309.

فما ورد في لحاق قصّة أصحاب الكهف كان للاعتبار وأخذ العظة من الثّبات على الإيمان وعدم الاغترار بمتاع الدّنيا وزينتها حتّى يظفر المؤمن بالمرتفق الحسن وينبُذ كلّ ما من شأنه أن يوصل إلى مُرتفق السّوء من هجران لمنهج الله وإعراض عن آياته وغفلة عن ذكره.

ثالثا: تحليل أحداث القصّة

لتحليل أحداث القصّة ينبغي الوقوف على الأحداث الرئيسية المؤثّرة في القصّة؛ فمن خلال تتبّع سياق معاني آيات قصّة أصحاب الكهف نلحظ رعاية الله لهم في جميع أحوالهم وذلك من خلال الدلالات التالية:

1 . أنّ ما ورد فيها من الحقّ لا يعرف تفصيله أحد إلاّ الله تعالى فقال: نحن نقصّ عليك نبأهم بالحقّ، فقد ذُكرت في أخبارهم روايات كثيرة في بعض الكتب القديمة، لذلك نتقيّد بما عرضه القرآن ولا نلتفت إلى الرّوايات التيّ لا سند صحيح لها كما قال سيّد قطب: " في القصة روايات شتى، وأقاويل كثيرة، فقد وردت في بعض الكتب القديمة وفي الأساطير بصور شتى، ونحن نقف فيها عند حد ما جاء في القرآن، فهو المصدر الوحيد المستيقن، ونطرح سائر الروايات والأساطير التي اندست في التفاسير بلا سند صحيح، وبخاصة أن القرآن الكريم قد نهى عن استفتاء غير القرآن فيها، وعن المراء فيها والجدل رجماً بالغيب."[1] فما جاء من تفصيلات كثيرة في كتب القديمة من الإسرائيليات وغيرها خوض في مبهمات القرآن "والبحث في تلك المبهمات...لا يُقدّم للنّاس علما ولا فائدة ولا نفعا، علاوة على كونه لا يتّفق مع المنهج الصّحيح في التّعامل مع مُبهمات القرآن."[2]

2 . هداية الله لهم إلى الإيمان رُغم أنّهم كانوا أحداثا شبابا والغالب في هذه المرحلة العمرية الإقبال على الدّنيا وزينتها ولكن الفتية اختاروا طريق العبوديّة لله، لذلك"حكم لهم بالفتوة حين

---

(1) – سيد قطب، الظلال، ج5، ص 373.

(2) – صلاح الخالدي، مع قصص السابقين في القرآن، ص 284.

آمنوا بلا واسطة، كما يقول أهل اللسان: رأس الفتوة الإيمان... وقيل: الفتوة اجتناب المحارم واستعجال المكارم[1]

3 . شملت هداية الله لهم أيضا الزّيادة في الإيمان فقد زادهم هدى وإيمانا فوق إيمانهم بفتح بصائرهم للتفكير في وسائل النجاة بإيمانهم وألهمهم التوفيق والثبات وعدم التردّد في ذلك[2] حتّى قاموا للصّدع بالحقّ الذّي آمنوا به في مواجهة الباطل والضّلال الذي عليه قومهم، وثبتوا على ذلك باتّخاذ موقف العزلة واللّجوء إلى الكهف لعبادة الله والتوكّل عليه لييسّر لهم المخرج ممّا هم فيه من غمّ وكرب؛ وهذا الموقف يكشف لنا مقدار إيمانهم بالله وثقتهم بلطف ربهم بالمؤمنين.

4 . آيات الله التّي شملت لطفه بالفتية أيضا كانت في تهيئة الكهف لهم بتوفير أسباب الرّاحة والهدوء حيث "جعل الشّمس تميل عن الكهف فلا تتسرّب أشعتها إلى داخله؛ لأنّ من وسائل النّوم الهادئ أن يكون المكان مظلما، سخّر الله ذلك لهم مع كونهم في متّسع من الكهف يتعرّض لأشعّة الشّمس."[3] وأكرمهم بتغيير أوضاعهم وهو رقود من أيمانهم إلى شمائلهم والعكس وذلك لحكمة لعلّ لها أثرا في بقاء أجسادهم بحالة سلامة[4] ثمّ يضيف السّياق طرفا من آيات الله فيهم والمتمثّلة في بعثهم من رقدتهم الطّويلة فقد تساءلوا عن مدّة لبثهم في الكهف على تلك الحالة حتىّ اهتدوا إلى تفويض الأمر لله، ولتحصُل لهم العبرة بأنفسهم و ليعلموا من أكرمهم الله به من حفظهم عن أن تنالهم أيدي أعدائهم بإهانة، ومن إعلامهم علم اليقين ببعض كيفية البعث، فإنّ علمه عظيم.[5] وكلّ ذلك أثر من رحمة الله بهم إذ هداهم إلى الايمان ويسّر لهم سبل الحفاظ على جذوة الإيمان مُستعرة حيّة في قلوبهم، وتحمل عبرة أيضا لأهل زمانهم وكلّ من

[1] – القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج10، ص 364.

[2] – ابن عاشور: التحرير، ج15، ص 271 – 272.

[3] – كعباش، نفحات الرحمان، ج8، ص 172.

[4] – انظر: ابن عاشور، المرجع نفسه، ج15، ص 281.

[5] – انظر: ابن عاشور، المرجع نفسه، ج15، ص 283.

تناهى إلى سمعه خبر هؤلاء الفتية المتمثّلة في اليقين من قدرة الله على تصريف شؤون خلقه فأمره بين الكاف والنون والوقوف على حقيقة البعث والنّشور وأنّ السّاعة آتية لا ريب فيها.

5 . يذكر الله تعالى أنّ القوم الذين أطلعهم على خبر هؤلاء الفتية اختلفوا في تقدير عددهم بعد أن توفّاهم الله لأنّ ذلك من شأنه سبحانه ويُطلع عليه من يشاء ﴿ قُل رَّبِّيَ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَآءً ظَاهِرًا وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ فهذا المشهد استمرار وبيان للحقيقة المطلقة التّي لا يعلمها إلاّ هو ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾.

من خلال ما ذُكر آنفا نستشعر معنى الآية العجيبة في خبر أصحاب الكهف والطّابع الإعجازي فيها ورعاية الله المصاحبة لهم في جميع المواقف والحوادث منذ اهتدائهم إلى العزلة في الكهف ودخولهم فيه وفترة النّوم الطّويلة التّي قدّرها الله عليهم وإلى آخر المشاهد، لنهتدي في الأخير بأنّ الله على كلّ شيء قدير، وأنّ أمر قيام السّاعة وبعث النّاس من القبور حقيقة لا جدال فيها لذلك فإنّ التعقيب الإلهي على القصّة أوضح عدد السنين التي لبث فيها أصحاب الكهف لأنّها المقصد من القصّة المعنيّة بأخذ العبرة منها وأخفى عدد الفتية أصحاب الكهف لأنها غير معنية بالعبرة ولا فائدة من الجدال فيها.

المطلب الثّالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة

عند الوقوف على معاني آيات القصّة ومحاولة الكشف عن المحور الذي يدور عليه سياق القصّة يتبيّن للباحث بأنّ محورها العام متعلّق بمشهد من مشاهد الإعراض عن الدّنيا وزينتها بالثّبات على مبدأ التّوحيد ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ـ امَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا ﴾ [الكهف: 13- 14] والتوكّل على الله واتّخاذ أسباب حفظ الايمان ﴿ اِذَ اَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنَ اَمْرِنَا رَشَدًا﴾ هكذا كان تعامل الفتية مع الضّلال العقدي الذّي ساد مجتمعهم حيث ثاروا على قومهم بمحاولة تغيير واقعهم وصدعوا بالحقّ، ولما صدقت نيّتهم وثبتوا على

مواجهة الكفر واهتدوا إلى اتّخاذ الكهف مأوى للحفاظ على عبوديّتهم لله يسّر الله لهم الأسباب وفتح عليهم من أبواب رحمته وخصّهم برعايته وكرمه وجعل منهم مثلا خالدا للأوّلين والآخرين.

وعلاقتها بسياق السّورة تتّضح من خلال تسليط الضّوء على فتنة من الفتن التّي قد يتعرّض لها المؤمن في حياته، فتنة زينة الحياة الدّنيا في مقابل الدّين والثّبات على العقيدة، وهي أخطر الفتن على الإطلاق كونها متعلّقة بمصيره ولعلّها من هذا الجانب قُدّمت على الفتن التّي تليها في السّورة الكريمة، ونموذج أصحاب الكهف كانت لتسلية النبيّ ﷺ والتّخفيف عنه ممّا كان يُلاقيه في قومه من الشّرك والتّكذيب والإعراض عن الحقّ بأن لا يحمل نفسه ما لا يُطيق ولا يهلكها ولا يحزن لأنّ أفعالهم مبنيّة على اتّباع الهوى والانغماس في ملذّات الحياة الدّنيا وزينتها التّي جعلها الله اختبارا وابتلاء لهم وأمرهم وأمرها إلى الذهاب والفناء[1] وقد جسّدت قصّة أصحاب الكهف هذه المفاهيم وبسّطتها في مشهد محسوس قريب بحيث يكون لها أثر على المتلقّي، من إيثار العزلة في الكهف والابتعاد عن زينة الأرض وشرك القوم والالتجاء إلى الخالق والتوكّل عليه والعيش في كنف العبودية لله ورحمته الواسعة، بحيث كشفت لنا معاني آيات اللّحاق أيضا مصير من اتّبع منهج الله وصبر نفسه على ذكر الله وعبادته وآثر الإيمان على زينة الحياة الدّنيا ومصير من أعرض عن ذكر الله واتّبع هواه وكان أمره فُرطا، فمن خلال هذه المعاني تتّضح لدينا العلاقة بين محور القصّة وما حملته من معان مع السّياق العام للسّورة وما بينهما من ترابط من حيث بيانُ فتنة من الفتن التي قد يتعرض لها المؤمن والمتعلّقة بالعقيدة في مقابل زينة الحياة الدّنيا وملذّاتها وأهوائها، ليقف منها موقف المتبصّر الخبير بأمر دينه ودنياه.

[1] – انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، ج3، 496. (بتصرف)

المطلب الرّابع: تحكيم السّياق في بعض قضايا القصّة

في قصّة أصحاب الكهف تفصيلات لم تُبيّن في القرآن ولا في الحديث لذلك فهي تُعتبر من المبهمات التّي لا تُبيّن إلاّ من مصادر موثوقة فإن وُجد حديث صحيح يُبيّنها وجب الأخذ به وإن لم يوجد وجب علينا السكوت عنها وإبقاؤها على إبهامها ولا تجوز لنا مُحاولة بيانها من المصادر الإسرائيلية أو غيرها، وقد كان من مُبهمات القصّة: أسماء الفتية واسم كلبهم، وموقع كهفهم، وفي أي زمان عاشوا والديانة التّي كانوا عليها وغيرها ممّا خاض فيها كثير من المفسّرين والمؤرّخين السّابقين –مع الأسف– وجاؤوا بركام كبير من الأساطير والإسرائيليات وأشغلوا النّاس بما فيها من خلافات وحجبوهم عن النصّ القرآني وتدبّره و البحث فيها لا يُقدّم للنّاس علما ولا فائدة ولا نفعا علاوة على كونه لا يتّفق مع المنهج الصّحيح في التّعامل مع مُبهمات القرآن [1] لذلك فإنّ السّياق القرآني لا يُقيم اعتبارا لما يُخالف المنهج الصّحيح في التّعامل مع المبهمات التّي لا تُضيف لمعاني القصّة شيئا، وهو ما حاولنا الالتزام به من الوقوف عند حدود النصّ القرآني.

---

[1] – انظر: صلاح الخالدي، مع قصص السّابقين، 283-284. (بتصرف)

المبحث السابع: كمال قدرة الله تعالى على الخلق والتّكوين

من خلال هذا المبحث يتطرق الباحث إلى إبراز دور السّياق في بيان معاني توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشريك والصّاحبة والولد وكمال قدرته تعالى على الخلق والتّكوين وشمول رحمته بمريم وعيسى عليهما السّلام والردّ على النّصارى في دعواهم بألوهية عيسى، وعلى اليهود في كلامهم المشين في مريم وطهرها وعفّتها وشرفها، وبيان الحقيقة الكاملة في حقّهما، ثمّ الإشارة إلى الفرق بين سياق قصّة مريم عليها السّلام بين سورة آل عمران وسورة مريم.

المطلب الأول: سياق سورة مريم

سورة مريم تعرف بهذا الاسم في المصاحف وكتب التفسير وأكثر كتب السّنة ووجه التّسمية أنها بسطت فيها قصة مريم وابنها وأهلها قبل أن تفصّل في غيرها.[1]

يقول ابن عطية أنّ السورة مكية بإجماع إلا السجدة منها فقالت فرقة هي مكية وقالت فرقة هي مدنية.[2] إلاّ أنّ ابن عاشور ردّ القول بمدنية آية السّجدة باعتبار اتّصالها بالآيات قبلها إلاّ إن كان هناك احتمال إلحاقها بها في النّزول وهو ما استبعده.[3]

يقول البقاعي عن السياق العام للسورة أنّ المقصود منها بيان اتّصاف الله تعالى بجميع صفات الكمال الدالة على تمام القدرة على البعث والتنزّه عن الولد وقصّة مريم أدلّ ما فيها على هذا الأمر فسمّيت السّورة بذلك.[4]

---

(1) - انظر: ابن عاشور، التحرير، ج16، ص 57-58.

(2) - ابن عطية، المحرر الوجيز، ج4، ص 3.

(3) - ابن عاشور، المرجع نفسه، ج16، ص 57.

(4) - انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج 16، ص 156.

يقول سيد قطب عن سياق السورة أنّه يدور على محور التوحيد ونفي الولد والشريك، ويلم بقضية البعث القائمة على قضية التّوحيد[1]

أمّا ابن عاشـــور فيرجّح أن تكون السّـــورة نزلت للردّ على اليهود فيما اقترفوه من القول الشّنيع في مريم وابنها، فكان فيها بيان نزاهة آل عمران وقداستهم في الخير.[2]

وفي تفسـير نفحات الرحمن يقول: الموضـوع الأسـاسـي الذي تعالجه السّـورة الكريمة هو ما يعالجه القرآن المكيّ من تركيز أسـس العقيدة الإسـلامية بإثبات وجود الله ووحدانيته، وصـدق النّبوءة والرّسالة، والإيمان بيوم البعث والجزاء[3]

وفي التفسـير الموضـوعي يعتبر بأنّ صـفة الرحمة ومقام العبودية المحور العام للسّـورة فصـفة الرحمة من صفات الكمال الرباني ويستشعرها القارئ ويتلمّس آثارها ومعانيها في كل آية من آياتها ولقد تكرر اســـم الله الرحمن وكلمة الرحمة كثيرا فيها مما يُؤكد ويقرر الهدف العام من السورة، وإذا كانت رحمة الله هي كمال صفات الربوبيّة فإنّ غاية الإنسانية وكمالها في عبوديتها الخالصــة لله تعالى، من هنا كان الهدف من السّــورة تحقيق العبودية وتعظيم الربوبية وفي ذلك شرف العبد وكماله.[4]

نلحظ في ســـورة مريم التركيز على الجانب العقدي وهو شـــأن القرآن المكّي من التوحيد ونفي الشّــريك عن الله وقضــيّة البعث واليوم الآخر وكذا تكرّر صــفة الرّحمة وما في معانيها بشكل لافت، فصفة الرحمن تكرّرت ست عشرة مرة، واسم الرحمة أربع مرات في السّورة ممّا جعل بعض المفسّرين يقفون عند سرّ تعدادها بهذا الشّكل في السّورة وكذا القصد من ذلك فسـيّد قطب مثلا يرى بأنّ صــفة الرّحمة ألقت بظلالها على أجزاء السّــورة ومعانيها فيقول: والظّل الغالب في الجوّ هو ظل الرحمة والرضـــى والاتصـــال، فهي تبدأ بذكر رحمة الله لعبده

---

[1] - سيد قطب، الظلال، ج16، ص 2299.

[2] - ابن عاشور، التحرير، ج16، ص 58.

[3] - كعباش، نفحات الرحمن، ج8، ص 279.

[4] - انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن، مصطفى مسلم وآخرون، ج4، ص 406-407.

زكريا﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾وهو يناجي ربه نجاء:﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ويتكرر لفظ الرحمة ومعناها وظلها في ثنايا السورة كثيراً، ويكثر فيها اسم "الرحمن"، ويصوّر النعيم الذي يلقاه المؤمنون به في صورة ودّ:﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ويذكر من نعمة الله على يحي أن آتاه الله حناناً﴿ وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً ﴾ ومن نعمة الله على عيسى أن جعله براً بوالدته وديعاً لطيفاً:﴿ وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾...وإنّك لتحسّ لمسات الرّحمة النديّة ودبيبها اللّطيف في الكلمات والعبارات والظلال.[1]

أمّا ابن عاشور فقد ربط الأمر بمقصد من مقاصد السورة بتحقيق وصف الله تعالى بصفة الرحمن، وربطه بالجوّ العام السّائد في مكّة زمن نزول السّورة من الردّ على المشركين قساة القلوب في مزاعمهم وإنكارهم لصفات الله وصفة الرّحمن كما حكى الله تعالى عنهم في قوله في سورة الفرقان﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُواْ لِلرَّحْمَنِ قَالُواْ وَمَا الرَّحْمَنُ﴾[الفرقان:60].[2]

ومن خلال ما سبق يمكن القول بأنّ السّياق العام للسّورة متعلّق بتوحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشريك والصّاحبة والولد وإقامة الأدلّة على ذلك ببيان كمال رحمته تعالى ومشيئته وقدرته المطلقة.

المطلب الثاني: سياق المقطع

أوّلا: عرض أحداث القصّة

قصّة مريم في سورة مريم تبدأ أحداثها من قوله تعالى:﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنَ اَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا(16) ﴾إلى قوله تعالى:﴿ وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا(33) ﴾في ثمانية عشر آية، وتعتبر هذه الآيات الأكثر تفصيلا في أمر مريم وولادتها

(1) - سيد قطب، الظلال، ج16، ص 2300.

(2) - انظر: ابن عاشور، التحرير، ج16، ص 59-60.

بعيسى عليهما السّلام من أيّ سورة أخرى، حيث تروي أحداث القصّة ما حصل لمريم في ولادتها لعيسى عليه السلام، ومراحل تبشيرها بذلك عن طريق جبريل لما تمثّل لها في صورة رجل وأخبرها بأمر الله الذي سيهب لها غلاما طاهرا عفيفا بقدرته وإرادته، ثمّ جاءت مرحلة الحمل حيث طوى كلّ ما يتعلّق بعمليّة الحمل وأطواره ولا كيفيّة النّفخ فأخذته إلى مكان بعيد حيث لا ترى الناس ولا يرونها، ولما أحسّت بالمخاض لجأت إلى نخلة واستمسكت بها لتخفّف عنها ألم الوضع وفي هذا الوضع الحرج والساعة العصيبة التّي تمنّت فيها الموت جاءها صوت وليدها يُطمئنها بعناية الله لها من إجراء جدول ماء وتسخير طعام الرّطب جنيّا لتأكل وتشرب وتقرّ عينها بوليدها وتسكن نفسها وتطمئنّ لقدر الله ومشيئته، ومن ثمّة تأتي أحداث مقابلة قومها بمولودها حيث أرشدها الله تعالى إلى أن تصوم عن الكلام نذرا فلا تُكلّم أحدا من البشر وتلزم الصّمت فأتت به إلى قومها تحمله فقابلوها بالتوبيخ وأغلظوا لها القول بارتكابها لأمر فظيع وفاحشة ما عُهد عند أهلها المشهورين بالصّلاح والطّهر مثل ذلك واكتفت في جوابها بالإشارة إلى ولدها فكانت المعجزة الكبرى بأن نطق بكلمات تحمل معاني السموّ والرفعة لشخصه من أنّه عبد لله تعالى مبارك ونبيئ أعطاه الكتاب وأمره بالصّلاة والزّكاة، منزّها بذلك أمّه من جميع ما ألحقوه بها، بكلام حقّ.

ثانيا: علاقتها بسباقها ولحاقها

تأتي آيات قصّة مريم بعد قصّة زكريا ويحي عليهما السّلام ووجه العلاقة بين القصّتين في عجيب قدرة الله تعالى في أمر الخلق والتكوين فقد وهب زكريا الولد في كبره وعقم زوجته ووهب مريم غلاما زكيا دون الأب، وكلا المشهدين من آيات الله العجيبة الخارقة للعادة ولله في خلقه شؤون، لذلك كانت قصّة زكريا ويحي تمهيدا لقصّة مريم وعيسى عليهم السّلام، وانتقال من آية عجيبة إلى أُخرى أعجب منها، "فإن بين القصّتين مناسبة ومشابهة، ولهذا

ذكرهما في آل عمران وهاهنا، وفي سورة الأنبياء يقرن بين القصّتين لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر."[1]

أمّا من حيث اللّحاق فقد كانت الآيات تعقيبا على أحداث القصّة حيث طوى السّياق القرآني ما جرى بين مريم وقومها وأشارت الآيات إلى حقيقة عيسى ابن مريم فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلُ الْحَقِّ الذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ(34) ﴾ فتلك هي صفاته كما عرضها الحقّ سبحانه لا كما يصفه اليهود والنّصارى بالصّفات الباطلة التّي ألصقوها به، فاليهود أنزلوه إلى حضيض الجُناة، ورفعه النصارى إلى مقام الإلهية، وكلاهما مخطئ مبطل[2] والحقّ أنّه عبد الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه، ويقرّر حقيقة توحيد الله عزّ وجلّ القادر على كلّ شيء.

ثالثا: تحليل أحداث القصّة

أحداث قصّة مريم في السّورة الكريمة تتركّز أساسا على حمل مريم بعيسى عليهما السلام وولادته وما صاحب هذه المعجزة من انفعالات وردود أفعال مختلفة ساقها القرآن في أسلوب بديع يأخذ الألباب ويأسر القلوب، ليضفي عليها هالة من التّشويق والاثارة ممتزجة بالعواطف والانفعالات، وكان القصد منها بيان قدرة الله تعالى وأنّه على كلّ شيء قدير ولا معبود بحقّ سواه وبيده الملك والحقيقة الكاملة في عيسى عليه السلام.

فالخطوط العريضة للقصّة تتمثّل في أربعة مشاهد:

الأول: وهو انعزال مريم عن أهلها بحيث تكون منفردة بعيدة عن الناس بينها وبينهم حجاب، وربّما كان ذلك للتفرّغ للعبادة كما هي عادتها وهي المعروفة بالقانتة السّاجدة العابدة.

---

(1) - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج5، ص 193-194.

(2) - انظر: ابن عاشور، التحرير، ج16، ص 101.

الثاني: مشهد لقائها بجبريل عليه السّلام وما صاحبه من انفعالات وفزع وصدمة لمريم الطّاهرة العفيفة التّي لم تعتد لقاء أناس غرباء كيف لا وهي المنذورة من أمّها خالصة لخدمة بيت الله، ولذلك ربّما استعمل السّياق كلمة " الأهل " بدل القوم في قوله تعالى:﴿إِذِ انتَبَذَتْ مِنَ اَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ بخلاف مشهد حملها الولد رضيعا لقومها ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ وكذا الكلمات التي نطقت بها مريم ﴿ قَالَتِ اِنِّيَ أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ اختارت كلمة الرحمن استدراراً لرحمة الله تعالى الذي يرحم ضعفها وهي ضعيفة حييّة عذراء لا حول لها ولا قوّة وذكرت كلمة التّقوى لعلّه يتأثّر بهما ويتجنّب ما تخيّلته فيه أوّل مرّة إذ ربّما كان يريد بها سوءاً[1]فأخبرها بأنّه رسول من الله ومأمور بأن يهب لها غلاما زكيّا طاهرا ويجعله للنّاس آية ورحمة بقدرته ومشيئته، فهذه هي المعجزة والآية التّي أرادها الله تعالى "علامة على وجوده وقدرته وحرية إرادته، ورحمة لبني إسرائيل أوّلاً وللبشريّة جميعاً، بإبراز هذا الحادث الذي يقودهم إلى معرفة الله وعبادته وابتغاء رضاه."[2]

نلحظ بأنّ سياق استعمال الأهل كان لحاجة في نفس مريم تريد قضاءها فاعتزلتهم، أمّا استعمال كلمة قوم فجاءت في سياق ذمّ الفعل واتّهام مريم ضمنيا بارتكاب الفاحشة، ومثل تلك الاتّهامات لمريم العفيفة الطّاهرة لا يصدر من آل عمران، ممّا يبيّن أيضا مكانة آل عمران وأنّهم أهل عبادة وورع.

في هذا المشهد نلحظ اختيار كلمات تتناسب مع سياق معاني الآيات وما تحمله من دلائل الرّحمة والعبوديّة لله تعالى، الذي نستشعره من خلال موقف مريم عليها السّلام وتمام عبوديّتها لله تعالى والامتثال لأوامره.

---

(1) - انظر: بيوض إبراهيم بن عمر (ت: 1401هـ، 1981م)، **في رحاب القرآن**، تفسير سورتي مريم وطه، تحرير: عيسى بن محمد الشيخ بلحاج، جمعية التّراث غرداية- الجزائر- ط: 1440هـ، 2019م ، ، ص 55.

(2) - سيد قطب، الظلال، ج16، ص 2306.

الثّالث: المخاض الذّي أجاءها تحت جذع النّخلة.

يبيّن السّياق في هذا المشهد المعجزة والآية التّي أرادها الله تعالى، فقد حملت مريم وانطلقت بجنينها إلى مكان بعيد وتحمّلت هنالك ألم المخاض ولكنّ رحمة الله تصاحبها في جميع ذلك لتخففّ عنها بكلمات نطق بها المولود الجديد "يطمئن قلبها ويصلها بربها، ويرشدها إلى طعامها وشرابها، ويدلها على حجتها وبرهانها".[1] ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَآ أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا(24) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تَسَّاقَطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا(25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا(26) ﴾

وفي هذا الظّرف وأمام هذه الحقيقة كانت مريم العابدة الصّابرة تُفكّر في قومها وردّة فعلهم من رؤيتها حاملة الولد بين يديها فقد كانت في حالة حزن وتمنّت الموت قبل ذلك فهو أهون عليها من الوقوع فيها، وهذا دليل على مقام صبرها وصدقها في تلقّي البلوى التي ابتلاها الله تعالى فلذلك كانت في مقام الصدّيقيّة."[2]

وهذا ما يرشدنا إليه السّياق في تتابع هذه المعاني وبيان مقام العبودية والإخلاص لله تعالى عند مريم عليها السّلام.

الرابع: ذهابها إلى قومها حاملة لمولودها الجديد عيسى

يُطلعنا السّياق بعد ذلك على مشهد آخر من الصّبر واليقين لمريم مع قومها وامتثالها لأمر ربّها بالكلمات المعجزة التي نطق بها وليدها، تسمع كلمات جارحة في شرفها وعفّتها وطُهرها، ولكنّها تستعين في كلّ ذلك بالخالق الرّحيم الذي أرشدها إلى الصّوم عن الكلام، والاشارة إلى الصبيّ يُكلّمهم ليشهدوا على مُعجزة خارقة متمثّلة في نُطق عيسى عليه السلام في المهد صبيّا.

---

[1] - سيد قطب، الظلال، ج16، ص 2307.

[2] - ابن عاشور، التحرير، ج 16، ص 85.

ومن جهة أخرى تحقّق رعاية الله تعالى لمريم بعد الولادة فلم يتركها تُواجه قومها لوحدها وهو ما كانت تخشـاه ولكن أيّدها بمعجزة خارقة ترفع عنها كلّ ما يُتوهّم في حقّها مع وليدها وهو أهون عليه﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيًّا(21)﴾، ولا يزيد السياق القرآني شيئاً على هذا المشهد، لأن حادث ميلاد عيسى هو المقصود في هذا الموضع.[1]

فهذه هي المشـاهد المهمّة في قصّـة مريم والمعجزة الخارقة التّي أجراها الله على يديه لبيان قدرته ومشـيئته المطلقة في خلق عيسـى من دون أب، وكانت مريم الطّرف البارز فيها، فقد أظهر السّياق صفات العبوديّة التّي تتميّز بها مريم الطّاهرة العفيفة وأطال في ذلك وظهر ذلك جليّا في جميع مشاهد القصّة من التفرّد والانعزال للعبادة والكلمات التي نطقت بها في حوارها مع جبريل وتصديقها لأمر الله وصبرها في تحمّل البلاء ليزيل عنها كلّ منقصة في حقّها، ويقرّر حقيقة لا إله إلاّ الله، وأنّ عيسى عبد الله ورسوله.

المطلب الثالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة

من خلال ما ورد في قصّة مريم يتبيّن للباحث بأنّ أحداثها سيقت لبيان معاني كمال رحمة الله على عباده وكمال قدرته على الخلق والتّكوين، وهذا باعتبار ما يلي:

- سباق الآيات ولحاقها فقد رأينا بأنّ قصّة زكريا ويحي آية عجيبة في إتيان الولد رُغم العقم وكبر السنّ فرحم الله زكريا بيحي سيّدا وحصورا ونبيئا من الصّالحين، فكانت تمهيدا لقصّة مريم وهي آية أعجب منها في خلق الولد دون الزّوج ورحمة الله التي صاحبت مريم في الحمل والولادة، ولحاق آيات القصّة التّي أكّدت حقيقة قدرة الله في تصريف شؤون الخلق وأنّه المستحقّ للعبادة دون سواه.

[1] - سيد قطب، الظلال، ج16، ص 2308.

- صفات العبودية لله التّي نجدها في شخص مريم التي نذرتها أمّها لخدمة بيت الله والتزمت بنذر أمّها وتقبّلها الله بقبول حسن وأحاطها برعايته وانقطعت لعبادة الله والسّجود والرّكوع، وقد تربّت في بيت علم وحكمة ونبوءة ورسالة وطهارة وعفّة وظهرت عبوديتها أكثر في الابتلاء العظيم والامتثال لأمر الله بحمل عيسى من دون بشر فمن تمام رحمة الله بمريم هذه العناية والرعاية والاعداد لتقبّل ابتلاء عظيم كهذا والذي لا يقوى عليه ولا يصبر على تحمّله إلاّ من كان بمنزلة مريم في الإخلاص والتّقوى والورع فاستحقّت أن يخلّد ذكرها في القرآن وتُفرد سورة كاملة باسمها تكريما لها وتكون الوحيدة في عنصر النّساء تُذكر في القرآن باسمها، وقد اصطفاها الله على نساء العالمين لعلوّ منزلتها ومكانتها.

فللقصّـــة ارتباط وثيق بالسّـياق العام للسّـورة حيث تُبيّن لنا كمال قدرة الله تعالى وشمول رحمته بمريم وعيسى عليهما السّلام والردّ على النّصارى في دعواهم بألوهية عيسى وعلى اليهود في كلامهم المشـــين في مريم وطهرها وعفّتها وشـــرفها، وبيان الحقيقة الكاملة في حقّهما وأنّ عيســـى عبد الله ورســـوله وأمّه مريم وليس ابنا لله، فقد بيّن السّـــياق قدرة الله تعالى في الخلق والتّكوين بطريق البشـــارة والهبة لمن يشـــاء، فأحداث القصّـــة تدخل في الجانب الاعتقادي الإيماني لأنّها متعلّقة بأهمّ وأخطر قضيّة هي قضية وحدانية الله تعالى، فالسّياق القرآني ركّز في ســـورة آل عمران على بيان مكانة آل عمران والمكارم التّي خصّـــهم الله بها من الإخلاص والعبودية لله تعالى بموجب الاصـــطفاء الإلهي لحمل أمانة الوحي والخلافة في الأرض التي تستدعي إعدادا ورعاية إلهية كان لمريم منها نصيب وافر، لذلك كان الخطاب الموجّه إلى مريم يحمل تلك الصّـفات العباديّة المميّزة ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْـطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْـطَفَاكِ عَلَى نِسَـاءِ الْعَالَمِينَ(42) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْـجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ(43) ﴾[آل عمران: 42-43]

ولأنّ المقصد الأساسي من القصّة بيان النّسب البشري الطّاهر لعيسى عليه السّلام فناسب أن يكون التّمهيد لذلك ببيان البيئة الطّاهرة النقيّة التّي نشأت فيها أمّه مريم.

أمّا سورة مريم فقد ركّز السّياق القرآني فيها على قدرة الله تعالى على الخلق والإيجاد فناسب ذلك أن تشمل أحداث القصّة هذا الجانب وما صاحبه من انفعالات وعواطف ظهرت فيها شخصيّة مريم العبادية بشكل لافت مجسّدة في مواقف عمليّة واقعيّة وحركيّة متتابعة من الانعزال عن أهلها ولقاءها بجبريل مرورا بالحمل وألم الوضع وانتهاء بمعجزة ميلاد ونطق عيسى عليه السلام وهو في المهد صبيّ وفي جميع تلك المراحل كانت صابرة متوكّلة محتسبة أمرها للرّحمن.

ولأنّ المقصد الأساسي للقصّة هو توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشريك والصّاحبة والولد ناسب أن تكون أحداث القصّة لبيان كمال قدرة الله تعالى ورحمته ومشيئته المطلقة، وتفصيل الحقيقة في أمر عيسى عليه السّلام ونفي الألوهية عنه وتنزيه أمّه عن كلّ منقصة.

إذا فقصّة مريم في سورتي آل عمران ومريم وردتا في سياق مختلف وإن كانت القضيّة الأساسيّة والرئيسيّة فيهما متعلّقة بإثبات وحدانية الله تعالى وكمال علمه وقدرته.

المبحث الثامن: حكمة الله تعالى في الابتلاء بالعطاء والمنع

من خلال هذا المبحث يُحاول الباحث إبراز دور السـياق في بيان معاني قدرة الله تعالى وإحاطته وعلمه وحكمته في تصـريف شـؤون خلقه وابتلائهم بعطائه، ببيان فضـل الشّـاكر وعاقبة الكافر الجاحد، من خلال قصّـة سـبأ التي سـيقت كمثل لحال من خصّـه الله بكمال النّعم فقابلها بالكفر والجحود بعدم إيفاء تلك النّعم حقّها من الشّـكر، ممّا عرّضـهم للزّوال وانقلاب الأحوال، بحلول عقاب الله عليهم، في مقابل التّمثيل لحال من أنعم الله عليه فشـكر ممّا خصّه الله به آل داود عليه السّلام من فضل.

المطلب الأوّل: سياق سورة سبأ

سمّيت السّورة باسم "سبأ" لذكر قصّة أهل سبأ فيها وهو الاسم الذي اشتهرت به في كتب السنّة وكتب التّفسير وبين القرّاء[1] والسّورة مكّية نزلت بعد سورة لقمان وقبل الزمر.[2]

أمّا عن سياق السّورة فنذكر ما قاله أصحاب الفضل فيها على النّحو الآتي:

يقول البقاعي بأنّ السّورة تتحدّث عن الدّار الآخرة وأنّها كائنة لا ريب فيها، لما في ذلك من الحكمة، وله عليه من القدرة، وفي تركها من عدم الحكمة والتصوير بصورة الظّلم، ولقصّة سبأ التي سميت بها السورة مناسبة كبيرة لهذا المقصد.[3]

وسيّد قطب يرى بأنّ سياق السّورة يركّز على الموضوعات العقديّة الرّئيسية، من توحيد الله والايمان بالوحي، والاعتقاد بالبعث، وتصحيح بعض القيم الأساسية المتعلّقة بها، وكان التّركيز الأكبر على قضيّة البعث والجزاء وعلى إحاطة علم الله وشموله ودقّته ولطفه[4]

---

[1] – ابن عاشور، التحرير، ج22، ص 133.

[2] – الزركشي، البرهان، ج1، ص 193.

[3] – البقاعي، نظم الدرر، ج15، ص428.

[4] – انظر: سيد قطب، الظّلال، ج22، ص 2888.

وابن عاشور يذكر بأنّ سياق السّورة متعلّق بالدّفاع عن القضايا العقدية من التّوحيد والبعث والجزاء والنبوّة بإبطال قواعد الشّرك، وإثبات البعث والجزاء، وإثبات إحاطة علم الله، وإثبات صدق النبيّ ﷺ فيما يُخبر به.[1]

أمّا صاحب الأساس فيقول بأنّ السياق العام للسّورة متعلّق بإقامة الحجة على الكافرين فيما يقولون.[2]

وفي التفسير الموضوعيّ لسور القرآن أنّ السياق العام للسّورة يعالج قضيّة أساسيّة وحقيقة إيمانية، هي قضيّة البعث الذي قرّره القرآن وأثبته بالحجّة والبرهان المادي والعقلي.[3]

وبالنظر إلى مجموع هذه الأقوال نجد أنّها متّفقة في أنّ السياق العام للسورة متعلّق بموضوعات عقديّة أساسيّة هي التّوحيد والتّصديق بالوحي والنبوّة والبعث والجزاء وإثباتها بإقامة البراهين والحجج الدّامغة، وإبطال دعاوى المشركين حيالها، على أنّ التّركيز أكثر كان قضيّة البعث والجزاء.

وبملاحظة هذه المحاور نجدها مشتركة مع الموضوعات التّي سيقت في القرآن المكّي، وفي رأي الباحث فإنّ قصّة سبأ أدلّ ما في السّورة على سياقها العام كما أشار البقاعي، وذلك ببيان قدرة الله وإحاطته وعلمه بكلّ شيء من خلال تعديد النّعم الكثيرة على عباده فيجازي الشّاكر على شكره بإدامة نعمه عليه وتكثيرها ويُجازي الكافر الجاحد على جحوده بزوال النعمة وحلول النّقمة عليه، وفي ذلك موعظة للمشركين إذ كانوا في رغد العيش والنعم الكثيرة وجاءهم الرّسول وهو أعظم نعمة يُذكّرهم بربّهم وواجبهم اتّجاهه ليعبدوه ويشكروه ولكّنهم أعرضوا وكذّبوا، وتنبيها للمؤمنين ليزدادوا إيمانا بالله المنعم.

---

[1] – انظر: ابن عاشور، التحرير، ج22، ص 134.

[2] – سيعد حوى، الأساس، ج8، ص 4500.

[3] – مصطفى مسلم وآخرون، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج6، ص 167.

المطلب الثاني: سياق المقطع

بعد أن تعرّفنا على السّياق العام لسورة سبأ، نتناول في هذا المطلب الحديث عن قصّة سبأ ببيان حيثيات الأحداث الخاصّة بالقصّة في سياق النصّ القرآني، ثمّ ننتقل إلى معرفة علاقتها بسباقها ولحاقها، وتحليل المعاني الواردة في القصّة.

أولا: عرض أحداث القصّة

قصّة قرية أهل سبأ ورد ذكرها في سورة سبأ في الآيات من 15 إلى 19، حيث ذكر الله من شأنها ما فيه عبرة وعلامة على فضل الله وقدرته، فقد أنعم الله عليهم نعما كثيرة، وأرسل إليهم رسلا يأمرونهم بعبادة الله تعالى وشكره على رغد العيش والرّزق الوفير، لكنّهم أعرضوا عمّا أُمروا به فحقّت عليهم كلمة العذاب، وتغيّر حالهم من الرّفاهيّة إلى الفقر وشظف العيش فزالت النّعم عنهم.

ثانيا: علاقتها بسباقها ولحاقها

ذكر الله تعالى قبل آيات قصّة سبأ حال بعض الشّاكرين لنعمه وضرب مثلا بآل داود عليه السلام ثمّ عقّب بحال الجاحدين لها بأهل سبأ، وفي ذلك يقول البقاعي: "وكان من ترجمة اتّباع قصّتهم لما قبلها أنّ آل داود عليه السلام شكروا، فسخّر لهم من الجبال والطّير والمعادن وغيرها ما لم يكن غيرهم يطمع فيه، وهم أضاعوا الشّكر فأعصى عليهم وأضاع منهم ما لم يكونوا يخافون فواته من مياههم وأشجارهم وغيرها"[1]، فالمناسبة إذا متمثّلة في بيان قدرة الله تعالى وحكمته في تصريف شؤون خلقه بإسباغ النّعمة على الشّاكرين وسلبها عن الكافرين الجاحدين.

أمّا مناسبتها للحاقها فالآيات كانت تعقيبا على أحداث القصّة ببيان العبرة وبعض الدّلائل المستخلصة منها فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمُ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُومِنِينَ

---

[1] - انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج15، ص 474.

وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ اِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُّومِنُ بِالاَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: 20-21]، فعاقبة سلوك أهل سبأ جاء من سوء اختيارهم حيث وقعوا في مصيدة الشّيطان فأخفقوا في الابتلاء إلاّ قليلا ممّن صدق في إيمانه وثبت على عهد الله، وفي ذلك عبرة لكلّ معتبر، ونظر إلى سنّة الله في خلقه جميعا، لذلك يذكر سيّد قطب أنّ النصّ لما ختم القصّة بهذه الآيات خرج من إطار القصّة المحدود إلى إطار التّدبير الإلهي العام والتّقدير المحكم الشّامل والسنّة الإلهية العامّة ليكشف عن الحكمة المستخلصة من القصّة كلّها وما يكمن فيها وخلفها من تقدير وتدبير.[1]

ثالثا: تحليل أحداث القصّة

يمكن تقسيم أحداث القصّة إلى أربعة أقسام:

. الأوّل يتحدّث عن النّعم التّي أسبغها الله على أهل سبأ داخل بلدهم متمثّلة في الجنّتين وما حوتهما من الخيرات الوفيرة، التّي تستدعي الشّكر للمُنعم المتفضّل عليهم بكلّ تلك النّعم.

. الثّاني يتحدّث عن عاقبة عدم الشّكر وما استتبعه من قلب النّعمة إلى نقمة والمنحة إلى محنة.

. الثالث حديث عن نعم أخرى متعلّقة بحال خارج بلدهم متمثّلة في القرى المعمورة الآمنة حال التّرحال والسّفر.

. الرابع تعقيب على أحداث القصّة.

والبداية بالقسم الأوّل حيث ابتدأت القصّة بقوله تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمُ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَّمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ في أسلوب تشويقيّ يدعوا القارئ إلى التأمّل والتطلّع لمعرفة حال هؤلاء الذين جعل الله من خبرهم آية أي:

---

[1] - انظر: سيد قطب، الظّلال، ج22، ص 2902.

علامة على وجود الله تعالى وقدرته[1]، وأكّده بلام القسم وحرف التّحقيق، حيث رسمت لنا هذه البداية تصوّرا عن بيئة أهل سبأ من أنّهم كانوا يعيشون في بحبوحة من العيش الكريم والرّزق الوفير في مساكنهم وبساتينهم ذات الأشجار المثمرة الوارفة الظّلال، ثمّ انتقل السّياق إلى مشهد آخر متعلّق بسلوك أهل سبأ اتّجاه هذه النّعم، وهو القسم الثّاني من القصّة، حيث يظهر من سياق الآيات أنّهم كفروا بهذه النّعم وجحدوا بها، قال تعالى:﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ أي أعرضوا عن الشّكر فأرسل الله عليهم سيلا أغرق مساكنهم وخرّب بساتينهم، فإذا هي صعيد جُرز لم يبق فيها إلاّ أشجار صحراوية من نوع الخمط والأثل، وهما من النّوع المرّ الذي لا نفع فيه للإنسان سوى السّدر الذي هو شجر النّبق، فذلك جزاؤهم بسبب توغّلهم في الكفر إلى المستوى المنحط الذي لا يُرجى من ورائه عودة إلى الشّكر والحمد[2] ثمّ يذكر الله تعالى في القسم الثّالث من القصّة نوعا آخر من النّعم وكيف تعامل معها أهل سبأ وكيف جزاهم الله على فعلهم قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ(18) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ يقول ابن عطية في وصف هذه النّعم:"كان قد أصلح لهم البلاد المتّصلة بهم وعمّرها وجعلهم أربابها، وقدّر فيها السّير بأن قرّب القرى بعضها من بعض حتّى كان المسافر من مأرب إلى الشّام يبيت في قرية ويقيل في قرية أخرى، فلا يحتاج إلى حمل زاد، مُؤمّنا من الخوف من الناس المفسدين، ومن الجوع والعطش وآفات المسافر."[3] هذه هي الرّفاهيّة التي كان يعيشها أهل سبأ المطالبون بالشّكر والدّعاء لله الخالق حتّى تدوم هذه الحال لهم ولكنّهم بطروا وكفروا بها فحلّ بهم أسباب

---

[1] – اطفيش، امحمد بن يوسف (ت: 1332هـ) **تيسير التفسير**، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ط: 1408هـ/ 1988م، ج8، ص243.

[2] – انظر، كعباش، نفحات الرحمن، ج11، ص 178.

[3] – ابن عطية، المحرر الوجيز، ج4، ص 415-416. (بتصرف يسير)

سلبها عنهم من التّفريق وجعلهم أحاديث للناس "يضربون بهم المثل في السبِّ، فيقال: تفرق القوم أيادي سَبَا، وأيدي سبا إذا تفرقوا وتقطعوا."[1]، وفي هلاكهم عبرة لكلّ صابر مُداوم على الشكر لله على آلائه وأفضاله، هكذا رسم القرآن عاقبة كفر أهل سبأ في مشهد من الدّمار والتّخريب والتّمزيق بعد أن كان القوم آمينين مطمئنّين يأتيهم رزقهم رغدا.

ولعلّ التّالي لآيات القصّة يلحظ أنّ الله تعالى ذكر نوعين من النّعم ونوعين من الهلاك الذي استحقّه أهل سبأ فلماذا لم تذكر النّعم دفعة واحدة ويتلوها الهلاك أيضا دفعة واحدة فلماذا التّفريق بينهما؟ يقول الفخر الرّازي إجابة على ذلك بأنّ الله تعالى ذكر حال نفس بلدهم وبيّن تبديل ذلك بالخمط والأثل، ثم ذكر حال خارج بلدهم وذكر عمارتها بكثرة القرى، ثم ذكر تبديله ذلك بالمفاوز والبيادي والبراري[2] فالعبرة إذا متعلّقة بكمال نعم الله على أهل سبأ داخل مساكنهم وخارجها في حضرهم وسفرهم، وفي حِلّهم وترحالهم حيث أُحيطوا بالنّعم من كلّ جانب ليتبيّن لنا مدى ضخامة هذه النّعم التّي كفروا بها في الحالين حيث استدعى التّفريق بينهما أيضا في العقاب فكان مصير الجنّتين داخل المدينة إبادتهما واستبدالهما بنبات وأشجار لا نفع للإنسان فيها لأنّهم كذّبوا الرّسل ولم يقدّروا المعطيات الحيوية والجمالية التّي تفرزهما الجنّتين، على أنّ الله تعالى جعلهم في الجانب الآخر أحاديث ومثل سوء وقطّعهم وفرّق شملهم لأنّهم لم يقدّروا التّرف والرّاحة في أسفارهم؛ فبالمحصّلة نجد أنّ لهذا التّفريق مسوّغاته الفنيّة والفكريّة.[3]

أمّا القسم الرّابع فكان تعقيبا للقصّة على عادة القرآن في منهج سرد القصص فقال تعالى:﴿ اِنَّ فِي ذَٰلِكَ ءَلاَيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ   وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمُ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُومِنِينَ   وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ اِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُّومِنُ بِالاَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ

---

(1) – الطبري، جامع البيان، ج20، ص 390.

(2) – االرازي، مفاتيح الغيب، ج25، ص201.

(3) – للتوسّع أكثر في هذه المسوّغات الفنية والفكرية لقصّة سبأ راجع كتاب: دراسات فنية في قصص القرآن، لمحمود البستاني، مرجع سابق، ص 484 – 493.

وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ يذكر الله تعالى في هذه الآيات بأنّ في عاقبة أهل سبأ آيات وعبر وعظات لكلّ معتبر وإشارة إلى وقوع القوم في مصيدة الشّيطان وتمكّنه من غوايتهم وإغرائهم بوسوسته، فاتّبعوه إلاّ من وفّقه الله إلى الثّبات على الحقّ، وفي ذلك حكمة الله تعالى في ابتلاء الخلق ليتبيّن المؤمنَ بيوم الحساب والجزاء من الغافل المستجيب لغواية الشّيطان وأمانيه، والله أعلم.

المطلب الثالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة

من خلال ما عرفناه من معاني آيات القصّة يمكننا القول بأنّ القصّة سيقت كمثل لعاقبة من كفر بنعم الله ولم يرعها أو يؤدّ حقّ شكرها، وذلك بالنّظر إلى نقطتين:

الأولى متعلّقة بعلاقة القصّة بسباقها حيث كان الحديث فيه عن النّعم التّي أسبغها الله على آل داود عليه السّلام على أنّه مثل للشّاكرين، وقصّة سبأ مثل للجاحدين، فالمثلان جاءا في سياق بيان عطاء الله ونعمه على عباده وعاقبة من شكر ومن كفر، وقد بيّن الله تعالى مقدار النّعم التّي أسبغها على عباده في القصّتين من أنّها تندرج ضمن إطار الآية والمعجزة أو فضل الله كما عبّرت عنه الآية ﴿ وَلَقَدَ . اتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً ﴾ [سبأ: 10] في إشارة إلى ضخامة وجسامة تلك النّعم التّي يسوقها الله لمن يشاء من عباده وليس ذلك لأيّ كان ليبتليهم ويختبرهم ويكون الجزاء بمقدار ضخامة وجسامة تلك النّعم كذلك، وهذا نوع من أنواع الترابط والتناسب بين القصّتين.

الثانية متعلّقة بأحداث القصّة التّي جرى الحديث فيها عن كمال عطاء الله على أهل سبأ بالجنّتين داخل المدينة وتيسير الأسفار خارج المدنية وما جاورها بما توفّر فيها من زاد ومتاع وراحة وأمن، وما أعقب سلوك الجحود والكفر من لدن أهل سبأ من سلب تلك النّعم وحلول النّقم عليهم، فالأحداث كلّها تدور في فلك نعم الله على أهل سبأ.

ولما كانت قصّة سبأ أدلّ ما في السّورة على سياقها العام من بيان قدرة الله وإحاطته وعلمه وحكمته في تصريف شؤون خلقه وابتلائهم بعطائه، ببيان فضل الشّاكر وعاقبة الكافر الجاحد، فإنّها سيقت لتسليط الضّوء على هذه المعاني وتجليتها وتقريبها إلى الأذهان في أسلوب قصصي ماتع، فقصّة سبأ تمثيل لحال من خصّه الله بكمال النّعم فقابلها بالكفر والجحود بعدم إيفاء تلك النّعم حقّها من الشّكر، ممّا عرّضهم للزّوال وانقلاب الأحوال، بحلول عقاب الله عليهم، في مقابل التّمثيل لحال من أنعم الله عليه فشكر ممّا خصّه الله به آل داود عليه السّلام، على أنّ "القصّة تعريض بأشباه سبأ وموعظة للمشركين إذ كانوا في بحبوحة من النّعمة فلمّا جاءهم رسول من المنعِم عليهم يُذكّرهم بربّهم ويوقظهم بأنّهم خاطئون إذ عبدوا غيره، كذّبوه وأعرضوا عن النّظر في دلالة تلك النّعمة على المنعِم المتفرّد بالإلهيّة... فهذه القصّة تمثيل أُمّة بأُمّة، وبلاد بأخرى، وذلك من قياس وعبرة، وهي فائدة تدوين التّاريخ وتقلّبات الأمم كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَاتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾[النحل: 112، 113]"[1]

وبالنّظر إلى جوّ السّورة فإن سورة سبأ مما نزل بمكة بحيث تضمّنت محاجّة المشركين في إبطال قواعد الشّرك لذلك ناسب أن تعرض هذه القصّة موعظة وتذكيرا لهم بما حلّ ببعض الأمم المشركين بأن جعلوا لله شركاء فيما آتاهم وكفروا بالمنعم الخالق، وحذّرهم من مغبّة استمرارهم في عداوتهم وتكذيبهم الرّسول ﷺ بما سيلقونه من العذاب، وتنبيها للمؤمنين أيضا من الوقوع في مصيدة الشّيطان وغوايته ووسوسته، والنّظر في سوء عاقبة من اتّبعوه.

فبمجموع هذه العوامل يمكن القول بأنّ سياق قصّة سبأ كان لو دور مهمّ في إبراز السياق العام للسّورة، وهذا ما يُفسّر ربّما سبب تسمية السّورة بسبأ دون غيرها.

---

(1) – ابن عاشور، التحرير، ج22، ص 165.

المبحث التاسع: قيمة التّضحية في سبيل الله والثّبات على الحقّ

من خلال هذا المبحث يُحاول الباحث إبراز دور السّياق في بيان قيمة التّضحية في سبيل الله باعتبارها مرتبة كبيرة وعظيمة من مراتب الجهاد والثّبات على الحقّ وتحمّل شدائده، من خلال أحداث قصّة أصحاب الأخدود الذين ابتلوا في عقيدتهم وعذّبوا بسبب إيمانهم الصّادق واعتقادهم القدرة والملك الحقيقي لله الواحد الأحد، وتفصيل ذلك في ثلاث مطالب من سياق السّورة والمقطع والقصّة.

المطلب الأول: سياق سورة البروج

سمّيت في المصاحف وكتب السّنة وكتب التفسير «سورة البروج»، لافتتاحيتها بقسم الله تعالى: ب﴿ السَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾[1]، وحكى ابن عطيّة الاتفاق على مكيّتها[2] والسّورة نزلت بعد سورة الشمس وقبل سورة التين[3]

وعن سياق السورة العام فقد اجتهد بعض المفسّرين في بيان مقصودها والأغراض التي تناولتها السّورة، ونعرضها كالتالي:

يقول البقاعي بأنّ سياق السّورة ومقصودها الدّلالة على قدرة الله تعالى في الثّواب والعقاب تسلية لقلوب المؤمنين وتثبيتا لهم على أذى الكافرين[4]

---

(1) – كعباش، نفحات الرحمن، ج14، ص 351.

(2) – ابن عطية، المحرر الوجيز، ج5، ص 460.

(3) – الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 193.

(4) – انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج30، ص 352.

يقول الفخر الرازي أنّ المقصود منها تسلية النبي ﷺ وأصحابه عن إيذاء الكفّار وذلك ببيان الله تعالى أنّ سائر الأمم السّالفة كانوا كذلك مثل أصحاب الأخدود ومثل فرعون ومثل ثمود، وأنّه تعالى محيط بما يفعلون."[1]

ويرى صاحب البحر المحيط أنّ السّورة عظة لقريش وتثبيت لمن يعذبونهم من المؤمنين، وأنّه تعالى محيط بالكافرين وما يجمعون للرسول ﷺ وللمؤمنين من أنواع الأذى، الأمر الذي جعلهم يستحقون اللّعن منه تعالى.[2]

وفي الظّلال نجد أنّ سيد قطب يذكر بأنّ السّورة تعرض حقائق العقيدة، وقواعد التصور الإيماني،مؤكّدا بأنّ الموضوع المباشر الذي تتحدّث عنه السّورة هو حادث أصحاب الأخدود[3]

ويذهب ابن عاشور إلى القول بأنّ مقصود السّورة تثبيت المسلمين وتصبيرهم على أذى المشركين وتذكيرهم بما جرى على سلفهم في الإيمان من شدّة التّعذيب الذي لم ينلهم مثله ولم يصدّهم ذلك عن دينهم. وإشعار المسلمين بأنّ قوّة الله عظيمة فسَيَلقى المشركون جزاء صَنِيعهم ويَلقَى المسلمون النّعيم الأبدي والنّصر.[4]

ويقول صاحب نفحات الرّحمن بأنّ المحور الأساسيّ للسّورة هو إبراز قيمة التّضحية في سبيل الإيمان والعقيدة مُمثّلا في قصّة أصحاب الأخدود.[5]

وبالنظر إلى الأقوال السابقة نجد أنّ أغلب الأقوال متّفقة على أنّ السّياق العام للسّورة يستند إلى أحداث قصّة أصحاب الأخدود الذين عذّبوا حتّى قُتلوا لا لشيء سوى أنّهم ثبتوا على إيمانهم بالله العزيز الحميد، فكانت قصّتهم مثالا للتّضحية في سبيل العقيدة، تسلية للنبيّ ﷺ

---

[1] – انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج31، ص 106.

[2] – انظر: أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ج10، ص 442.

[3] – انظر: سيد قطب، الظّلال، ج30، ص 3871.

[4] – ابن عاشور، التحرير، ج30، ص 236-237.

[5] – كعباش، نفحات الرحمن، ج14، ص 351.

وتثبيتا له ومن معه من المؤمنين ممّا يلاقونه من أذى كفّار قريش، بالإضافة إلى قدرة الله تعالى وعلمه المحيط بكلّ شيء والذي بيده الثّواب والعقاب،

فالسّياق العام للسورة متعلّق بقضيّة عقديّة إيمانية عادلة في مواجهة الشرك والمشركين، صراع الحقّ وما يتطلّبه من جهود وتضحيّات لنصرته على الباطل وفق منهج الله الذي ينصر به أولياءه ويثبّتهم على أعدائه من الكفّار والمشركين.

غير أننّا نلحظ أنّ كمال صفات الله وعنايته وقدرته، استغرق جميع أجزاء السّورة من مقدّمتها التّي افتتحت بالقسم ﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ إلى خاتمتها التّي أشارت إلى علم الله القدسيّ الأزليّ ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ وما بينهما من الآيات التّي تشير إلى صفات الله من خلق السّماوات والأرض والشهيد على ما يجري فيها، والمطّلع على أفعال الخلق، ذو القدرة التّامة على البطش الشّديد، المبدئ المعيد، الغفور الودود، الفعّال لما يُريد، المحيط بأعمال الكافرين، وبيده مصيرهم في الدّنيا والآخرة وسيُجازيهم على تكذيبهم وأذيّتهم لأوليائه المؤمنين؛ هذه الصّفات التّي استغرقت جميع أجزاء السّورة يقودنا إلى القول بأنّ السّياق العام للسّورة هو: أنّ بطش الله تعالى المتّصف بكمال صفات القوّة شديد على الكفّار الظّالمين المعتدين على أوليائه المؤمنين.

وأدلّ شيء على ذلك قصّة أصحاب الأخدود والعبرة منها، وما لها من صلة باسم السّورة البروج، وهو ما أشار إليه ابن عاشور في بيان المناسبة بين القسم والمقسم عليه فقال:" ومناسبة القَسم لما أُقسِم عليه أن المقْسَم عَلَيه تضمّن العبرة بقصّة أصحاب الأخدود ولما كانت الأخاديد خطوطا مجعولة في الأرض مستعرة بالنّار أَقسم على ما تضمّنها بالسّماء بقيد صفة من صفاتها التي يلوح فيها للنّاظرين في نجومها ما سمّاه العرب بُروجا وهي تشبه دارات متلألئة بأنوار النجوم اللامعة الشبيهة بتلهب النار."[1]

---

[1] – ابن عاشور، التحرير، ج30، ص 237.

والسّياق بهذا المعنى الذّي أوردناه متضمّن لعلم الله وتسلية للرّسول ﷺ ومن معه من المؤمنين بالصّبر على أذى المشركين والثّبات على الحقّ.

المطلب الثاني: سياق المقطع

أوّلا: عرض أحداث القصّة

ورد خبر أصحاب الأخدود في القرآن الكريم مرّة واحدة في سورة البروج في خمس آيات من الآية 4 إلى الآية 9 مفادها أنّ قوما من الطّغاة المتجبّرين أمروا بشق أخدود في الأرض وإضرام النّار فيها وجعلها مستعرة بحيث لا يخمد لهيبها لتهديد المؤمنين بإلقائهم فيها إن لم يرجعوا عن دينهم "وقد صوّر الله شدّة قلوبهم وإمعانهم في الإذاية والمكر فذكر ثلاثة أمور:

أ -أنّهم أمروا بتوفير الوقود لتلك النّار إمعانا في التّخويف والتّرهيب.

ب -اتّخذوا لأنفسهم مقاعد حول النّار ليتلذّذوا بمنظر الإحراق.

ج -كانوا يشهدون ذلك الإجرام الفظيع تشفيّا بأولئك المؤمنين الذين ثبتوا على إيمانهم فضحّوا بأرواحهم في سبيله."[1]

ثانيا: علاقتها بسباقها ولحاقها

الآيات التي تحدّثت عن أصحاب الأخدود مُهّد لها بالقسم في قوله تعالى:﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ حيث كان القسم بالسّماء ومنازل البروج فيها واليوم الآخر وشاهد ومشهود، وقد اختلف في تفسير الأخيرين فقيل هما يوم الجمعة ويوم عرفة، وقيل الله تعالى هو الشاهد والمشهود الناس المحشورون للحساب، وقيل غير ذلك، وأيّا كان الأمر فإنّ هذا القسم "يُلقي بظلال الاهتمام والاحتفال والاحتشاد والضخامة على الجو الذي يَعرض فيه بعد ذلك حادث الأخدود، كما توحي بالمجال الواسع الشامل الذي يوضع فيه هذا

(1) – كعباش، نفحات الرحمن، ج14، ص 355.

الحادث، وتوزن فيه حقيقته ويصفّى فيه حسابه، وهو أكبر من مجال الأرض، وأبعد من مدى الحياة الدنيا وأجلها المحدود."[1]فسباق الآية يشير إلى خطورة وأهميّة ما تحمله قصّة أصحاب الأخدود من معان وعبر في أسلوب تشويقيّ مُفعم بالضّخامة والجسامة والجسارة بحيث يشدّ السّامعين إلى تطلّب بيانه، وتهيئته لتلقّي الخطاب.

وعن لحاق القصّة فقد كان تعقيبا لأحداثها وكأنّ القارئ يتشوّف إلى معرفة مصير هؤلاء وهؤلاء، فجاءت الآيات اللاحقة لتبيّن الجزاء الذي ينتظر الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات في دينهم وجزاء المفتونين ﴿ إِنَّ الذِينَ فَتَنُوا الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ فالله تعالى عادل ومن مُقتضى عدله أن يُجازي الظّالم المصرّ على ظلمه بالوعيد الأليم، وعذاب الحريق، ويُثيب المؤمن الصّابر المحتسب على إيمانه وثباته بالنّعيم المقيم والفوز الكبير، فهذه هي الخاتمة العادلة في ميزان الحقّ سبحانه وتعالى، فمخالفة منهج الله يكون له لون من الجزاء الدّنيوي ولون من الجزاء الأُخرويّ.

ثالثا: تحليل أحداث القصّة

تبدأ أحداث القصّة بحكم من الله تعالى على قوم باللّعن والطّرد من رحمته[2] وسمّى هؤلاء القوم بأصحاب الأخدود:﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ﴾ والبداية بهذا الحكم يجعل القارئ يتساءل عن الأمر الجلل الذّي أقدم عليه هؤلاء، عن السّبب الخفيّ، عن ذلك السّلوك وتلك المعصيّة، فيأتي الجواب في سياق الآيات التالية من قوله تعالى: ﴿ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُومِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمُ إِلاَّ أَنْ يُّومِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ حيث كان من فعلهم أنّهم عمدوا إلى شقّ أخدود في الأرض وأضرموا فيه نارا مستعرة

(1) – سيد قطب، الظلال، ج30، ص 3873.

(2) – انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، ج5، ص 461.

لا تنطفئ، لإلقاء كلّ من خالفهم في عقيدتهم وآمن بالله الواحد، دون رحمة وأدنى إنسانية، في أفظع وأشنع سلوك وأحطّ مرتبة يصل إليها الجنس البشري بأن يرى من يُقاسمه سمات البشريّة يُعذّب ويُلقى في النّار بتلك الطّريقة ولا يلين قلبه ولا تتحرّك جوانبه لإيقاف هذا المنكر فالجميع كان حاضرا أو مُحضرا رُغما عنه يشاهدون المنكر ولا ينطقون بكلمة توقف هذا الفعل الذي لا مُبرّر له سوى أنّ المؤمنين كان لهم موقف الثّبات على عقيدة التّوحيد، فالذي يصدر منه مثل هذا السّلوك أقلّ ما يُقال عنه أنّه طاغية ظالم مُستبدّ، والله لا يُحبّ الظّالمين.

لذلك جاء في سياق آيات اللّحاق ما يُبيّن قوّة وقدرة الله تعالى على وضع حدّ للظّلمة فالله بالمرصاد لكلّ من تسوّل له نفسه الإفساد في الأرض والقاهر فوق عباده ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ۝ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۝ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ويبيّن السّياق تأكيدا على ذلك بمثل ودليل معلوم عند المخاطبين لمصير أقوام عُرفوا بالقوّة والظّلم والطّغيان والفساد وتكذيب المرسلين﴿ هَلَ اَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۝ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝ بَلِ الذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۝ وَاللَّهُ مِنْ وَّرَآئِهِم مُّحِيطٌ﴾ مثل فرعون الذّي ذكر الله تعالى جانبا من طغيانه وظلمه في القصص فقال: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الاَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمُ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: 4] وقوم ثمود الذين عُرفوا بالفساد وتكذيب المرسلين كما قال تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الاَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ ۝ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مُهْلَكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمُ إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمُ أَجْمَعِينَ(51) ﴾ [النمل: 48-51] .

فالقاسم المشترك بين فرعون وقوم ثمود أنّهم كانوا رمزا للفساد والطّغيان، وإن كان فرعون قد ذُكر لوحده إلّا أنّ قومه اتّبعوه وأطاعوه وسايروه في الفساد والطّغيان والاستعباد، وقوم ثمود أجمعوا واتّفقت كلمتهم على الفساد قولا وفعلا، وربّما كان المغزى من ذكر فرعون أنّه سيق كمثل للملك الذّي أمر بالأخدود وحرق أولئك المؤمنين، وثمود كمثل للجماعة التّي كانت

تحت إمرة ذلك الملك شاهدين على فساده وطغيانه، ومعينوه بالسّكوت والطّاعة والخضوع، فهم مشتركون جميعا في الجُرم، وفي ذلك إشارة إلى خطورة عدم تفعيل قاعدة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والله أعلم.

أمّا عن المصير "فقد أهلك الله فرعون وجنده ونجّى بني إسرائيل ومكّن لهم في الأرض فترة، ليحقّق بهم قدراً من قدره، وإرادة من إرادته، وثمود الذين أهلكهم الله عن بكرة أبيهم وأنجى صالحاً والقلّة معه حيث لم يكن بعد ذلك مُلك ولا تمكين، إنّما هي مجرّد النّجاة من القوم الفاسقين، وهما نموذجان لفعل الإرادة، وتوجّه المشيئة، وصورتان من صور الدّعوة إلى الله واحتمالاتها المتوقعة، إلى جانب الاحتمال الثالث الذي وقع في حادث الأخدود، وكلّها يعرضها القرآن للقلّة المؤمنة في مكّة، ولكلّ جيل من أجيال المؤمنين."[1]

هذه الآيات التّي وردت في سياق بيان قدرة الله تعالى وقوّته وبطشه سبقتها الآيات التّي تحدّثت عن الجزاء الأخرويّ المترتّب عن تلك الأفعال لأصحاب الأخدود ﴿ إِنَّ الذِينَ فَتَنُوا الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ وفيه تهديد لمشركي قريش الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات وتعريض لهم إن هم تابوا وآمنوا فقد ترك الله لهم فُسحة من الأمل إن هم كفّوا ألسنتهم وأيديهم عن ذلك فقد سلموا من عذاب جهنّم، وتسلية للرّسول ﷺ والمؤمنين بالصّبر والتّضحية والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحقّ وإلى هذا يشير ابن عاشور من خلال بيان بلاغة ترتيب الآيات، يقول: "وجملة ﴿إنّ الذين آمنوا﴾ يجوز أن تكون اعتراضا بين جملة ﴿ إِنَّ الذِينَ فَتَنُوا ﴾ وجملة ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ اعتراضا بالبشارة في خلال الإنذار لترغيب المنذرين في الإيمان، ولتثبيت المؤمنين على ما يلاقونه من أذى المشركين على عادة القرآن في إرداف الإرهاب بالترغيب."[2] وقد كان تثبيت المؤمنين هدفا من أهداف القصّة

---

(1) – سيد قطب، الظلال، ج30، ص 3876.

(2) – ابن عاشور، التحرير، ج30، ص 245-246.

بالإضافة إلى ما تضمّنته من سلوك الطّغاة اتّجاه المؤمنين من تعذيب وقتل واتّجاه الرّسالة من إعراض وتكذيب، وبيان للجزاء الدنيويّ والأُخرويّ المترتّب عن ذلك للمؤمنين والكافرين المكذّبين.

المطلب الثالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة

قصّة أصحاب الأخدود بالرّغم من أنّها ذُكرت في السّورة في ستّ آيات فقط إلاّ أنّها شغلت حيّزا معتبرا من السّورة مع سباقها ولحاقها ممّا جعلها شديدة الصّلة بالسّياق العام للسّورة، فسياق القصّة تمثّل في إبراز قيمة التّضحية في سبيل الله وأنّها مرتبة كبيرة وعظيمة من مراتب الجهاد والثّبات على الحقّ وتحمّل شدائده، فقد كان التّعذيب النّفسي والجسدي والإحراق بالنّار من الشّدائد التّي تحمّلها المؤمنون الذين أُلقوا في الأُخدود بسبب إيمانهم الصّادق واعتقادهم القدرة والملك الحقيقي لله الواحد الأحد، فقد كانت تلك النّزعة الإيمانية المتينة الفارق بين صبر المؤمنين وظلم الكافرين، والله شاهد على ذلك وكفى بالله شهيدا فليس بعد كلام الله في أصحاب الأخدود حقيقة أخرى، لأنّه تعالى يقصّ الحقّ وهو خير الفاصلين وفي ذلك تسلية للرّسول ﷺ وتثبيت له ولمن معه من المؤمنين بالصّبر على أذيّة المشركين المكذّبين لرسالة الإسلام وليعلموا بأنّ ذلك من الجهاد في سبيل الحقّ، وأنّ من السّابقين من الأمم عُذّبوا بالنّار ولم يَمنعهم ذلك أن يرجعوا عن دينهم، "فالله تعالى أعلم بما يُجمع الكفّار للرسول ﷺ وللمؤمنين من المكر، والخداع، وإذاية من أسلم بأنواع من الأذى، كالضّرب، والقتل، والصّلب، والحرق بالشّمس، وإحماء الصّخر ووضع أجساد من يريدون أن يفتنوه عليه."[1] وهو الذّي يتولاّهم بحفظه ورعايته المتّصف بكمال صفات القوّة، القادر على أخذ الكفّار الظّالمين المعتدين على أوليائه المؤمنين أخذ عزيز مُقتدر، وفي اليوم الموعود يُجازيهم الجزاء الأوفى مثلما أشارت الآيات إلى ذلك.

(1) - أبو حيان، البحر المحيط في التّفسير، ج10، ص 442.

فالمعاني التّي أظهرتها قصّة أصحاب الأخدود كانت حاضرة في السّورة كلّها لأنّها الموضوع المباشر الذّي تحدّثت عنه السّورة كما نوّه إلى ذلك سيّد قطب، وتعتبر أدلّ ما فيها على سياقها، وإبرازه وتجليته في قالب قصصي مشوّق ماتع أدعى إلى الفهم والاستيعاب والاستحضار في كلّ زمان ومكان، شأنها في ذلك شأن القصص القرآني في عبره وعظاته.

المبحث العاشر: رعاية الله لبيته المقدّس

من خلال هذا المبحث يُحاول الباحث إبراز دور السّــياق في بيان قدرة الله تعالى في إنفاذ قوّته على الطّغاة الذين يكيدون لرسالة الإسلام وحامله، من خلال قصّة أصحاب الفيل التّي تُفصّــل أيضــا معاني رعاية الله تعالى لبيته المقدّس وحفظه، وردّ كيد كلّ من تسـوّل له نفســه المســـاس به، مثلما حماها من أبرهة وردّ كيده بجند من جنوده، وبكيفيّة خارقة للعادة لا يستطيعها أحد إلاّ هو سبحانه.

المطلب الأول: تقدمة للقصّة والسّورة

وردت قصّة أصحاب الفيل في سورة الفيل التّي عرفت بهذه التّسمية في جميع المصاحف وكتب التّفسير[1] وهي مكّية بإجماع الرّواة،[2] وقصّة الفيل من القصص التّي لم يتكرّر ذكرها في القرآن الكريم وذلك لوجهين:

الأول: أن إهلاك أصحاب الفيل لم يكن لأجل تكذيب رسول من الله.

ثانيهما: أن لا يتخذ منه المشركون غرورا بمكانة لهم عند الله كغرورهم بقولهم المحكي في قوله تعالى:﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَآجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنَ ـ امَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ ﴾ [التوبة: 19] الآية وقوله: ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَآءَهُ إِنَ اَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: 34][3]

علاقتها بسباقها ولحاقها:

ذكر أبو جعفر في مناسبة هذه السورة بما قبلها من سورة الهمزة أنّ الله تعالى ذكر في الهمزة حال من اغترّ بماله حتى ظنّ أنّه يخلده، وما أعقبه ذلك أتبعه بذكر من أهلكه الله واستأصل

---

(1) - ابن عاشور، التحرير، ج30، ص 543.

(2) - ابن عطية، المحرر الوجيز، ج5، ص 523.

(3) - ابن عاشور، التحرير، ج30، ص 544.

دابرهم من أصحاب الفيل الذين غرّهم تكاثرهم وخدعهم امتدادهم في البلاد واستيلاؤهم حتى هموا بهدم البيت المكرم فتعجّلوا النقمة.[1]

ربط أبو حيان علاقة سورة الفيل بما قبلها في الهمزة من حيث الموضوع فقال بأنّ الله تعالى لمّا ذكر فيما قبلها عذاب الكفّار في الآخرة، أخبر هنا بعذاب ناس منهم في الدّنيا[2]

أمّا الألوسي فقد بيّن المناسبة في نتيجة الأفعال وعاقبتها بين الكيد الذي تضمّن الهمز واللمز من الكفرة للرّسول ﷺ وكيد أصحاب الفيل بهدم الكعبة، إلى أنّ عقبى كيدهم في الدنيا تدميرهم فإن عناية الله عز وجل برسوله ﷺ أقوى وأتمّ من عنايته سبحانه بالبيت، فالسّورة مشيرة إلى مآلهم في الدنيا إثر بيان مآلهم في الأخرى، ويجوز أن تكون كالاستدلال على ما أشير إليه فيما قبلها من أن المال لا يغني من الله تعالى شيئا، أو على قدرته عز وجل على إنفاذ ما توعد به أولئك الكفرة في قوله سبحانه لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ [الهمزة: 4] إلخ.[3]

فعلاقة السّورة بلحاقها تُشير إلى سلوك كفّار قريش اتّجاه شخص الرّسول ﷺ من الكيد له بالهمز واللّمز واتّجاه رسالة الإسلام وما يكيدون لها بالوقوف في وجهها بما لهم من المال والقوّة والسّلطة التّي لم تُغن من هم أشدّ منهم قوّة عن ردّ جند من جنود الله.

أمّا من حيث اللّحاق فهي ظاهرة من حيث بيان فضل الله ومنّته على قريش حيث اتبع منّة إهلاك العدوّ وحماية البيت بمنّة الإطعام والأمن من الخوف مثلما ذهب إلى ذلك سيد قطب وقال بأنّ سورة قريش امتداد لسورة الفيل من ناحية موضوعها وجوّها الذي تمحور حول منّة الله تعالى على قريش بنعمة الأمن من الخوف بعد أن حفظ الله للبيت أمنه وصان حرمته من كلّ اعتداء، ومنّة إيلافهم رحلتي الشّتاء والصّيف منّة الرّزق الذّي أفاضه عليهم بهاتين الرّحلتين.[4] ويضيف صاحب نفحات الرحمن مناسبة أخرى من حيث المبنى وذلك بأنّ الجار

---

[1]- انظر: ابن الزبير الغرناطي، البرهان في تناسب سور القرآن، ج1، ص 377.

[2]- أبو حيان، البحر المحيط، ج10، ص 543.

[3]- الألوسي، روح المعاني، ج15، ص 464.

[4]- انظر: سيد قطب، الظلال، ج30، ص 3982-3983.

والمجرور في أوّل سورة قريش متعلق بآخر سورة الفيل: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾، وتتضمّن أمر الله لقريش بتوحيده وإخلاص العبادة له، شكرا لما أنعم عليهم من الأمن والشّبع، وجمع شملهم، وأعلى قدرهم، لكونهم سدنة بيته.(1)

المطلب الثاني: عرض أحداث القصّة

يذكر النصّ القرآني بأنّ جماعة هم أصحاب الفيل، أرجعهم الله في كيدهم خائبين ضائعين، حيث أرسل عليهم أسراباً متتابعة من الطّيور تُلقي عليهم حجارة مُحرقة مُهلكة للبدن، فأصبحت أجسادهم مثل الزّرع الذي أكلته الدّواب وراثته وداست عليه.

هذا مُختصر ما جاء في القصّة وقد وردت فيها روايات كثيرة توثّق للحادثة تفصيلا في أحداثها وشخصيّاتها ونختار هنا ما اختاره صاحب نفحات الرحمن من كلام الدكتور شوقي أبو خليل حيث يقول: "بأنّ أصحاب الفيل هم جيش أبرهة بن الأشرم الحبشي الذي حكم اليمن بعد يوسف ذي نواس، سار سنة: 571م العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ إلى مكة المكرمة لهدم الكعبة ليصرف العرب عنها إلى كنيسة "القلّيس" التي بناها بصنعاء. وكان على رأس هذا الجيش فِيَلَة يتقدّمها فيل كبير عظيم، وتذكر الرّواية أن أبرهة حينما تهيّأ لدخول مكة المكرمة وأعدّ هذا الفيل الكبير الضّخم للسّير برك الفيل فعالجوه ليقوم، فلم يستطيعوا إليه سبيلا فوجّهوه قِبل الشّام فهرول، ووجّهوه قِبل اليمن ففعل، أمّا إلى الكعبة فلا.

وقُرب مكة المكرمة نهب أبرهة وجيشه أموال العرب، وكان فيها إبل لعبد المطلب بن هاشم جدّ رسول الله، فطلبها عبد المطلب من أبرهة فتعجّب أبرهة وقال: أتكلّمني في مئتي بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه؟، فقال له عبد المطلب: إني أنا ربّ الإبل، وإنّ للبيت ربّا سيمنعه منك. وأرسل الله سبحانه وتعالى (طَيْرًا أَبَابِيلَ)، جماعات بعضها إثر بعض، (تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ)، طين متحجّرة، فجعلهم

(1)- كعباش، نفحات الرحمن، ج14، ص 495.

(كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ)، أي ورق الزّرع بعد الحصاد، يسمّى بذلك لأن الرّيح تعصف به متفرّقة ذات اليمين وذات الشّمال".[1]

المطلب الثالث: تحليل أحداث القصّة

تبدأ القصّة بسؤال تقريري للنبيّ ﷺ استُعمل هنا مجازا في التّكريم إشارة إلى أنّ ذلك كان إرهاصا للنبيء ﷺ فيكون من باب قوله:﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ [البلد: 1، 2]، وفيه مع ذلك تعريض بكفران قريش نعمة عظيمة من نعم الله عليهم إذ لم يزالوا يعبدون غيره."[2]فالحادثة تذكير لكفّار قريش بانحرافهم عن المنهج الصّحيح ودحض فِرية اتّباع سيرة الأجداد التّي يفتخرون بها في مناسبات عديدة، فعبد المطّلب نطق بالحقّ لما قال بأنّ للكعبة ربّا يحميها فهي من الأمور المعلومة عندهم إلاّ أنّ الحسد وما صاحبه من الاعتبارات الاجتماعية الأخرى من المكانة والسّيادة والسّلطة جعلتهم يصرفون نظرهم عن الحقّ مثلما كان من فعل أبرهة الذّي تروي عنه الكتب أنّه قرّر هدم الكعبة بدافع الحسد وصرف النّاس عنها إلى كنيسته "القلّيس" فهم في الفعل سواء والله يُذكّرهم بقدرته على أن يفعل بهم ما فعل بأبرهة وجنده إن استمرّوا في التّكذيب والاعراض والإيذاء لمحمّد النّور الخالد الذّي وُلد في زمان تلك الحادثة وذلك من الإرهاصات، فإنّ المساس به وبرسالته مساس بالكعبة المشرّفة، "وفي ذلك تثبيت للرّسول ﷺ وطمأنة له بأنّ الذي دفع كيد من يكيد لبيته لأحقّ بأن يدفع كيد من يكيد لرسوله ﷺ ودينه[3]

أحداث القصّــة جاءت في ســياق متســارع، وحركة مســتمرّة، حتّى لا نكاد نجد بينها انقطاعا، واختيار ألفاظها الذّي تميّز بطابع الإعجاز والتفرّد للقصّة ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّـكَ

---

(1) - انظر: كعباش، نفحات الرحمن، ج14، ص 492-493. وانظر: شــوقي أبو خليل، أطلس القرآن، دار الفكر- بيروت- ط: 16، 1435هـ، 2014م، ص154.

(2) - ابن عاشور، التحرير، ج30، ص 544-545.

(3) - ابن عاشور، التحرير، ج30، ص 544.

بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾، وهذا ما نجده في ألفاظ لها دلالات مميّزة في القصّة "فإيثار كيف للدلالة على حالة عجيبة يستحضرها من يعلم تفصيل القصة، وأوثر لفظ فعل ربك دون غيره لأن مدلول هذا الفعل يعم أعمالا كثيرة لا يدل عليها غيره.[1]

واستعمال مثل هذه الألفاظ يجعل القارئ يتطلّع ويتشوّف لمعرفة الأحداث العجيبة في أصحاب الفيل التّي يجد بيانها في سياق الآيات اللّاحقة:﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ فهذه الآيات تفصّل ما كان من الإجمال في الآية السّابقة ببيان تفصيلات الأحداث المهمّة التّي نلحظ فيها قدرة الله تعالى على التصرّف والتّدبير في شؤون خلقه من خلال المشاهد الحركيّة السّريعة في القصّة المتمثّلة فيما يلي:

. جعل الله كيدهم في تضليل بحيث أضلّهم من حيث أرادوا الكيد وتهديم الكعبة بتبييتهم الأمر وعزمهم عليه ورصد كلّ مالهم من سلطة وقوّة فأهلكهم الله وأبادهم.

ـ أرسل عليهم طيرا أبابيل، والطّير الأبابيل جماعات أو أسرابا من الطّير، وقد يُعرف الطّير عند البشر ببنيته الخلقيّة الضّعيفة، لكنّها في القصّة عُرفت بأنّها جند من جنود الله، ولما تتّصل بهذه الصّفة فإنّنا نشهد أمرا مُعجزا من قبيل إهلاك أبرهة وجنده وفيلته بإلقاء حجر صلب كل حجر فوق حبّة العدس ودون حبّة الحمص فكان الحجر منها يقتل المرمي وتتهرى لحومهم جذريا، وأسقاما[2] ،فأن يُحدث حجر بضآلة حجمه كلّ هذا الأمر من اختراق للجسد وإهلاك صاحبه بالأسقام لمن الأمور المثيرة المدهشة.

–جعلهم كعصف ماكول، فقد شبّه الله حالة تقطّع أوصالهم بتفرق أجزاءَ الرّوث فالعصف المأكول هو التّبْن الذّي تأكله الدوّاب ويخرج من بطونها روثاً"[3] وهذا التّمثيل البديع يعطينا

---

[1] - ابن عاشور، المرجع نفسه، ج30، ص 545.

[2] - ابن عطية، المحرر الوجيز، ج5، ص 523.

[3] - انظر: امحمد اطفيّش، تيسير التّفسير، ج13، ص 49.

أكثر من دلالة على قدرة الله تعالى وقوّته وأنّه بالمرصـاد لكلّ من تُسـوّل له نفسه المسـاس بمقدّسـات الدّين وأماكن العبادة وتكون نهايته على نحو ما ذُكر من الذلّة والمهانة في هذا التّمثيل " النّهاية القذرة للعصـف المأكول التّي تتمثّل في كونها عيّنة مادّية ملفوظة إلى الخارج، والنّهاية القذرة لأعداء الله تتمثّل في كونها ظاهرة نفسيّة أوّلا هي: محاربة الله، وهل هناك أشدّ قذارة من محاربة الإنسـان لمبدعه؟ وتتمثّل ثانيا في انعكاس القذارة النّفسـيّة على القذارة الجسديّة بحيث تتحوّل إلى لحوم قذرة ذات رائحة كريهة ومنظر قبيح مشوّه يتناثر هنا وهناك ...إنّ الدلالة الفكريّة لهذه الصّورة تحدّد بوضوح أنّ الطّغاة –في أيّ زمان ومكان قديما وحديثا– سيلفُّهم مثل هذا المصير القذر عاجلا أم آجلا ما داموا نصّبوا أنفسهم لمحاربة الله ورسالة الإسلام وأحبّاء الله."[1]

هذه الأحداث المعجزة الخارجة عن مألوف البشر وما صاحبه من ملابسات بكلّ أجزائه وتفاصيله جعلت سيد قطب يميل إلى القول بأنّ الحادث جرى على أساس الخارقة غير المعهودة ثمّ ذكر العبرة من القصّة فقال بأنّ الله سبحانه كان يريد بهذا البيت أمراً، كان يريد أن يحفظه ليكون مثابة للنّاس وأمناً، وليكون نقطة تَجَمُّع للعقيدة الجديدة تزحف منه حرّة طليقة في أرض حرّة طليقة، لا يهيمن عليها أحد من خارجها، ولا تسيطر عليها حكومة قاهرة تحاصر الدعوة في محضنها، ويجعل هذا الحادث عبرة ظاهرة مكشوفة لجميع الأنظار في جميع الأجيال حتّى لَيَمْتَنُّ بها على قريش بعد البعثة في هذه السّورة، ويضربها مثلاً لرعاية الله لحرماته وغيرته عليها[2]

إذا فأحداث القصّة اصطبغت بطابع الإعجاز وتدخّل القدرة الإلهية لوضع حدّ لكلّ من يكيد لبيته ويرصد قوّته وسلطته لصرف الخلق عنه، ليكون عبرة لمن يعتبر، ونعلم علم اليقين أنّه تعالى حمى البيت بقوّته وقدرته لا بفعل الأصنام التّي لا تنفع ولا تضرّ.

---

(1) – انظر: محمود البستاني، دراسات فنية في قصص القرآن، ص 741.

(2) – انظر: سيد قطب، الظّلال، ج30، ص 3977.

المطلب الرابع: سياق القصّة

من خلال ما مرّ بنا من أحداث القصّة نلحظ في سياقها عظيم رعاية الله تعالى لبيته المقدّس وقد ردّ كيد من سوّلت له نفسه تهديمه بجند من جنوده وبكيفيّة خارقة للعادة لا يستطيعها أحد إلاّ هو سبحانه ليُقرّر أمرا "بأنّ هذه البقعة المقدّسة اختارها لتكون ملتقى النّور الأخير، ومحضن العقيدة الجديدة، والنّقطة التي تبدأ منها زحفها المقدّس لمطاردة الجاهليّة في أرجاء الأرض، وإقرار الهدى والحقّ والخير فيها.[1] إرهاصا بقدوم ذلك النّور الخالد محمّد عليه الصّلاة والسّلام بتوافق الحدث مع ميلاده عليه أزكى الصّلاة والتّسليم، ومن جهة أخرى فهي تتوجّه إلى كفّار قريش بالنّذارة والاعتبار وعدم الاغترار بقوّتهم وعددهم فقد أهلك من هو أشدّ منهم قوّة وأكثر جمعا، وطمأنة لخواطر المؤمنين بأنّه تعالى حافظهم من كيدهم إن لم يتوقّفوا عن إذايتهم.[2]

بالإضافة إلى ما سبق ذكره وتأكيدا وزيادة عليه يمكن القول بأنّ سياق القصّة متعلّق بقدرة الله تعالى على إنفاذ قوّته على الطّغاة الذين يكيدون لرسالة الإسلام وحامله، وذلك استنادا إلى الدّلالات الآتية:

. التّذكير بحادثة مستفيضة الشّهرة لدى العرب عنوانها أنّ للبيت ربّا يحميه.

. الألفاظ المتعلّقة بالقصّة التّي تشير إلى التعجّب من الفعل وكيفيّة انتقام الله ممّن سوّلت له نفسه المساس ببيته المحرّم مثل: ألم تر كيف فعل ربّك، باختيار أداة الاستفهام والتعجّب "كيف" دون غيرها مثل: ألم تر ما فعل ربّك، وما تبعها من الألفاظ الأخرى مثل: ألم يجعل، وأرسل، فجعلهم.

---

(1) - انظر: سيد قطب، الظّلال، ج30، ص 3974.

(2) - يشير إلى هذه المعاني كلّ من: ابن عاشور، التحرير، ج30، ص 544، بيوض إبراهيم، في رحاب القرآن، ج28، ص 269، كعباش، نفحات الرحمن، ج14، ص 491.

. الجوّ العام الذي نزلت فيه السّورة وتألّب كفّار قريش على أذيّة الرّسول ﷺ وتكذيبه ومُحاولة صرفه عن الدّعوة إلى التّوحيد، ومساومته في ذلك ظنّا منهم بأنّ رسالته ستُفقد هيبتهم بين القبائل على أنّهم سدنة البيت؛ وقد بيّن الله تعالى من خلالها عجز قريش والآلة البشريّة عن حماية البيت المقدّس من كلّ مكروه قد يُصيبه وأنّه تعالى الغالب على أمره.

خلاصة الفصل:

بعد أن عرضنا للمعاني التّي كان للسّياق أثر في بيانها من خلال آيات القصص يتبيّن لنا بأنّ القضايا العقدية المعالجة في القصص القرآني متعدّدة الجوانب من إثبات وحدانية الله تعالى، وإثبات الوحي والنبوءة للرّسول ﷺ والردّ على شبهات ودعاوى المشركين والكفّار مثلما مرّ بنا في قصّة مريم وعيسى عليهما السّلام من نفي الألوهية عن عيسى وتنزيه أمّه عن كلّ منقصة، وإثبات البعث والحشر والجزاء والمصير، من خلال أحداث قصص بقرة بني إسرائيل والذي مرّ على قرية، والإيمان بالقضاء والقدر، وابتلاء الله لعباده في جميع أحوالهم، وبيان عاقبة التنصّل من أوامر الله والتّحايل عليها، وغيرها من القضايا العقدية المتّصلة بالقصص محلّ الدّراسة في هذا الفصل.

وبذلك نكون قد عرفنا الجانب العقدي في قصص غير الأنبياء، ونتطلّع إلى معرفة المعاني المتعلّقة بالجانب الدّعوي في الفصل الموالي.

الفصل الثالث: أثر السّياق في بيان المعاني المتعلّقة بالجانب الدّعوي في القصص

وفيه تمهيد وعدّة مباحث:

- ✓ المبحث الأوّل: دعوة الله تعالى إلى الجهاد في سبيله
- ✓ المبحث الثاني: متطلّبات الجهاد والصّبر عليه
- ✓ المبحث الثالث: السّعي لنشر الدّعوة والابتلاء بالملك
- ✓ المبحث الرابع: أسلوب الدّعوة ومضمونها
- ✓ المبحث الخامس: مجادلة الرّسل وثواب تأييد دعوتهم
- ✓ المبحث السادس: تأييد دعوة الرّسل بالموعظة

تمهيد:

مفهوم الجانب الدعوي في القصص:

القصص القرآني يعتبر ركنا من أركان الدعوة الإسلامية، يستعين به الدّاعية في دعوته لتبسيط مفاهيم دينيّة عقديّة إيمانية أو أخلاقيّة أو تربويّة، أو اجتماعيّة أو حضاريّة أو غيرها من المفاهيم التّي يسعى إلى إيصالها للمتلقّي بأسلوب سلسل تستوعبه جميع فئات المجتمع بمختلف مستوياتها الإدراكيّة، فللقصّة القرآنيّة تأثير نفسي عميق وهيمنة على القلوب، تمسّ العواطف وتسيطر على العقل والفكر وتسعى لتحقيق أغراض دينيّة بحته تُساق في نطاق أحداث القصّة ولا نكاد نشعر بانقطاع في أحداثها أو عدم انسجام في معانيها أو حتّى أنّها أُقحمت إقحاما، وهذا ما تتميّز به القصّة القرآنيّة عن أنواع القصص الأخرى.

لذلك فإنّ الدّاعي إلى الحقّ يلزمه بالضّرورة أن يستند إلى هذا القصص باعتباره تراثا ضخما صادقا للتعرّف على ماضي الأمم وسنّة الله فيها، لأنّ القرآن الكريم استخدم القصّة كوسيلة من وسائل تبليغ الدّعوة ووظّفها توظيفًا دينيًا يتّفق وغاياته السّامية فموضوع الدّعوة متعلّق برسالة الإسلام التّي تشمل جميع مناحي الحياة من شريعة وعقيدة وأخلاق ومعاملات.

تعريف الدّعوة:

تُعرّف الدّعوة بأنّها: "حثّ النّاس على الخير والهُدى، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل، وهي ثلاثة أنواع:

أوّلا: وهو الواجب على الأمّة المحمديّة بدعوة الأمم إلى الإسلام بمقتضى الخيريّة التّي وصفهم الله تعالى بها، فإن أجابوا فالواجب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

ثانيا: دعوة المسلمين بعضهم بعضا إلى الخير وتآمرهم فيما بينهم بالمعروف وتناهيهم عن المنكر.

ثالثا: ما يكون بين الأفراد بعضهم مع بعض ويستوي في ذلك الخاصّة والعامّة بالدّلالة على الخير والتّرغيب فيه والنّهي عن الشرّ والتّحذير منه، والتّواصي بالخير والتّواصي بالصّبر.[1]

ونخلص ممّا سبق بأنّ الدّعوة موضوعها الإسلام وتطبيق تعاليمه، أمّا وسائل التّرغيب إليه والتّعريف به فمتعدّدة تجمعها قاعدة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وتذكير النّاس بواجباتهم العباديّة وإرشادهم إلى السّلوك السّليم بالحثّ على الأخلاق الحسنة واجتناب الأخلاق السيّئة، وقد بيّن الله لنا في القرآن الكريم نماذج لدُعاة كان لهم إسهام في تبليغ رسالة الحقّ للنّاس وتطبيق شرع الله في مختلف المستويات والمجالات والسّعي لتحقيق سعادة الدّارين، وفي مُقدّمتهم الرّسل والأنبياء الذين اصطفاهم الله تعالى لهذه المهمّة النّبيلة الشّاقة، ونماذج لشخصيات صالحة مُصلحة تسعى لنشر الخير، وتبليغه للنّاس، مثل نموذج لقمان الحكيم في دعوة ابنه إلى مكارم الأخلاق، والدّعوة العمليّة الحركيّة التّي مارسها ذي القرنين في سبيل نشر العدل والأخذ بأسباب التّمكين لدين الله، والدّعوة التي مارسها مؤمن آل فرعون في قومه، وغيرها من النّماذج التّي سنتناولها بالدّراسة في مباحث هذا الفصل.

---

(1) - علي محفوظ، **هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة**، دار الاعتصام، ط: 9، 1399هـ – 1979م، ص 17-18.

المبحث الأوّل: دعوة الله تعالى إلى الجهاد في سبيله

في هذا المبحث يحاول الباحث إبراز معاني متعلّقة بدعوة الله تعالى عباده إلى الجهاد في سبيله والإقدام عليه دون خوف من قتل أو موت لأنّه بيده الموت والحياة من خلال قصّة القوم الذين خرجوا من ديارهم فرارا من الموت ودراستها وفق محاور النظريّة السّياقية ببيان سياق السورة وإبراز المحور العام لسورة البقرة ثم دراسة معاني ألفاظ القصّة وعلاقتها بسباقها ولحاقها والحديث عن سياق المقطع وإبراز علاقته بسياق السّورة.

المطلب الأوّل: سياق المقطع

أولا: عرض أحداث القصة

وردت قصّة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 243]، وهؤلاء قوم يعدّون بالآلاف حيث ذكر الله تعالى من حالهم أنّهم تركوا ديارهم وممتلكاتهم فرارا من الموت الذي كانوا ربّما يعرفون بعضا من أسبابه وعاينوه كالأمراض والأسقام، والأوبئة، أو قتال عدوّ يتربّص بهم، فتحقّقت فيهم إرادة الله في إماتتهم ثمّ أعادهم إلى الحياة بقدرته. فهذا هو القدر المبسوط في القرآن من القصّة التّي أمرنا الله بالتمعّن والتفكّر فيها.

ثانيا: مناسبة القصة لسباقها ولحاقها

جاءت الآية الكريمة عقب آيات كثيرة تتحدّث عن الأحكام الإسلامية العامة والتّي من شأنها إصلاح المجتمع وتلتها آيات تتحدث عن وجوب القتال في سبيل الله وإعلاء كلمة الحقّ والتّرغيب في ذلك، ومناسبتها لسباقها أنّ "عادته تعالى في القرآن أن يذكر بعد بيان الأحكام

القصص ليفيد الاعتبار للسّامع، ويحمله ذلك الاعتبار على ترك التمرد والعناد، ومزيد الخضوع والانقياد."[1] وهذه قاعدة عامّة كما نبّه إليها الامام الرّازي لأنّ الآيات السابقة بيّنت عدّة أحكام في قضايا مختلفة منها أحكام في القتال و الطّلاق والصّلاة، وقد سيقت بأسلوب السّؤال ثمّ الإجابة البيّنة عن ذلك ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ﴾) [البقرة: 217]

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ والْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ العَفْوَ ﴾[البقرة: 218] ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلِ ﴾ ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ ﴾ [البقرة: 222] ولكن القارئ لهذه الآيات وبهذا النّظم يتساءل عن موقع القصّة ضمن آيات تتحدّث عن الأحكام، فما علاقة القصّة بهذه الأحكام، وما علاقة الإشارة إلى موضوع الخوف من الموت بما قبلها من الأحكام؟

للإجابة عن هذا السّؤال نجد ابن عاشور يُحيلنا إلى لحاق الآيات في قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: 244] حيث يعتبر بأنّ الكلام فيها رجوع إلى قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: 216]وفصلت بين الكلامين الآيات النازلة خلالهما المفتتحة ب يسألونك[2] فالقصّة ذُكرت في هذا السّياق لتوضيح وتجلية معنى من معاني الجهاد في سبيل الله، وهذا من حيث السّياق البعيد، أمّا عن السّياق القريب نجد كلاما بديعا في النّبأ العظيم حيث يقول صاحبه بأنّ قوله تعالى: ﴿حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ للهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: 238] توجّه بالخطاب إلى المجاهدين بأنّه لا رخصة في ترك الصّلاة ولا في تأجيلها، لا في سلم ولا في حرب، لا في أمن ولا في خوف، وإنّما الرّخصة عند الخوف في شيء واحد: في صفات الصّلاة وهيئتها: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً اَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 239] ...والجنديّ في الحرب تُشغله على الأقل مخافتان: مخافة على نفسه وعلى المجاهدين معه من أخطار الموت أو الهزيمة، ومخافة على

---

(1) - الرازي، مفاتيح الغيب، ج6، ص 495.

(2) - ابن عاشور، التحرير، ج 2، ص 475.

أهله من الضّياع والعيلة لو قُتل ...وأمّا خوف الموت فليعلم أنّ الذي يطلب الموت قد تُوهب له الحياة ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمُ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمُ﴾ [البقرة: 243] هكذا أُبعدت المخاوف كلّها من قلوب المجاهدين وأصبحوا على استعداد نفسي كامل لتلقّي الأوامر بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم[1].

ومن حيث اللّحاق فإنّ الصّلة بيّنة كما أشار إلى ذلك البقاعي فقال: "بأنّ الله تعالى لما بيّن بأنّ الموت لا يصون منه فرار أمر بالجهاد الذي هو المقصود الأعظم بهذه السياقات ...فلا تفرّوا من أسباب الموت بل اثبتوا في مواطن البأساء وقاتلوا[2]، فالجهاد في سبيل الله فيه مظنّة الهلاك والموت ولكنّ الموت للمؤمن في هذه المواطن حياة أبديّة فلا يجزع ولا يخاف ولا يكن أمره مثل القوم الذين قصّ الله علينا من حالهم، لأنّ المطلوب هو الثّبات والشّجاعة وعدم الاستسلام واستصغار النّفس؛ وما دام الحديث عن الجهاد في سبيل الله انتقل الحديث إلى وجه آخر من وجوه الجهاد وهو النّفقة والبذل والعطاء في سبل البرّ والقتال وما يستدعي ذلك من إنفاق المقاتل على نفسه في العُدّة والمؤونة، والحث أيضا بالإنفاق على المعسرين من الجيش[3].

ثالثا: تحليل أحداث القصّة

القصّة في مُجملها سيقت لبيان أنّ الله تعالى هو خالق الموت والحياة وأنّه لا يُغني حذر من قدر، فابتدأ الحديث عنهم بما يثير التعجّب من حالهم ب: "ألم تر" بمعنى ألم ينته إلى علمك يا محمّد من حال هؤلاء القوم، لأنّ الرّؤية هنا رؤية القلب لا رؤية العين[4]" ولأنّه عليه السّلام لم يشهد هذه الواقعة فقد نُزّل منزلة الرّائي، وفائدته الإشارة إلى اشتهار تلك الواقعة حتّى لكأنّها

(1) - محمد عبد الله دراز، النّبأ العظيم، ص 197- 199، (بتصرف يسير)

(2) - البقاعي، نظم الدرر، ج3، ص 400.

(3) - ابن عاشور، التحرير، ج 2، ص 481. (بتصرف)

(4) - الطبري جامع البيان، ج5، ص 266.

تقع ساعة الخطاب وسماع تلك العبارة[1]، فهم خرجوا من ديارهم وتركوها بإرادتهم ومن تلقاء أنفسهم لما أصابهم من شدّة الخوف كما عبّرت عنه الآية ب: "الحذر" وأصله التحذّر من الشّيء المخيف المهلك، فهو أخصّ من الخوف[2] ولم يحدّد القرآن الكريم سبب الحذر فيكون كلّ ما من شأنه يُخشى منه الموت داخل فيه، إلاّ أنّ بعض القرائن تبيّن بأنّ القتال والخوف من عدوّ يتربّص بهم كان السّبب الرّاجح كما سنبيّنه في المبحث الموالي، ثمّ إنّ حكمة الله تعالى أرادت غير ذلك فأماتهم ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته، فالموت هنا موت حقيقي وإليه ذهب جمهور المفسّرين[3]، و لكنّها ميتة خارجة عن العادة، كأنّهم أُمروا بشيء فامتثلوه امتثالا من غير إباء ولا توقّف، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا اَنْ يَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس 82][4] لذلك جاء العطف ب "ثمّ" للتّنبيه على الفاصل الزّمني بين الإماتة والإحياء[5]، بمعنى تحقّق موتهم واقعا بالمعنى المتبادر إلى الذّهن دون اعتبار للإغماء مثلا، وذلك ليستيقن المؤمن بقدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة ويُزيل عن قلبه الخوف من الموت ويتشجع على الإقدام على طاعة الله تعالى، فذكر هذه القصة من شأنها أن تكون سببا لبُعد العَبد عن المعصية وقربه من الطّاعة التّي بها يفوز بالثّواب العظيم[6]، وهذا من فضل الله تعالى ومَنِّه على خلقه جميعا

---

(1) - المطعني عبد العظيم إبراهيم، **التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم**، مكتبة وهبة، القاهرة – مصر – ط:1، 1420هـ / 1999م، ج1، ص 130.

(2) - انظر: الطبري، جامع البيان، ج5، ص 277، السمين الحلبي، **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**، تحق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط:1، 1417هـ-1996م، ج1، ص 383.أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج1، ص 57.

(3) من المفسّرين الذين اعتبروا أن الموت هنا موت معنوي لا حقيقة، رشيد رضا في المنار وقد ردّ عليه بعض النقّاد منهم فهد الرّومي الذي بيّن بأنّ من سمات منهج رشيد رضا حمل القصّة على غير ظاهر ألفاظها إلى معنى أو معان أخرى لا يدلّ عليها ظاهر الكلام، وفي هذه القصّة اعتبر بأن سبب الموت إمكان العدوّ من القوم وقتل أكثرهم مع أنّ الأمر من الله بالموت صريح في الآية. أنظر: فهد الرومي، **منهج المدرسة العقلية الحديثة في التّفسير**، مؤسسة الرسالة بيروت، ط:2، 1407هـ، ج1، ص 457.

(4) - الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 290.

(5) - كعباش نفحات الرحمن، ج2، ص 103.

(6) - انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج6، ص 498. (بتصرّف)

بتبصيره إيّاهم سبل الهدى وتحذيرهم من طرق الرّدى وفي لفظ " الناس " وتكريرها ما يدلّ على أنّ القصّة وما تحمله من عبر تخصّ النّاس جميعا فلو كانت خاصّة بالقوم المذكورين لقال تعالى "ولكنّ أكثرهم" وواجب المسلم شكر الله على نعمه الكثيرة فكان التّعقيب " ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون" لا يُدركون نعم الله وسرعان ما ينسون المنعم المتفضّل بسبب الغفلة عن الشّكر والقاعدة العامّة في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَآ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم 34]، ولأنّ القصّة وردت في سياق الحديث عن الجهاد والقتال في سبيل الله جاء الأمر صريحا فقال تعالى:﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ يقول الطبري في تفسيرها بأنّ الله تعالى ذكره إنما حثّ عباده بهذه الآية، على المواظبة على الجهاد في سبيله، والصّبر على قتال أعداء دينه، وشجّعهم بإعلامه إيّاهم وتذكيره لهم، أنّ الإماتة والإحياء بيديه وإليه، دون خلقه وأنّ الفرار من القتال والهرب من الجهاد ولقاء الأعداء إلى التحصّن في الحصون، والاختباء في المنازل والدور، غير منج أحدا من قضائه إذا حل بساحته، ولا دافع عنه أسباب منيّته إذا نزل بعقوته.[1] وفي ذكر التحصّن والاختباء في المنازل والدّور ملحظ مهمّ من الامام الطبري في بيان السّلوك اليهوديّ حال القتال والحرص على الحياة والخوف من الهلاك مثلما أخبرنا الله تعالى بحقيقتهم في سورة الحشر فقال:﴿ لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا اِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ اَوْ مِنْ وَّرَآءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: 14] فهذه هي نظرتهم إلى الحياة من الحرص عليها والخوف من الموت وأسبابه كالقتال مُجسّدا في سلوكهم حين يُختبرون في ذلك، ولنا وقفة مع هذا المحور الذّي يشكّل أحد الأهداف التّي تحدّثت عنها قصّة طالوت وجالوت وداود، ويشكّل بذلك إحدى العلاقات السّياقيّة بين القصّتين؛ ولأنّ القتال يتطلّب استعدادا ماديا ومعنويا انتقل السّياق إلى التّرغيب في الإنفاق ببذل المال على ما يعود بالنّفع في هذا المجال ﴿مَن ذَا الذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة :245] وبهذه الآية يختتم السّياق الحديث عن الجهاد في

[1] - الطبري، جامع البيان، ج5، ص278.

سبيل الله والتّحريض على الإقدام دون خوف من موت وهلاك لأنّ ذلك من تدبير الله الذي بيده الموت والحياة، ومن جانب آخر متّصل بتزكية النّفس والمال في سبيل الله الحثّ على البذل والعطاء للفوز برضوان الله ورحمته، ليكتمل بذلك ما يتعلّق بسياق هذه الآية الكريمة التّي تفضّل الله تعالى بها علينا بتبصيرنا وتذكيرنا بأنّ الأمور كلّها بيده وأنّ الخوف من الموت وأسبابه المتعلّقة بالجهاد والقتال والفرار من حُكم الله لن يُغيّر من قضاء الله.

المطلب الثّاني: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة

ورد في فضل سورة البقرة بأنّها سنام القرآن[1] أي أنّ لها مزيّة اختصاص على السّور القرآنية الأخرى من ناحية الشّأن والرّفعة فالسّنام من كلّ شيء أعلاه وهذه الرّفعة كانت من محتوى آياتها التي تحدّثت عن الأحكام العامة للدّين كالصّلاة والصّيام والحجّ وكذا الجهاد من خلال أحداث قصّة الذين خرجوا من ديارهم، والذي يُعتبر ذروة سنام الإسلام فمن هذه النّاحية تتبيّن علاقة سياق القصّة بالسّياق العام لسورة البقرة من حيث المكانة والرّفعة، ومن ناحية أخرى فإنّ الجهاد من وسائل التّمكين والقوّة لتحقيق الخلافة فلا يُمكن تصوّر دولة تتطلّع إلى السّيادة مهزوزة الجانب خائرة عن القتال ومتكاسلة عنه مُقدِمة على الحياة ولذائذها خائفة من الموت وأسبابه لأنّ الجهاد يتطلّب غير ذلك فهو: "استفراغ الجهد في مدافعة الأعداء" بمعنى إعطاء كلّ ما يملك الانسان من طاقة وجهد وقوة لهذه المهمّة النّبيلة لأنّ ذلك موجّه إلى ثلاث جبهات: العدوّ الظّاهر الكافر المعتدي على حدود الله والشّيطان والنّفس[2] لذلك جاءت

---

(1)- قال رسول الله ﷺ : «إنّ لكل شيء سناما، وسنام القرآن سورة البقرة، وفيه آية سيدة آي القرآن آية الكرسي، لا تُقرأ في بيت وفيه شيطان إلاّ خرج» رواه الحافظ عبد الرزاق في مصنفه، ج3، ص326، رقم: 6019. والحاكم في المستدرك، ج1، ص748، رقم:259، وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه، والبيهقي في شعب الإيمان (452/2)، رقم(3277).

(2)- الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد (ت: 502هـ) **المفردات في غريب القرآن**، تحق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت- ط:1، 1412هـ، ج1، ص 208.

الآيات اللاّحقة حاثّة على القتال ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:244] ثمّ التّحريض على البذل والنّفقة في سبيل الله ﴿مَن ذَا الذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:245] لتكتمل صور الجبهات التّي يجاهد فيها الانسان نفسه، وفي كلّ تحريض وترغيب للنّفس وتهيئة لها للجهاد في سبيل الله سواء بالقتال والمواجهة والتّضحية بالأرواح أو بالبذل والعطاء والانفاق، وفي قوله تعالى: (من ذا الذي) المركّب من اسم الاستفهام (من) واسم الإشارة (ذا) والاسم الموصول (الذي) معنى الفخامة، أي أنّ هذا العمل العظيم من شأنه أن يكون فاعله نادرا لقلّة فاعليه مما يُضفي عليه الغرابة وعلوّ الشّأن فيتسارع أصحاب الهمم العالية في تحقيق هذا الوصف لأنفسهم وذلك هو شأن بلاغة القرآن[1] وفي كلتا الحالتين – المواجهة والبذل –تعتري الانسان وساوس وقلاقل الشّيطان الذي يغريه بملذّات الحياة والاستمتاع بها والامساك عن البذل والنّفقة﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَامُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:268] و في الجهاد اختبار حقيقيّ لقوّة إيمان المسلم واعتقاده الجازم بأنّ الموت والحياة بيد الله ولا يُغني حذر من قدر ولا ينفع الفرار من الموت لأنّها سنّة الله في الأمم؛ وقضيّة الاماتة والإحياء من المواضيع التّي اهتمّت بها السّورة الكريمة؛ وبهذه المعاني الجليلة تكتمل مرحلة يمكن تسميتها بمرحلة الاعداد النّفسي للجهاد ببيان حال الذين خرجوا من ديارهم والتّعقيب البليغ للقصّة لتتلوها مرحلة الاعداد الفعلي العملي الواقعي للجهاد في سياق الحديث عن قصّة طالوت وجالوت وداود.

---

[1] المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام، مرجع سابق، ج1، ص 132.

المطلب الرّابع: تحكيم السّياق في بعض قضايا القصّة

في عرض القرآن الكريم لقصّة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت نجد أنّ الآيات تتحدّث بشكل إجماليّ دون التّعرّض لبيان بعض التّفاصيل مثل معرفة زمان ومكان وقوع الحدث وكذا ذكر الشخصيّات ومعرفة من هم هؤلاء القوم وغير ذلك واكتفى بما تُحصّل منه العبرة والعظة تجنّبا للتّفريعات التّي تُنسينا الهدف من عرض القصّة، وهذا ما نبّه إليه غير واحد من المفسّرين أمثال ابن عطيّة الذي عرض الرّوايات المتداولة في بيان أحداث هذه القصّة ثمّ عقّب قائلا: "وهذا القصص كلّه ليّن الأسانيد، وإنّما اللاّزم من الآية أنّ الله تعالى أخبر نبيّه محمّدا ﷺ أخبارا في عبارة التّنبيه و التّوقيف عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فرارا من الموت، فأماتهم الله تعالى ثمّ أحياهم."[1]

ذهب المفسّرون في بيان سبب فرار القوم إلى اعتبار الطّاعون أو القتال سببا في ذلك ومنهم من ذكر كليهما[2] والرّاجح في اعتقاد الباحث أنّ القوم خرجوا فرارا من القتال لتظافر جملة من القرائن منها:

أ- المفردات المهمّة في أحداث القصّة منها أنّ الله تعالى ذكر بأنّ القوم خرجوا من ديارهم بمعنى: تركوا ديارهم وهربوا بأنفسهم، ثمّ عبّر عن العدد ب: وهم ألوف حذر الموت، فلماذا ذكر الله تعالى العدد هنا؟ ففي تقدير الباحث أنّ ذلك مدعاة إلى اعتبار القوم فارّين من عدوّ سُلّط عليهم وبتصوّر حالتهم النّفسيّة المليئة بالذّعر والخوف والهوان، حتّى نسوا أنّهم في قوّة عدديّة يمكنها قلب موازين القوى ولكن الخوف الشّديد أعمى أبصارهم، فبالتّالي انتقاء كلمة "ألوف" يوجّهنا إلى أنّ العدد مهمّ في هذا الحدث لأنّ القصّة وردت في سياق الحديث عن القتال وعدم الجبن والخوف من الموت عند لقاء العدوّ، " فتكون

---

[1] - ابن عطية، المحرر، ج1، ص328.

[2] - انظر: الطبري، جامع البيان، ج5، ص 276، ابن عطية، المحرر، ج1، 327-328، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج3، ص 232،ابن كثير، تفسير القرآن، ج1، ص 503.

القصة تمثيلا لحال أهل الجبن في القتال، بحال الذين خرجوا من ديارهم، بجامع الجبن وكانت الحالة الشبه بها أظهر في صفة الجبن وأفظع"[1] وجملة:" فقال لهم الله موتوا ثمّ أحياهم" ورد فيها ذكر الموت الذّي يقابل حرص اليهود على الحياة﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ ولأنّ في القتال خطر الموت أيضا.

ب- الحديث عن القتال في الآيات اللاّحقة نحو: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾حيث ذكر ابن عاشور أنّ القصّة وقعت موقع ذكر الدليل قبل المقصود[2]،ونحو: ﴿إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسِيتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ اخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾ فهذه القرائن جعلت الباحث يرجّح فرضيّة الفرار من الموت والقتل على فرضيّة الفرار من الطّاعون والله أعلم.

(1) - ابن عاشور، التحرير، ج2، ص 478.

(2) - ابن عاشور، التحرير، ج2، ص 475 وص 478.

المبحث الثاني: متطلبات الجهاد والصّبر عليه

هذا المبحث من قصّة طالوت مع بني إسرائيل من بعد موسى نُحاول من خلاله بيان دور السّياق في بيان طريق دفع الظّلم بالقتال والجهاد في سبيل الله والتّركيز على كيفيّة الإعداد له بالطّرق التّي تُفضي إلى تحقيق النّصر والصّلاح مما بيّنه تعالى في أحداث القصّة والاشارة إلى التّعاليم التّي اتّبعها طالوت في هذه المهمّة الدعويّة العمليّة، ثمّ الانتقال إلى بيان علاقة سياق قصّة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف، وسياق هذه القصّة مع السّياق العام للسّورة لأنّ القصّتين تشتركان في محور الجهاد.

المطلب الأول: سياق المقطع

أوّلا: أحداث القصّة

أحداث القصّة كما ذكرها القرآن الكريم في الآيات من 246 إلى 251 من سورة البقرة، تتحدّث عن ملأ أو وُجهاء من بني إسرائيل عاشوا من بعد موسى عليه السلام طلبوا من نبي لهم أن يبعث لهم ملكا ليقاتلوا في سبيل الله بعد أن أُخرجوا من ديارهم وسُبيت ذراريهم، فاستجاب الله لهم وكتب عليهم القتال، ثمّ أخبرهم النبيّ بأنّ الله اختار طالوت ملكا آمرا وقائدا عليهم فاعترضوا زاعمين بأنّ طالوت لا يملك مالا وثروة وبأنّهم أحقّ بالملك منه، فجاءهم الجواب القاطع بأنّ الله هو من اصطفاه عليهم لما له من صفتي العلم والقوّة الجسميّة التّي تليق بالقيادة العسكريّة، ولكنّهم لم يقتنعوا، فطلبوا آية حسيّة فكانت الآية في التّابوت الذّي يحتوي على بقيّة ممّا ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إليهم حتّى آمنوا به وارتضوه مَلِكًا، ولما خرج بهم طالوت إلى أرض المعركة للقتال أراد أن يختبر صبرهم وشدّة تحمّلهم للأمور الصّعاب فأخبرهم بأنّهم سيمرون بنهر وأمرهم بأن لا يشربوا منه إلاّ مقدار غرفة يد، فلم يُطعه إلاّ قليل منهم وهم المؤمنون الخلّص الذين جاوزوا معه النّهر ووقفوا إلى جانبه في وجه جالوت وجنده

متضرّعين إلى الله ليثبّتهم في القتال وينصرهم عليهم، فاستجاب الله لدعائهم ونصرهم فهزموهم فكانت نهاية جالوت على يد داود عليه السّلام.

ثانيا: تحليل أحداث القصّة

من خلال الدّلالات اللغويّة والنّقليّة لمعاني آيات القصّة نجدها تسلّط الضّوء على أمرين مهمّين الأوّل هو السّياق الأساسيّ للقصّة والمتمثّل في دفع الظّلم عن طريق الجهاد في سبيل الله لتحقيق الصّلاح والثّاني وهو السّياق الجزئي ويتحدّث عن صفات بني إسرائيل الدّنيئة المتأصّلة فيهم، وسنعرض لكلّ سياق المعاني المتعلّقة به.

السّياق الأساسي: دفع الظّلم بالقتال والجهاد في سبيل الله وكيفيّة الإعداد له بالطّرق التّي تُفضي إلى تحقيق النّصر والصّلاح، يمكن التّفصيل فيه بما يلي:

. من حيث السّباق: في الآيتين السّابقتين أمر الله تعالى المؤمنين بالجهاد وحثّهم على النّفقة في سبيله، وتلتهما قصّة الملأ من بني إسرائيل التذي سيقت مساق الاستدلال لها وفيها زيادة تأكيد لفظاعة حال التقاعس عن القتال بعد التهيؤ له في سبيل الله، والتكرير في مثله يفيد مزيد تحذير وتعريض بالتوبيخ[1]، فقصّة الذين خرجوا من ديارهم تمثّل حال من آثر القعود بداية وعدم الخروج للقتال ومن استصغر نفسه رُغم كثرة العدد إذْ لا فرق بينهم وبين من جاهروا بذلك:﴿الذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوَ اَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَادْرَءُواْ عَنَ اَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[النساء: 168] أمّا الملأ من بني إسرائيل فقد عرفوا القتال في سبيل الله وطلبوه (ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله) فلمّا كُتب عليهم وأُمروا بالقتال (تولّوا) دلالة على أنّهم باشروا السّير إلى قتال ثمّ تراجعوا جُبنا وخوفا فالتولّي كان من ميدان الحرب، وكلا الحالتين تصوير لحالة الجبن والخوف والهلع من الموت بسبب القتال، فالقصّتين بهذا الأسلوب الفنّي الرّائع تنبّه المسلمين بأن لا يقعوا في فعل التولّي ولا القعود خوفا من الموت إن كُتب عليهم

---

[1] - ابن عاشور، التحرير، ج2، ص 484.

القتال حتّى لا يكون حالهم حال القوم الذين بيّن لنا شأنهم في سياق الحديث عن القتال والجهاد في سبيل الله.

. من حيث اللّحاق: فقد بيّنت الآيات اللاّحقة المغزى من القتال وهو دفع الظّالمين بالخيّرين والطّالحين بالصّالحين﴿ وَلَوْلاَ دِفَاعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: 251] فالملأ من بني إسرائيل طلبوا القتال لمنع الظّلم واستعادة كرامتهم وحقّهم في العيش الكريم، وبيّن الله لهم في الآية السّبيل إلى ذلك باتّباع أوامره، والانصياع لتعاليمه فهو العليم الخبير بشؤون عباده ويمكن اختصار هذه التّعاليم فيما يلي:

- النيّة الصّادقة، والعزم على القتال لإعلاء كلمة الله، وإحقاق الحقّ وإزالة الظّلم وأسبابه، وتمكين الخير والصّلاح، فالملأ علّلوا أمر الجهاد بأنّهم أُخرجوا من ديارهم وأبنائهم فأسندوه بذلك إلى غضب الأنفس والرّغبة في الانتقام، فأصبحت نيّتهم مدخولة وكُشف أمرهم ساعة الاختبار و القتال فتولّوا إلاّ قليلا منهم؛ وفي ذلك تنبيه للمؤمنين وللمهاجرين خاصّة الذين أُخرجوا من ديارهم بمكّة أن تكون لديهم هذه الرّغبة في الانتقام ممّن ظلموهم وأخرجوهم من ديارهم إلاّ أنّهم قالوا ربّنا الله فيصبروا ويبقوا على عهد الله بالقتال في سبيله وإعلاء راية الدّين لأنّهم مقبلون على هذا الأمر العسير في غزوة بدر وأحد وغيرها من اللّقاءات بينهم وبين من كانوا سببا في ظلمهم وإخراجهم من ديارهم وأبنائهم، على أنّ هذه السورة نزلت في أوائل الفترة المدنية فوجب الصّبر والايمان بعدل الله وحكمه.
- ضرورة وجود قائد للجماعة فهو كالرّأس للجسد، ولا يمكن أن يتحقّق نصر وتمكين لجماعة تائهة، ولا يقوم بناء وتنظيم بدون قيادة رشيدة، وجيش مدرّب منظّم فلفظ (الجنود) هو جمع جُنْد وأصله جَنَد وهو: الغليظ من الأرض إذ بعضهم يعتصم ببعض[1] لذلك فالمطلوب

---

[1] - أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف (ت: 745هـ)، **البحر المحيط في التفسير**، تحق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت- ط: 1420 هـ، ج2، ص 579.

من الجند القوّة والغلظة والاتّحاد والالتفاف حول القائد لأنّ غياب القائد مؤذن بالفوضى والخراب والدّمار، هذا و ينبغي للقائد أن يتّصف بالمواصفات الرّبانية التّي بيّنها الله تعالى وذلك بأن يحصل على الإجماع وموافقة جميع أطياف المجتمع عليه فقد قال تعالى على لسان نبيّه: (إنّ الله اصطفاه عليكم) أي اختاره من بين الأفضل فيمن عندكم، وهو أعلم بما يصلح لكم، "فالعمدة فيه اصطفاء الله سبحانه وتعالى وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم، وبأن الشّرط فيه وفور العلم ليتمكّن به من معرفة الأمور السياسية، وجسامة البدن ليكون أعظم خطرا في القلوب، وأقوى على مقاومة العدو ومكابدة الحروب، لا ما ذكرتم، وقد زاده الله فيهما، وآتاه الملك بمشيئته، فالله واسع الفضل يوسع على الفقير ويغنيه عليم بمن يليق بالملك من النّسيب وغيره.[1]

فردّ الله تعالى يشير إلى أنّ لكلّ مسؤوليّة ما يناسبها من الاستعدادات فمنصب القيادة والحرب يناسب من توفّرت فيه الدّراية والعلم بفنون الحرب والسّياسة والحكمة في التّعامل مع الجّيش، يُضاف إليه قوّة الجسم ووفرته التّي تفرض المهابة والاحترام والسّمع والطّاعة من الجند، فلكلّ مهمّة رجالها الذين يعملون على أدائها بالشّكل الصّحيح السّليم بما يُحقّق المقصد منها والحفاظ على مكتسباتها.

- الصّبر والتجلّد عند الشّدائد، حيث طلب طالوت الملك منهم المرور من النّهر وأن لا يشربوا منه إلاّ مقدار غرفة من اليد ليختبر صبرهم وشدّة تحمّلهم واتّباعهم لأوامره "فمن ظهرت طاعته في ترك الماء علم أنّه يطيع فيما عدا ذلك، ومن غلب شهوته في الماء وعصى الأمر فهو بالعصيان في الشدائد أحرى[2]"، ونلحظ أنّ لفظ التقليل (إلاّ قليلا) في القصة ذُكر ثلاث مرّات وكان مقصودا ليبيّن بأنّ القوم كانوا يُختبرون في كلّ مرّة

(1) - البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ج1، ص 150. (بتصرّف)

(2) - ابن عطية، المحرر الوجيز ج1، ص 334.

حتّى يميز الخبيث من الطيّب، فيتهاوى ضعاف النّفوس، ولا يتبقّى إلاّ القوم الصّادقون المؤمنون المخلصون.

- الالحاح في الدّعاء والتشبّث بوعد الله، فالدّعاء إذا انطلق من أعماق المؤمن بحرارة وصدق وانفعال مشفوعا بالسّلوك الخيّر فإنّه لامحالة سيكون مستجابا.

أمّا السّياق الجزئي متعلّق بفضح طبائع بني إسرائيل المتأصّلة فيهم من مكر وخداع وعناد وتماطل وتردّد وتنطّع واستخفاف بالعهود ونقضها، وخوف وجبن وحرص على الحياة ... فسياق الحديث عن بني إسرائيل في السّورة الكريمة يركّز على هذا الجانب سواء مع سيّدنا موسى عليه السّلام أم غيره كما في هذه القصّة فقد طلبوا القتال في سبيل الله ثمّ تولّوا عند اللّقاء إلاّ قليلا منهم، رغم أنّهم أخذوا موثقا من الله ونبيه أن يقاتلوا في سبيله، ليتبيّن بأنّ الأكثرية يقاتلون لأغراض دنيوية غير إعلاء كلمة الله، فمن النّاس من يُقاتل لحُظوة أو مكانة في قومه ومن يُقاتل لكسب مغانم وغيرها فعن أبي موسى الأشعري قال: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال: الرّجل يقاتل للمغنم، والرّجل يقاتل للذّكر، والرّجل يقاتل ليُرى مكانه فمن في سبيل الله؟ فقال: « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله »[1]، وموقفهم أيضا من الملك طالوت حيث اعترضوا على اصطفاء الله له بالجدال وعدم التّسليم الفوريّ لأمر الله تعالى، فهذه المواقف تقدّم نموذجا ومثلا لتعامل بني إسرائيل مع شخصيّة من غير الأنبياء والمعايير التّي يصنّفون بها النّاس لمنصب القيادة والملك من اعتبار النّسب والشّرف (ونحن أحقّ بالملك منه) وكذا المال والثّروة (لم يوت سعة من المال) وكلّها معايير مادّية محضة دون النّظر إلى الكفاءة والعلم والحكمة حتّى في الأمور المصيريّة التّي تحدّد مستقبلهم ممّا يعزّز القول بأنّهم أرادوا الانتصار لأنفسهم وليس للعقيدة وإعلاء كلمة الله، حيث ربطوا القتال بالظّلم الذي مُورس عليهم (ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا)، ولم يطيعوا أمره بعدم الشّرب من النّهر كما هي

[1] أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ح(2810)، ج4، ص20.

عادتهم مع أنبيائهم من العصيان والخذلان والتّمادي﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ..... فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة 67-71].

المطلب الثاني: الجمع بين سياق القصّتين وبيان علاقته بالسّياق العام للسّورة

هذا المقطع المتكوّن من قصّتي الذين خرجوا من ديارهم وهو ألوف حذر الموت، وقصّة طالوت وجالوت وداود، رغم أنّه لم يشغل حيّزا معتبرا من السّورة الكريمة إلاّ أنّه بهذا القدر من ضرب المثل بالأمم السّابقة كان كافيا لتستفيد أمّة محمّد ﷺ من تجربتهم في الجهاد وتأخذ بأسباب النّصر والفلاح، وتبتعد عن أسباب الهزيمة والاخفاق خاصّة في المراحل الأولى من بناء الدّولة الفتيّة، والمسلمون قلّة في العُدّة والعتاد، فمن خلال سياق القصّتين تبيّن بأنّ العدد ليس مقياسا للنّصر، فالذين كانوا أُلوفا لم يزدهم عددهم قوّة وثباتا، والذين ثبتوا وصبروا مع طالوت كانوا فئة قليلة في مقابل فئة جالوت الكثيرة العدد، فكان النّصر للإيمان القويّ والعقيدة الرّاسخة، وهو المجال الذّي كان يركّز عليه النبيّ ﷺ في مكّة طيلة ثلاثة عشر سنة وقد شكّل دافعا قويّا للهجرة إلى يثرب، ومُحاولة إقامة سيادة لنصرة الحقّ، فمن شأن أحداث هاتين القصّتين أن يأخذ منها المؤمنون دروسا وعبرا في الاستخلاف والتّمكين في الأرض لأنّها تجارب لأمم سابقة كان لها شرف الاستخلاف والتّمكين في الأرض، وليستشعروا خطر المهمّة التّي أوكلت إليهم من بعدهم، وليعلموا أنّ سنّة الله في الأمم والمجتمعات دفع الظّالمين بالخيّرين والإصلاح في الأرض وتطهيرها من فساد أهل الكفر وتمكّن أهل المعاصي، وإخراج النّاس من الظّلمات إلى النّور؛ وقد كان الجهاد أسلوبا من أساليب دفع الفساد "لأنّ المدافعة بالمقاتلة والمحاربة أبين صور المدافعة وأكثرها مشقّة وهي غايتها وأعلاها وإقرار المدافعة بالأعلى — وفيه ما فيه من الأضرار والمخاطر– تنبيه إلى علوّ شأنه وأنّه لا غنى عنه في دفع الفساد ولهذا كان الجهاد ذروة سنام الاسلام. وتسبق هذه الصورة العليا– ولا بد — صور من المدافعة لا تحصى

بالأقوال والأفعال ...إلى آخر ما هنالك"[1] ممّا كان الرّسول عليه السّلام يسعى لترسيخه وتثبيته في مكّة لأنّها تربية طويلة الأمد تحتاج صبرا ومُصابرة لقطف ثمارها، وتحقيق الصّلاح ومنع الفساد في الأرض "فإنّه تعالى يقول إنّ ما فُطر عليه النّاس من مدافعة بعضهم بعضا عن الحقّ والمصلحة هو المانع من فساد الأرض، أي هو سبب بقاء الحقّ وبقاء الصّلاح."[2]

وممّا يوثّق الصّلة بين سياق القصّتين ما جاء في لحاق قصّة طالوت من قوله تعالى:﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[البقرة:252] فالآية إشارة إلى القصّتين من الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف ومن قصة طالوت بما تحلمه من عبر للأمّة في احتمال الشّدائد في الجهاد كما احتملها المؤمنون في الأمم المتقدّمة، وفيها تسلية للرّسول ﷺ، فكأنّه قال: إنك قد عرفت بهذه الآيات ما جرى على الأنبياء عليهم السلام في بني إسرائيل من الخوف عليهم والرد لقولهم، فلا يعظمن عليك كفر من كفر بك، وخلاف من خالف عليك، لأنك مثلهم، وإنّما بعث الكلّ لتأدية الرسالة ولامتثال الأمر على سبيل الاختيار والتطوّع، لا على سبيل الإكراه، فلا عتب عليك في خلافهم وكفرهم[3]"

ونخلص ممّا سبق بأنّ سياق القصّتين يتمحور حول دعوة الله تعالى إلى الجهاد في سبيله من حيث الإقدام عليه وعدم الخوف من الموت وبذل النّفس والجهد والمال في سبيل ذلك، وكذا بيان بعض مُتطلّباته من خلال الدّعوة العمليّة التّي قادها طالوت في بني إسرائيل.

---

(1) - حسن بن صالح الحميد، **سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم**، دار الفضيلة، الرياض-السعودية- ط:2، 1432هـ، 2011م، ص235.

(2) - رشيد رضا، تفسير المنار، ج2، ص394.

(3) - الرازي، مفاتيح الغيب، ج6، ص 520-521.

المطلب الثالث: تحكيم السّياق في بعض القضايا المتعلقة بالقصّتين

من خلال تتبّع معاني القصتين في كتب التّفسير يقف الباحث على بعض النّقاط التّي أوردها بعض المفسّرين ممّا جاء مُخالفا للسّياق ولا يستقيم مع نهج القرآن في عرض القصص منها ما يلي:

في سياق قصّة الملأ من بني إسرائيل نجد أنّ القرآن لم يحدّد زمن وقوع الحادثة ولا عدد القوم الذين طلبوا القتال ولم يذكر اسم النبيّ الذي طلبوا منه أن يبعث لهم ملكا للقتال حيث جاء نكرة، وإنّما كانت الإشارة إلى أمور مهمّة تساعد على بناء تصوّر متكامل عن أبعاد القصّة، لأنّ الذّي ذُكر في القصّة بشكل صريح من حيث الزّمان أنّها أحداث وقعت بعد موسى عليه السّلام ومن حيث الأشخاص فهم ملأ من بني إسرائيل من بعد موسى عليه السّلام والنبيّ المرسل إليهم منهم ولم يُذكر اسمه في النصّ القرآني، بينما نجد أسماء ذُكرت بعينها وهم: "طالوت" وهي الشّخصيّة المؤثّرة في أحداث القصّة، و"جالوت" الذّي قابلوه في ساحة القتال والنبيّ "داود" عليه السّلام في آخر أحداث القصّة حيث كانت نهاية جالوت على يديه، ومن خلال دراسة القصّة سياقيّا تبيّن للباحث أسباب ذلك من خلال النّقاط الآتية:

. بالنّسبة للشخصيّات، فاسم النبيّ جاء نكرة لأنّ محلّ العبرة ليس بمعرفة شخصه ومن يكون وإنّما بحال القوم معه، وطريقة تعاملهم مع الأنبياء بصورة عامّة ومع شرائع الله وأوامره ونواهيه بشكل خاص، كما قال ابن عاشور: "وتنكير نبيء لهم للإشارة إلى أن محل العبرة ليس هو شخص النبيء فلا حاجة إلى تعيينه، وإنما المقصود حال القوم."[1]

أمّا شخصية جالوت فهو يمثّل العدوّ الظّالم المعتدي وقد ذُكر في الأحداث المتعلّقة بالمواجهة بين جنده وجند طالوت التّي انتهت بقتله على يد داود عليه السلام وتخليص بني إسرائيل من رأس الظّلم والطُّغيان.

---

(1) - ابن عاشور، التحرير، ج2، ص 485.

وشخصيّة داود عليه السّلام مثّلت الجنديّ المنْقذ البطل الذّي كانت نهاية الظّلم على يديه بقتل جالوت وبرغم دوره المهمّ إلاّ أنّه لم يَشغل سوى مساحة قليلة في القصّة، لأنّ السّياق لا يتحدّث عن البطولة الفرديّة وإنّما عن الإيمان في مواجهة الكفر وعن الفئة القليلة المؤمنة الصّادقة في مواجهة الفئة الكثيرة الكافرة فداود عليه السّلام يُمثّل قوّة وصلابة وعقيدة كلّ جند تحت إمرة طالوت من الفئة القليلة، لذلك عزا الله تعالى النّصر إلى الجماعة كلّها﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، ولأنّ الملك سيؤول إليه بعد طالوت قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَآءُ﴾ ،"وكأنّ حكم طالوت رضي الله عنه كان تمهيدا لحكم داود وسليمان – عليهما السلام – ومقدّمة للفترة الذهبية في تاريخ بني إسرائيل التي تمثّل أعلى قمّة وصل إليها بنو إسرائيل."[1] والتّابوت: آية إعجازيّة حسّية لإقناع بني إسرائيل بضرورة الالتفاف حول القائد العسكري طالوت المبعوث من السّماء، وفيه بقيّة ممّا ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة حيث ذهب بعض المفسّرين إلى بيان معنى التّابوت والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون مذاهب شتّى، لعدم اليقين إلى خبر صحيح من مجموع ما ورد من آثار، وفي هذا الشّأن يقول الطّبري: "وذلك أمر لا يُدرك علمه من جهة الاستخراج ولا اللغة، ولا يدرك علم ذلك إلا بخبر يوجب عنه العلم، ولا خبر عند أهل الإسلام في ذلك للصّفة التي وصفنا، وإذ كان كذلك، فغير جائز فيه تصويب قول وتضعيف آخر غيره، إذ كان جائزا فيه ما قلنا من القول."[2]
وهو الرّأي الذي يميل إليه الباحث لتوافقه مع سياق القصّة من بيان الصّفات الدّنيئة التّي طبعت على قلوب بني إسرائيل من عدم الامتثال لأوامر الله إلاّ بالمعجزات الحسّية فهي سمة غالبة على طبعهم كما ورد ذاك مُفصّلا في الآيات السّابقة من سياق السورة الكريمة مثل إنزال المنّ والسّلوى، وتفجير العيون لهم وضرب أجزاء البقرة بعضها ببعض، وغيرها من الآيات التّي

---

[1] - صلاح عبد الفتاح الخالدي، **الشّخصية اليهودية من خلال القرآن الكريم**، دار القلم- دمشق- ط: 2، 1434هـ- 2013م، ص 98.

[2] - الطبري، جامع البيان، ج5، ص 334.

يطلبونها ويرونها عيانا ثمّ يصدّون عنها مستكبرين عن الحقّ لأنّ المرض قد طُبع على قلوبهم، وهدايتهم مستحيلة لذلك استحقّوا اللّعن من الله بكفرهم وصدّهم عن سبيل الله كثيرا ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُومِنُونَ ﴾ [البقرة: 88].

المبحث الثّالث: السّعي لنشر الدّعوة والابتلاء بالملك

في هذا المبحث نقرأ عن ذي القرنين كنموذج لملك عظيم سعى لتحقيق العدل بين النّاس ومارس دعوة عمليّة حركيّة لنشر الدّين الحقّ ودعوة النّاس إلى عبادة الله وحده وتحذيرهم من عاقبة الكفر وتبشيرهم بجزاء الإيمان والعمل والصّالح، متسلّحا بقوّة إيمانه وحسن توكّله على الله، ومحاولة الإسهام في تغيير واقع بعض الشّعوب مُستعينا بما آتاه الله من القوّة والحكمة والعلم، وهذا ما سنتعرّف عليه بالتّفصيل في مطالب المبحث وفق النظريّة السّياقيّة، من سياق المقطع والقصّة وعلاقتها بسياق السّورة ثمّ تحكيم السّياق في بعض قضايا القصّة.

المطلب الأول: سياق المقطع

أوّلا: عرض أحداث القصّة

تتضمّن القصّة جوابا عن سؤال الكفّار للنبيّ ﷺ كما مرّ بنا من قبل في سبب نزول السّورة عن رجل طوّاف وهو ذو القرنين حيث مكّن الله له في الأرض وأيّده بأسباب النّصر والتّمكين من القوّة والعلم وذكر القرآن الكريم بعضا من أخباره المتمثّلة في رحلات ثلاث إلى المغرب والمشرق وإلى موضع السدّين وبناءه لسدٍّ في وجه يأجوج ومأجوج، واتّصفت هذه الرّحلات بإحقاق الحقّ والعدل ونبذ الظّلم والفساد والإصلاح في الأرض، وقد جاءت تفاصيل أحداثها في الآيات من 83 إلى 98 من سورة الكهف.

ثانيا: مناسبتها لسباقها ولحاقها

قصّة ذي القرنين جاءت عقب الحديث عن قصّة سيّدنا موسى عليه السّلام والخضر حيث اعتبر البقاعي رحلة سيدنا موسى لطلب العلم من العبد الصّالح طوافا في الأرض لطلب العلم

وقصّة ذي القرنين تمثّل طوافا في الأرض لطلب الجهاد، ورأى بأنّ تقديم الأولى عن الثّانية كان لعلوّ درجة العلم لأنّه أساس كلّ سعادة وقوام كلّ أمر[1]

أمّا عن لحاقها فيقول البقاعي أيضا أنّه لما كانت قصّة ذي القرنين آخر خبر عن سؤال كفّار قريش وما أُدرج فيه من التّذكير والوعظ والوعد والوعيد، والتّرغيب والتّرهيب، ... وختمه بما هو علم عظيم للسّاعة، ذكر ما يكون إذ ذاك وما يكون بعده إلى حصول كلّ من الفريقين في داره ومحلّ استقراره."[2] في مشهد من مشاهد يوم القيامة.

ثالثا: تحليل أحداث القصّة

يبيّن الله تعالى في قصّة ذي القرنين بعض ما كان من خبره بما يصلح للتّذكير والاعتبار فذكر الصّفات التّي تميّز بها، وإنجازاته التّي صحبته في رحلاته الثّلاث، فمن الصّفات التّي تميّز بها ما يأتي:

- التّمكين له في الأرض ومعناه أنّ الله تعالى أعطاه المقدرة على التصرّف في شؤون أهل الأرض والتي هي من صفات الملك وآتاه علما في كلّ أمر وسخّر له من الأسباب ما يُتَوصّل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة.[3]
- الدعوة إلى الصّراط المستقيم حيث كان من فعله لما وصل إلى مقصده من مغرب الشّمس ووجد فيها قوما كافرين أن دعاهم إلى الإيمان بالله، وهو ما فعله أيضا لما وصل إلى مقصده من مطلع الشّمس.
- نشر العدل والحقّ بأن يأخذ الظّالم على ظلمه ويُجازي المؤمن العامل الصّالح بالحسنى، والإسهام في ردّ الظّلم والفساد في الأرض ممّا كان من فعل قوم ياجوج وماجوج.

---

[1] – انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج 12، ص 128.

[2] – انظر: البقاعي، المرجع نفسه، ج12، ص 143- 144.

[3] – انظر: الطبري، جامع البيان، ج18، ص 93 – 94، الزمخشري، الكشاف، ج2، ص 743، ابن عطية، المحرر الوجيز، ج3، ص 538.

- الإيمان القويّ بالله تعالى وشكر نعمه والتوكّل عليه بإرجاع كلّ ما تحقق من خير إلى الله سبحانه، وهذا ثمرة من ثمرات الإخلاص لله تعالى.

هذه الصّفات من الملك والعدل والدعوة إلى التّوحيد وردّ الظّلم والفساد والأخذ بأيدي الصّالحين كلّها متوفّرة في شخص ذي القرنين ممّا قد ذكره الله تعالى في سورة الكهف وتعدّ جزء من حياة ذي القرنين المتعددة الجوانب، والقرآن الكريم أخبرنا بما فيه الغُنية والكفاية لتحقيق العبرة والمقصد من القصّة من خلال الرّحلات الثلاث وما فيها من أحداث ممّا يجب الوقوف عندها لمعرفة ما فيها من اتّصال المعاني واتساقها.

في الرّحلة الأولى كانت وُجهة ذي القرنين إلى موضع مكان مغرب الشّمس من الأرض وهو أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب من حيث يلوح الغروب من جهات المعمور من طريق مملكته إذ ليس للشمس مغرب حقيقي إلاّ فيما يلوح للتخيّل، ووجد فيها قوما أحوالهم كانت في فساد من كفر وفساد عمل، فكان ممّا قام به اتّجاههم محاولة إصلاح حالهم وتوجيههم إلى عبادة الله وحده بعد أن مكّنه الله منهم وحَكّمَه فيهم وأَظفره عليهم، وإسناد القول إلى ضمير الجلالة في قوله تعالى:﴿ قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ يُحتمل أنه قول إلهام أي ألقينا في نفسه تردّدا بين أن يبادر استئصالهم وأن يمهلهم ويدعوهم إلى الإيمان وحسن العمل، ويكون قوله ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾، أي قال في نفسه معتمدا على حالة وسط بين صورتي التردّد، يُعتبر جوابا منه إلى ربه، فتبيّن من خلال هذا الجواب إلى آخر الآيات سداد رأيه واجتهاده، وعُرف عدله وإحسانه وإيمانه، بعد أن خيّرهم بين أن يؤمنوا أو يبقوا على الكفر ولكلّ جزاءه فمن استمرّ على كفره وشِركه بربّه فسوف يُعذّب ثمّ يُردّ إلى ربّه فيعذّبه عذابا نُكُرا أي شديدا بليغا وأمّا من آمن واتّبعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له فله جزاء الحسنى أي في الدّار الآخرة عند الله عزّ وجل[1]

---

[1] - انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج5، ص 172-174، ابن عاشور، التحرير، ج16، ص 25 – 26.

أمّا الرحلة الثانية فكانت إلى موضع مطلع الشّمس وهو الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولا من معمورة الأرض أي غاية الأرض المعمورة من جهة المشرق[1] ولم يزد القرآن في وصف بيئة القوم عن أنّ الشّمس لا يحول بينهم وبينها ساتر ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾ واختلف المفسّرون في أمر السّاتر فذهبوا إلى القول بأنّه لا شيء يسترهم من اللّباس والبناء مثل القوم البدائيين، والملاحظ أنّ كلمة "سترا" جاءت نكرة مما يصلح أن تكون الاحتمالات كلّها واردة لأنّ ظاهر الآية العموم كما ذهب إلى ذلك الألوسي لوقوع النّكرة فيها في سياق النفي ما يقتضي أنهم ليس لهم ما يسترهم أصلا[2] أمّا عن معتقدات القوم فإنّ القرآن لم يذكر شيئا عن ذلك ولكن استنادا إلى سياق الآية فيُحتمل أن يكون حالهم مثل سابقيهم من الشّرك والوثنيّة، لذلك لم يُعد القرآن ذكر ذلك"إذ يرى أغلب المفسّرين أن القوم كانوا بدائيين وثنيين، وأن ذا القرنين عاملهم بنفس الخطّة التي وضعها لدستور حكمه: زجرا للمفسدين، وإحسانا بالمصلحين، لأن السّياسة الرّشيدة لدى الحاكم المؤمن لا تتغيّر مع النّاس، ولا مع الزّمان والمكان، وتلك هي العبرة والفائدة العظمى التي نستخلصها من القصة كلّها، فما أحوج حكام المسلمين اليوم لانتهاج تلك السّياسة الرّشيدة، حتى يمكّن لهم الله في الأرض كما مكّن لذي القرنين."[3]

وعند النّظر إلى هذه الأحداث من رحلتي المغرب والمشرق نَخْلُص إلى أنّ ذي القرنين كان يهدف إلى نشر الدّين الحقّ بدعوة النّاس إلى عبادة الله وحده وتحذيرهم من عاقبة الكفر وتبشيرهم بجزاء الإيمان والعمل والصّالح، وقد اتّبع في سبيل تحقيق غايته سياسة حكيمة تضمن العدل والمساواة بين أفراد المجتمع الواحد، تحفّه رعاية الله وحفظه وتوفيقه

---

[1] – الألوسي، روح المعاني، ج8، ص 357.

[2] – الألوسي، المرجع نفسه، ج8، ص 357.

[3] – كعباش، نفحات الرحمان، ج8، ص 256.

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدَ اَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ فجملة بما لديه، بمعنى: ما عنده من عظمة الملك من جند وقوة وثروة، والخُبر العلم والإحاطة بالخبر، كناية عن كون المعلوم عظيما بحيث لا يحيط به علما إلاّ علاّم الغيوب.[1]

ونسجّل هنا لفتة بيانية جميلة من سيد قطب عن التّناسق الفنّي في هذه الآيات حيث يقول: ونقف هنا وقفة قصيرة أمام ظاهرة التّناسق الفنّي في العرض، فإنّ المشهد الذي يعرضه السّياق هو مشهد مكشوف في الطّبيعة: الشّمس ساطعة لا يسترها عن القوم ساتر، وكذلك ضمير ذي القرنين ونواياه كلّها مكشوفة لعلم الله، وكذلك يتناسق المشهد في الطّبيعة وفي ضمير ذي القرنين على طريقة التّنسيق القرآنية الدقيقة.[2]

أمّا الرحلة الثالثة فكانت إلى موضع بين السدّين وهما ها هنا فيما ذُكر جبلان سدّ ما بينهما، فردم ذو القرنين حاجزا بين يأجوج ومأجوج ومن وراءهم، ليقطع مادّ غوائلهم وعبثهم عنهم[3]

وهذا ما يخصّ البيئة الطّبيعة الجغرافية الواقعة بين جبلين، أمّا عن حال القوم ولغتهم فقد بيّن القرآن أنّهم قوم لا يكادون يفهمون قولا من لغة ذي القرنين وجنوده لغرابة لغتهم، وقلّة فطنتهم، وأجاز بعض أن يكون القول الفهم مطلقاً، ولو بالإشارة أو ما من شأنه أن يقال ليشمل الإشارة ونحوها، ونفي كاد كغيرها، فمعنى كاد يفعل: قَرُب أن يفعل، ومعنى ما كاد يفعل: ما قَرُب أن يفعل، وقد يفعل بعد قُربه، وقد لا يفعل[4] فالله تعالى لم ينف الفهم عنهم كليّة بل كانوا يفهمون بعض ما يقوله ذو القرنين وربّما بالإشارة كما ذُكر والمهمّ أنّ اللّغة لم تكن حاجزا للتّواصل والسّعي وراء القضاء على ظُلم وفساد ياجوج وماجوج.

---

(1) – انظر: ابن عاشور، التحرير، ج16، ص 30.

(2) – سيد قطب، الظلال، ج16، ص 2292.

(3) – الطبري، جامع البيان، ج18، ص 102.

(4) – اطفيش، امحمد بن يوسف، تيسير التفسير، ج7، ص 437.

ثمّ بيّن السّياق المحاورة التّي جرت بين هؤلاء القوم وبين ذي القرنين فقد اشتكوا إليه فعل ياجوج وماجوج من الإفساد في الأرض ولمعرفة كيفيّة هذا الفساد نذكر ما قاله الرّازي من أنّ المفسّرين اختلفوا في كيفيّة إفسادهم في الأرض فقيل: أنّهم كانوا يقتلون النّاس وقيل كانوا يأكلون لحوم النّاس وقيل كانوا يخرجون أيّام الرّبيع فلا يتركون لهم شيئا أخضر وبالجملة فلفظ الفساد مُحتمل لكلّ هذه الأقسام والله أعلم بمراده.[1]

وأمام هذا الفساد الذي وقفوا عاجزين عن صدّه طلب القوم منه أن يجعل لهم حدّا بإقامة السدّ الذي يحول دون وُصولهم إليهم وكفّ أذاهم عنهم مُقابل أجر ومكافئة؛ فمن خلال هذا الطّلب ندرك مدى الاستضعاف والأذى الذي لحق بهم من قبل قوم مُفسدين، ليبيّن الله بعد ذلك أنّ عطاءه وليس عطاء البشر الآخرين هو الذي يقلب الموازين ويضع حدّا للمأساة، وللإفساد، وذلك على لسان ذي القرنين الذي أجابهم قائلا:﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ فكان هذا جوابه على المكافأة، أما جوابه على الشكوى فهو:﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ اَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ءاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيَ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَّظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكًّا وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [الكهف: 95-98] بهذه الإجابة تنتهي قصّة ذي القرنين [2] التي تبيّن أهميّة الحركيّة في مواجهة الفساد انطلاقا من عقيدة راسخة أنّ الله يُعين العبد في سعيه إلى الإصلاح والتّغيير إن كانت هناك رغبة صادقة وعزيمة قويّة باتّخاذ الأسباب ومباشرة العمل، لذلك دعا ذو القرنين الله أن يوفّقه في مسعاه وطلب من القوم أن يُعينوه "بفَعَلة وصنّاع يُحسنون البناء والعمل."[3]

---

(1) – الرازي، مفاتيح الغيب، ج21، ص 499.

(2) – محمود البستاني، دراسات فنية في القصص القرآني، ص 306-307.

(3) – الطبري، جامع البيان، ج18، ص 112.

وكان ثمرة هذه الجهود قطع فساد قوم ياجوج وماجوج ببناء سدّ منيع لا يمكن الصّعود من فوقه لارتفاعه ولا نقبه من أسفل لاستحكامه ولا على شيء مما يمكّنهم من تجاوزه؛ وأمام هذا الإنجاز العظيم يقف ذي القرنين حامدا شاكرا لربّه غير متفاخر ولا مغترٍ بقوّته ونلحظ هنا قوّة إيمانه واعتزازه بربّه من خلال ترديد كلمة ربّي ثلاث مرّات وفيه أيضا دعوة عمليّة لمن حوله إلى الإيمان بالله وحده وبيان فضله وقدرته ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّا وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ نطق بالحكمة لأنّه يعلم أنّ كلّ حادث صائر إلى زوال، ولأنّه علم أنّ عملا عظيما مثل ذلك يحتاج إلى التعهد والمحافظة عليه من الانهدام، وعلم أن ذلك لا يتسنى في بعض أزمان انحطاط المملكة الذي لا محيص منه لكل ذي سلطان... وجملة وكان وعد ربي حقا تذييل للعلم بأنه لا بد له من أجل ينتهي إليه وكان تأجيل الله الأشياء حقا ثابتا لا يتخلف.[1]

المطلب الثاني: علاقة سياق القصة بالسّياق العام للسّورة

آيات قصّة ذي القرنين جاءت في سياق الحديث عن بيان طرف من سبب نزول سورة الكهف حيث فصّلت الآيات في بيان بعض ما كان من خبر الرّجل الطّواف الذي بلغ مشارق الأرض ومغاربها كما قال أحبار اليهود لمشركي مكّة بأن يسألوا الرّسول ﷺ عنه فقالوا:" وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها. ما كان نبؤه؟"، فكان من خبره ثلاث رحلات إلى المغرب والمشرق وموضع بين السدّين، وكلّ رحلة عبارة عن ابتلاء واختبار لذي القرنين على ما أنعم الله به عليه من التّمكين في الأرض وتوفير أسبابه الموصلة إلى نشر العدل والخير والفضيلة بما يُرضي الله عزّ وجلّ.

فالرّحلة الأولى تمثّل الابتلاء في اتّخاذ الحكم العادل في حقّ القوم الذين قصدهم في موضع مغرب الشّمس، حيث تبيّن عدله وإحسانه وسداد رأيه باتّخاذ قرار القتل لمن بقي على كُفره، والإحسان إلى من آمن وعمل صالحا، كذلك سيرة الملوك العدول في قومهم بالسّعي في القضاء

---

[1] - ابن عاشور، التحرير، ج16، ص 39-40.

على الفساد وأهله وإنصاف الخيّرين، وإحقاق العدل،"وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسناً، ومكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً؛ ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة...عندئذ يجد الناس ما يحفزّهم إلى الصّلاح والإنتاج، أمّا حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدّمون في الدّولة؛ وإذا العاملون الصّالحون منبوذون أو محاربون، فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد."[1]

أمّا الرحلة الثانية إلى مطلع الشّمس فيُحتمل أنّه سار فيهم مثل سيرة سابقيهم كما أشرنا إليه من قبل، ويُحتمل أيضا أن يكون من فعل ذي القرنين بناء مساكن أو دور أو خيم مما يستر القوم من الشّمس أو توفير ملابس تسترهم، وتعليمهم كيفية حياكتها وخياطتها فهذا كلّه داخل في معنى السّتر لأنّ اللّفظ في سياق الآية جاء نكرة والله أعلم بما يُنزّل.

والرّحلة الثالثة إلى موضع بين السدّين كانت ابتلاء شكر نعم الله على ذي القرنين، فقد وجد قوما يشكون من الفساد والاستضعاف الذي يلقونه من ياجوج وماجوج، فخلّصهم منهم ببناء سدّ عظيم يحول بينهم وبين القوم المفسدين فكان هذا نجاحا باهرا وإنجازا عظيما يتباهى به ويفتخر به إلاّ أنّه في غمرة الفرح ونشوة الإنجاز تذكّر الخالق الموفّق لكلّ خير ونسب الفضل إليه تعالى عكس ما صدر من صاحب الجنّتين الذّي نسي المنعم وتكبّر وتفاخر بما يملك من ثروة وجاه.

ونستشعر من خلال هذه الرّحلات قوّة إيمان ذي القرنين وحسن توكّله على الله وإخلاص العبوديّة له ويتجلّى ذلك في موقفه من المكافئة التّي عرضها القوم عليه ليخلّصهم من شرّ ياجوج وماجوج بردّها وطلب العون من الله والتوكّل عليه تعالى باتّخاذ الأسباب والاستعانة بما آتاه الله من القوة والعلم والحكمة، والتّي كانت السّبب الرّئيس فيما وصل إليه من نجاحات بتوفيق الله تعالى له، فالمواقف التّي مرّت بنا في أحداث القصّة والقرارات التّي اتّخذها ذي القرنين تُعطي لنا

[1] – سيد قطب، الظلال، ج16، ص 2291.

مؤشّرات على أنّ ذي القرنين خرج من الابتلاء منتصرا بفضل توكّله على الله وصدق إيمانه وأخذه بالأسباب التّي كانت كفيلة للنّجاة من الفتن، وهذه حلقة من الحلقات المتّصلة بسياق السّورة العام والتّي تبيّن نوعا آخر من الفتن الخاص بالسُّلطة والمِلك وكيفيّة النجاة منها بصدق الايمان بالله تعالى والتوكّل عليه والأخذ بالأسباب.

المطلب الثالث: تحكيم السياق في بعض قضايا القصّة

وردت في القصّة تساؤلات كثيرة حول شخصيّة ذي القرنين وهل هي شخصيّة تاريخية أم شخصية تتكرّر في كلّ زمان ومكان ضُربت مثلا في القرآن الكريم، فقد اختلف المفسّرون قديما وحديثا في تحديد اسمه ومكانه والزمان الذي عاش فيه لأنّ القرآن لم يذكر شيئا من ذلك فقيل بأنّه الاسكندر المقدوني وقيل: إنه ملك من ملوك حِمير في اليمن، وقد يكون غيرهما فهي احتمالات واردة بالاستناد إلى كتب التّاريخ المدوّن والآثار، في غياب نصّ من كتاب أو حديث صحيح يفصل في ذلك.

وإذا التفتنا إلى النصّ القرآني نجد أنّ اسم ذي القرنين ذُكر في سياق الحديث عن بعض شؤونه التي تدعوا إلى النّظر والاعتبار ﴿ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾ وبالتالي فليس مطلوبا منّا البحث عن أصله وفصله وزمانه ومكانه، لأنّ ذلك من شأن كتب التاريخ والقرآن لا يُعنى بالتّسجيل التّاريخي للأحداث "فشأن ذي القرنين الذي يقصّ القرآن طرفاً من سيرته، شأن كثير من القصص الوارد في القرآن كقصص قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وغيرهم، فالتاريخ مولود حديث العهد جداً بالقياس إلى عمر البشرية، وقد جرت قبل هذا التاريخ المدوّن أحداث كثيرة لا يُعرف عنها شيئاً، فليس هو الذي يستفتى فيها! ولو قد سلمت التوراة من التحريف والزّيادات لكانت مرجعاً يعتمد عليه في شيء من تلك الأحداث، ولكن التوراة أحيطت بالأساطير التي لا شكّ في كونها أساطير وشحنت كذلك بالروايات التي لا شكّ في أنّها مزيدة على الأصل الموحى به من الله، فلم تعد التوراة مصدراً مستيقناً لما ورد فيها من القصص

التاريخي، وإذن فلم يبق إلاّ القرآن الذي حفظ من التّحريف والتّبديل هو المصدر الوحيد لما ورد فيه من القصص التاريخي."[1] وبالتّالي فإنّنا نقف على المنهج الأسلم في مثل هذه القضايا في حدود النصّ القرآني ولا نتجاوزه إلى غيره والله أعلم بما يُنزّل.

---

[1] – سيد قطب، الظلال، ج16، ص 2290.

المبحث الرّابع: أسلوب الدعوة ومضمونها

شخصيّة لقمان التّي لم تُذكر إلاّ في السّورة التّي تسمّت باسمه مثل لمن فضّله الله تعالى بحكمته فعمل بها بما يَقتضي شكر المتفضّل الواهب، وقد خلّد القرآن ذكر الوصايا الحكميّة التّي ذكرها لقمان لابنه لما تضمّنته من وعظ وإرشاد، وتوجيه إلى أمور عقديّة إيمانية وسلوكيّات عباديّة أخلاقيّة نُحاول من خلال هذا المبحث بيان تلك المعاني والتوجيهات في ثلاث مطالب من سياق السّورة وسياق المقطع ثمّ العلاقة بين سياق القصّة والسّياق العام للسّورة.

المطلب الأول: سياق السورة

سمّيت سورة لقمان بهذا الاسم لذكر قصّة لقمان الحكيم فيها والتّي اشتملت على وصاياه لابنه، وليس لها اسم غير هذا، وبه عُرفت بين القرّاء والمفسّرين، وهي مكّية كلّها عند ابن عبّاس في أشهر قوليه وعليه إطلاق جمهور المفسّرين[1]. وفي سبب نزولها يقول أبو حيان أنّ قريشا سألوا رسول الله ﷺ عن قصّة لقمان مع ابنه، أي سألوه سؤال تعنّت واختبار، وهذا الذي ذكره أبو حيان يؤيّده تصدير السّورة بقوله تعالى:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾[لقمان: 6][2] أمّا عن سياق السّورة العام فيذكر البقاعي أنّ مقصودها إثبات الحكمة للكتاب اللاّزم منه حكمة منزله سبحانه في أقواله وأفعاله، واعتبر بأنّ قصّة لقمان دليل واضح على ذلك[3]، فتبيّن من كلامه تمجيد القرآن والإقرار بحكمة مُنزله سبحانه الذي يؤتي الحكمة من يشاء وشخصيّة لقمان في السّورة مثال لمن خصّه تعالى بحكمته.

ويذكر سيد قطب أنّ السّورة تعالج قضيّة العقيدة التّي تعالجها السّور المكّية غالبا بأساليب شتّى، وفي هذه السّورة تتلخّص في توحيد الخالق وعبادته وحده وشكر آلائه، واليقين بالآخرة

[1] – ابن عاشور، التحرير، ج21، ص 137.

[2] – انظر: أبو حيان، البحر المحيط، ج8، ص 408، وابن عاشور، التحرير، ج21، ص 137.

[3] – البقاعي، نظم الدرر، ج15، ص 140.

وما فيها من حساب دقيق وجزاء عادل، واتّباع ما أنزل الله والتخلّي عمّا عداه من مألوفات ومعتقدات.[1]

وفي التّفسير الموضوعي نجد أن السّورة تتحدّث عن بيان الآيات والنّعم والدعوة إلى الايمان والشّكر[2]

أمّا صاحب الأساس فيعتبر بأنّ آيات السّورة تدعوا إلى الاهتداء بكتاب الله والشّروط اللاّزمة له، بالنّظر إلى مقدّمة السّورة التّي تصف القرآن بالحكمة وكذا الكلام عن حكمة الله، وعن إيتاء الله الحكمة لخلقه وقد أخذ هذا الموضوع حيّزا مُعتبرا من السّورة بما يدعوا الإنسان إلى اتّباع هديه واتّباع ما فيه من الحكمة.

ويمكن تلخيص الأقوال السابقة في أنّ السّياق العام للسورة لا يخرج عن إطار العقيدة وقضاياها من توحيد الخالق وعبادته، ومناقشة المشركين في موقفهم من الألوهيّة والنبوّة والإقرار بالبعث واليوم الآخر، وقد اختصّت السّورة الكريمة بالحديث عن حكمة الله وإيتاء الله الحكمة لمن يشاء من عباده من خلال قصّة لقمان التّي تضمّنت وصاياه الحكميّة لابنه في قالب نصح ووعظ، وكانت إجابة عن سؤال المشركين عن خبر لقمان وابنه كما قيل في سبب نزولها، وهو ما يُبيّن بأنّ السّورة لها جوّها الخاصّ فمن حيث الزّمان فهي مكيّة ومن حيث سبب النّزول فهي إثبات لنبوّة محمّد ﷺ بذكر خبر لقمان الذّي لم يكن ليُخبر به لولا وحي الله تعالى، وأنّ خبره في القرآن لم يرد إلاّ في هذه السّورة؛ أمّا من حيث الكلمات التّي تكرّرت في السّورة نجد كلمات ومعان متعلّقة بالعلم والحكمة تكرّرت في أكثر من آية من ذلك قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ فالآية تصف الكتاب بالحكيم في إشارة إلى أنّه ليس من لهو الحديث في شيء ولا من باطل القول الذي يُلهي الناس ولكنّه الحقّ الذّي يهدي إلى سواء السّبيل،

---

[1] – سيد قطب، الظلال، ج5، 2780.

[2] – مصطفى مسلم وآخرون، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج6، ص 26.

وتصدير السّورة بهذا الوصف للقرآن فيه براعة استهلال للغرض من ذكر حكمة لقمان[1] ومنه أيضا الآيات التالية: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾، والانكار على الجاهلين الذين يخاطبون النّاس بغير علم ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾.

بالنّظر إلى ما سبق ذكره من القرائن يمكن القول بأنّ السّياق العام للسّورة هو: الدّعوة إلى التّوحيد والايمان بالعلم والحكمة، وبيان آلاء الله وأفضاله التّي تستدعي الشّكر بالعلم والعمل، وذمّ من كفر واستكبر وأعرض عن هداية وحكمة الله تعالى.

المطلب الثاني: سياق المقطع

أوّلا: عرض أحداث القصّة

يذكر الله تعالى من قصّة لقمان في السّورة الكريمة في الآيات من 12 إلى 19 أنّه تعالى آتاه الحكمة، واشتغل بها ونفع بها من حوله، ومن ضمنها وعظه لابنه ووصاياه التّي شملت التّذكير بشؤون متعلّقة بالإيمان والعبادة والأخلاق وأدب المعاملة وأدب النّفس.

ثانيا: علاقتها بسباقها ولحاقها

علاقة قصة لقمان بسباقها تظهر من خلال واو العطف في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ فقد ذكر البقاعي بأنّها معطوفة على قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ بمقتضى حكمة الله تعالى الذي حكم على الكفار بالجهل وغباوة العقل والبُعد عن الحِكمة، وآتاها الذين قبلوا الآيات وأحسنوا التعبّد فما عبدوا صنما ولا مالوا إلى لهو كلقمان لأنّ ذلك

[1] — انظر: ابن عاشور، التحرير، ج21، ص 140.

عين الحِكمة لكونه وضع للشّيء في محلّه[1]، أمّا ابن عاشور ذهب إلى أنّ العطف هنا عطف قصّة لقمان على قصّة النّضر بن الحارث في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ لأنّها تضمّنت عجيب حاله في الضّلالة من عنايته بلهو الحديث ليُضلّ عن سبيل الله ويتّخذ سبيل الله هزؤا، وباعتبار كون قصّة لقمان متضمّنة عجيب حال لقمان في الاهتداء والحكمة، فهما حالان متضادّان.[2]

والامام الرّازي ذكر بأنّ علاقة القصّة بسباقها كان في سياق الحديث عن حكمة الله تعالى في تصريف شؤون خلقه لما بيّن فساد اعتقاد المشركين بسبب عنادهم وبيّن أن المشرك ظالم ضال، ذكر ما يدل على أنّ ضلالهم وظلمهم بمقتضى الحكمة والعلم وإدراك الحقائق بالعقل وإن لم يكن هناك نبوّة، فذَكر حكاية لقمان وأنّه أدركه بالحكمة. فالعلاقة إذا تتمثّل في مقابلة الحكمة التّي أوتيها لقمان بضلال المشركين أمثال النّضر الذين أضلّهم الله بعلمهم لما تبيّن فساد اعتقادهم وعنادهم وتكبّرهم عن الحقّ.

أمّا عن لحاقها، فيقول أيضا بأنّ الآية من قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَوَا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾إلى آخر الآية امتداد لما استدلّ به الله تعالى على وحدانيّته وعظمته حيث أردف ذلك بالخلق والإنعام وبينهما حكاية لقمان التّي تبيّن أنّ ذلك كلّه حقيقة تُدرك بالعلم والحكمة إن صادفت قلبا سليم الفطرة، واستعدادا للعمل بما أدركه الانسان واكتسبه بعلمه بمقتضى الشّكر للمُنعم سبحانه وتعالى.[3] وفيه تعريض وتوبيخ للمشركين المصرّين على الكفر بغير علم ولا اجتهاد ولا كتاب منير، ولكنّه التّقليد الأعمى لما كان عليه آباءهم، فالآيات إذا رجوع إلى سياق بيان دلائل وحدانيّة الله تعالى بذكر مشاهد الكون ومظاهر الإنعام والامتنان.

---

[1] – انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج 15، ص155.

[2] – ابن عاشور، التحرير، ج21، ص 148.

[3] – انظر: الرازي، مفاتح الغيب، ج25، ص 118.

ثالثا: تحليل أحداث القصّة

ذكر القرآن الكريم طرفا من خبر لقمان الحكيم في هذه السّورة والتّي كانت عبارة عن مواعظ حِكميّة من لقمان لابنه الذي كان يخاطبه بصفة البنوّة " يابُنيّ " ويوجّهه إلى طريق الخير ببيان حقائق عقديّة إيمانية وأخرى سلوكيّة نفسيّة؛ ولسائل أن يسأل عن سرّ بيان تلك الحقائق والتّوجيهات العقدية الإيمانية الأخلاقيّة وإجراءها على لسان رجل صالح مثل لقمان الذّي آتاه الله الحكمة﴿ وَلَقَدَ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ [لقمان: 12]، فلماذا لم يأمرنا الله تعالى أو ينهانا عن تلك الأمور مباشرة؟ ويُمكن الإجابة عن السّؤال بأنّ الله تعالى ذكر لقمان وما نطق به من الحقّ والهدى في مقابلة ما كان ينشره كفّار قريش من الضّلال والاعراض عن آيات الله لا سيّما النّضر بن الحارث الذّي كان يدّعي العلم والحكمة ويعقد مجالس لسرد قصص ملوك وشخصيات من أهل فارس وغيرهم من العصور الغابرة ليس ورائها نفع ولا فائدة ولا اعتبار سوى الصدّ عن سماع القرآن، ويقول لهم: هذا خير لكم مما يدعو إليه محمّد[1] مع أنّ النبيّ ﷺ كان يدعوهم إلى عبادة الله الواحد والتفكّر والتأمّل في ملكوته وفي حقيقة الأشياء من حولهم، فالذي يدّعي العلم والحكمة ينبغي أن يتنبّه إلى أبسط الأمور من حوله في الأنفس والآفاق حتّى يُدرك الحقّ والحقيقة الكامنة ورائها فالحكمة في بعض تعاريفها: معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية[2] بحيث لا تلتبس عليه الحقائق المتشابهة ويدرك الفرق بينها، فلقمان

---

[1] – انظر، كعباش، نفحات الرحمن، ج10، ص 395.، وتمام الخبر عند البيهقي في شعب الإيمان، قال: أخبرنا أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن محبوب الدهان، أنا الحسين بن محمد بن هارون، ثنا أحمد بن محمد بن نصر، ثنا يوسف بن بلال، ثنا محمد بن مروان، عن الكلبي، عن أبي صالح، في قوله: {ومن الناس من يشتري لهو الحديث} [لقمان: 6]– يعني باطل الحديث بالقرآن –، قال ابن عباس: " وهو النضر بن الحارث بن علقمة، يشتري أحاديث الأعاجم وصنيعهم في دهرهم، فرواه من حديث الروم وفارس ورستم واسفنديار والقرون الماضية، وكان يكتب الكتب من الحيرة والشام، ويكذب بالقرآن، فأعرض عنه فلم يؤمن به ."، حديث رقم: 4830، باب: حفظ اللسان عما لا يُحتاج إليه، أبو بكر البيهقي أحمد بن الحسين بن علي (ت: 458هـ) **شعب الإيمان**، تحق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط:1 1423هـ– 2003م، ج7، ص167.

[2] – الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج1، ص 31.

الحكيم وفّقه الله إلى إدراك الحقّ والعمل به، ونشره بين النّاس بدءا بالأقربين حيث كان يعظ ابنه بما خلّده القرآن في هذه السّورة الكريمة من توجيهات، وهذا هو واجب الحكيم من البحث عن الحقّ والعمل به، ونقله للنّاس جميعا قصد الاهتداء به، ولم يكن عمل النّضر بن الحارث من ذلك في شيء فقد وصفه الله تعالى بأنّه لهو وعبث وضلال لصرف النّاس عن الوحي: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذُهَا هُزُؤًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذْنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ اَلِيمٍ ﴾ [لقمان: 6-7]، وكذا زيادة بيان لمفهوم الحكمة الذّي تعالجه السّورة في سلوك بشري أقرب إلى مدركات الإنسان وأدعى للإقناع والفهم المبسّط، وهو ما اعتبره الشّيخ بيّوض من حكمة الله تعالى الذي يعلم أنّ النّاس يقتدي بعضهم ببعض ويُؤثّر بعضهم في بعض لذلك اتّخذ من شخص لقمان مثلا نقتدي به وهو بشر مثلنا، فما من سبب من الأسباب التي يعلم الله تعالى أنّها تُؤثّر علينا وتحملنا على طاعته وشكره وعلى قبول أمره واجتناب نهيه، وتصحّح عقائدنا وتُصلح أعمالنا إلاّ ويأتي بها ولو كانت حكمة يرويها عن عبد من عباده[1]

أمّا عن مضمون تلك الوصايا فنلحظ أنّها رتّبت ترتيب أولويات وفق أهمّيتها ووزنها في حياة وسلوك المسلم، فنجد توحيد الله وعدم الشّرك به في المقام الأوّل﴿ يَا بُنَيِّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ثمّ الوصيّة ببرّ الوالدين وبيان فضلهما الذّي يستوجب الشّكر للمُنعم أوّلا ثمّ للوالدين ﴿ أَنُ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ فقد رتّب الله تعالى عن شكره شكر الوالدين ترتيب استحقاق وأسبقيّة وأولويّة لأنّ الله هو الخالق والمنعم على الوالدين فهو أحقّ بالشّكر أوّلا ثمّ الوالدين لأنّ الله تعالى لما حكى وصاية لقمان لابنه بما هو شُكر الله بتنزيهه عن الشرك في الإلهية بيّن الله أنّه تعالى أسبق مِنّة على عباده إذ أوصى الأبناء بِبِرّ الآباء فدخل في العموم المنّة على لقمان جزاء على رعيه لحقّ الله في ابتداء موعظة ابنه، فالله أسبق بالإحسان

[1] – بيوض إبراهيم، في رحاب القرآن، ج11، ص 90. (بتصرف)

إلى الذين أحسنوا برعي حقّه.[1] على أنّ الآيتين من قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنُ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنَ انَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (15)﴾ هو من كلام الله عزّ وجلّ اعترض به على سبيل الاستطراد، تأكيدا لما في وصيّة لقمان من النّهى عن الشّرك.[2]

والسّياق في هذا الموضع جمع بين تأكيد النّهي عن الشّرك بالله، وبيان منّة الله على عباده الشّاكرين المحسنين، ووجوب شكر الوالدين لأنّ شُكرهما من شكر الله تعالى والوصيّة الثّالثة في تقدير علم الله وأنّه مُحيط بكلّ شيء والمتفرّد بالجزاء والحساب والعدل ﴿ يَا بُنَيِّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ اَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الاَرْضِ يَاتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ بعد أن بيّن قواعد تثبيت العقيدة من عدم الشّرك بالله ووجوب شكره وطاعة أوامره، ومنها طاعة الوالدين فيما يُرضي الله تعالى ويحفظ به إيمانه، انتقل السّياق لبيان سبل ترجمة تلك المعاني العقديّة في سلوك عمليّ، مصدّرا ذلك بقاعدة أنّ الله عليم ومُحيط ومطّلع على كلّ صغيرة وكبيرة في هذا الكون الفسيح، ومن ضمنها الأعمال التّي تصدر من الانسان من خير أو شرّ، فإنّ الله سيأتي بها يوم القيامة فمصيره مرتبط بها حتّى يُجازي كلاّ بما عمل الجزاء الأوفى.[3] فبدأ جملة هذه السّلوكات العمليّة العباديّة بإقامة الصّلاة ﴿يَا بُنَيِّ أَقِمِ الصَّلاَةَ ﴾ بإدامتها والمحافظة على أدائها في أوقاتها لأنّها عماد الأعمال لاشتمالها على الاعتراف بطاعة الله وطلب الاهتداء للعمل الصّالح[4] ولما لها من أثر في سلوك الفرد كما قال تعالى:﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: 45] لذلك أتبع الوصيّة بإقامة الصّلاة بما ينبغي أن تترك من أثر في سلوك المصلّي

---

[1] – ابن عاشور، التحرير، ج21، ص 156.

[2] – الزمخشري، الكشّاف، ج3، ص 494.

[3] – انظر: الطبري، جامع البيان، ج20، ص 141.

[4] – ابن عاشور، التحرير، ج21، ص 164.

بفعل الخير واجتناب الأعمال السيّئة فانتقل بذلك من السّلوك العبادي إلى السّلوك الأخلاقي الاجتماعي ﴿ وَامُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ "فهذه كلمة جامعة من الحكمة والتّقوى، إذ جمع لابنه الإرشاد إلى فعله الخير وبثّه في النّاس وكفّه عن الشرّ وزجره النّاس عن ارتكابه، ثمّ أعقب ذلك بأن أمره بالصّبر على ما يُصيبه."[1]

وبعد أن أرشد إلى الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والصّبر على البلاء أشار إلى ما ينبغي اجتنابه من التكبّر واحتقار النّاس والتّفاخر عليهم ﴿ وَلاَ تُصَاعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الاَرْضِ مَرَحًا اِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ووجّهه إلى السّلوك الصّحيح في مُعاملة النّاس من التّواضع ولين الجانب، والاعتدال في المشي، وخفض الصّوت ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الاَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ لأنّ ذلك ممّا يورث الثّقة وعزّة النّفس التّي يحسن أن تكون في شخصيّة المؤمن؛ وكانت هذه التّوجيهات الأخلاقيّة ختاما لوصايا لقمان لابنه والتي ساقها في أسلوب نصح ووعظ، مُراعيا فيها سُلّم الأولويات في حياة المسلم ابتداء بتثبيت قواعد العقيدة الصّحيحة، ثمّ ما يتعلّق بسلوك المؤمن اتّجاه الخالق المنعم من الشّكر له تعالى وما يتبعه من مظاهر ذلك الشّكر من طاعة الوالدين فيما يُرضي الله تعالى وإقامة الصّلاة والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والصّبر على البلاء والتّذكير ببعض السّلوكات العبادية الأخلاقية الاجتماعية من التواضع ولين الجانب وعدم التكبّر واحتقار النّاس، والاعتدال في المشي وخفض الصّوت مما يدخل في الآداب العامّة وحسن المعاشرة.

المطلب الثّالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة

القصّة سيقت لبيان مفهوم الحكمة ممثّلة في شخصيّة لقمان الذي اوتيها من لدن الرحمن واستعملها في سبيل معرفة الخالق وتوحيده ودعوة النّاس وتوجيههم إلى ذلك السّبيل، في مقابل بيان فساد اعتقاد المشركين وشدّة عنادهم وتمسّكهم الأعمى بأصنامهم لقلّة علمهم وانحراف

[1] - ابن عاشور، المرجع نفسه، ج21، ص 165.

فطرتهم، فلقمان شخصيّة بشريّة مثلها مثل جميع البشر اهتدى إلى توحيد الله بفطرته السّليمة وخصّه بالحكمة لما له من استعداد لها، وسعي للعمل بها بما يقتضيه مفهوم العبادة والشّكر للواهب، فمفهوم الحكمة يمكن أن يُؤخذ من قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنُ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾

فالحكمة هنا تُفسّر بالشّكر لله، والشّكر ثمرة الحكمة والله يُعطي الحكمة للمؤمن الذّي تظهر في سلوكه آثار الشّكر له تعالى علما وعملا، كما أشار إلى ذلك الزّمخشري فقال: بأنّ الحكمة الأصليّة والعلم الحقيقي: هو العمل بهما وعبادة الله والشّكر له"[1] وقد جاء في القصّة ما يفسّر بعض الحكمة التّي أوتيها لقمان ممّا أوصى به ابنه وعرفنا بعض معانيه في العنصر السّابق بما يُثبت صدق إيمان لقمان وعبوديّته لله تعالى؛ ولما كان سياق السّورة متعلّق بالدّعوة إلى التّوحيد والايمان بالعلم والحكمة، وبيان آلاء الله وأفضاله التّي تستدعي الشّكر بالعلم والعمل، وذمّ من كفر واستكبر وأعرض وحرم نفسه من الحكمة والهداية من عند الله تعالى، فقد كانت قصّة لقمان أدلّ شيء على ذلك، من حيث سباقها الذّي يشير إلى عطف قصّة لقمان على قصّة النّضر بن الحارث في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ كمثل لحالين متضادين في العلم والحكمة والهداية والضّلال، فقد بيّن الله أنّ ذلك كلّه بمقتضى حكمته تعالى "لما بيّن بأنّ المشرك ظالم ضالّ ذكر ما يدلّ على أنّ ضلالهم وظلمهم بمقتضى الحكمة وإن لم يكن هناك نبوّة وهذا إشارة إلى معنى أنّ اتّباع النبيّ عليه السلام لازم فيما لا يعقل معناه إظهارا للتعبّد فكيف ما لا يختصّ بالنبوّة، بل يُدرك بالعقل معناه وما جاء به النبيّ عليه السّلام مدرك بالحكمة وذكر حكاية لقمان وأنّه أدركه بالحكمة"[2] وقد أشرنا من قبل بأنّ القصّة سيقت لبيان مفهوم الحكمة ممثلّة في شخص لقمان الذي انتفع بحكمة الله تعالى ونفع بها غيره بالصّيغة التّي عرفناها في تحليل أحداث القصّة، وما لها من صلة بلحاقها

---

[1] – الزّمخشري، الكشّاف، ج3، ص 493.

[2] – الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج25، ص 118.

من حيث معرفة حقيقة وحدانيّة الله التّي تُدرك بالعلم والحكمة، دون الكفر والجدال فيها بغير علم ولا اجتهاد ولا كتاب منير، وفق ما كان عليه المشركون؛ وبذلك تنتظم معاني سياق القصّة بسياق السّورة، والله أعلم وأحكم.

المطلب الرابع: تحكيم السّياق في بعض قضايا القصّة

إنّ لورود شخصيّة لقمان مرّة واحدة في القرآن الكريم، وتسمية سورة كاملة باسمه فتح الباب واسعا لمعرفة أصله وفصله، واختلفت الرّوايات بين من يصفه بأنّه نبيّ مرسل أو مُلهم، ومن قائل أنّه كان عبدا صالحا من غير نبوءة، وقد نسبوا إليه صفات وأقوال غير مستندة إلى الصّحيح من كلام الله أو الرّسول ﷺ نقلها السّيوطي في الذرّ المنثور[1] ممّا يدعونا إلى التوقّف حيالها، ومن المفسّرين من رفض هذه الرّوايات أمثال الألوسي الذي قال بعد أن ذكر أقوال من سبقه من المفسّرين في شخص لقمان: "ولا وثوق لي بشيء من هذه الأخبار وإنما نقلتها تأسيا بمن نقلها من المفسرين الأخيار عن أني أختار أنه كان رجلا صالحا حكيما ولم يكن نبيا."[2]

وهو ما ذكره النصّ القرآني الذي وصفه بالحكمة وقد سيقت قصّته على ما رجّحنا لبيان مفهوم الحكمة، وقد قال سيّد قطب في معنى ذلك أنّ القرآن قرّر بأنّه رجل آتاه الله الحكمة، الحكمة التّي مضمونها الشّكر لله.[3] فبالمحصّلة نقول بأنّ لقمان عبد من عباد الله الصّالحين منّ الله عليه بالحكمة، حتّى صارت الحكمة لا تكاد تُذكر إلاّ وتقرن باسم لقمان.

---

[1] – انظر: السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت: 911هـ) **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، دار الفكر – بيروت – د س ط، ج6، 506-520.

[2] – الألوسي، روح المعاني، 11، ص 82.

[3] – سيد قطب، الظّلال، ج21، ص 2787.

المبحث الخامس: مجادلة الرسل وثواب تأييد دعوتهم

في هذا المبحث نُحاول بيان المعاني المتعلّقة بدعوة الرّسل الذّين أرسلوا إلى قرية لتبليغ رسالة الحقّ ودعوة النّاس إلى التّوحيد، وما لاقوه من صدّ وتكذيب من أهلها، والتعرّف على موقع الرّجل المؤمن من أحداث القصّة والذّي نطق بالحقّ وساند الرّسل في مُهمّة التّبليغ وكيف انعكس موقفه على مُجريات الأحداث فيها وذلك في أربعة مطالب، الأوّل يهتمّ بدراسة السياق العام لسورة يس والثاني متعلّق ببيان سياق المقطع وتحليل أحداث القصّة والثالث لبيان العلاقة بين سياق القصّة وسياق السورة العام، والأخير لتصحيح بعض المفاهيم التّي لا تستقيم مع السّياق القرآني في القصّة.

المطلب الأول: سياق سورة يس

سمّيت هذه السورة "يس" بمسمّى الحرفين الواقعين في أوّلها في رسم المصحف "يس " وقد ذكرها النبيّ ﷺ بذلك في الحديث الذي رواه أبو داود عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: « اقرأوا يس على موتاكم »[1]،وبهذا الاسم عنون البخاري والترمذي في كتابي التفسير؛ [2]والسّورة ممّا نزل بمكة ويأتي ترتيبها بعد سورة الجنّ وقبل سورة الفرقان.[3]

هذا فيما يتعلّق بمقدمة السّورة أمّا عن سياقها العام فيقول سيد قطب بأنّ الموضوعات التي عُرضت في سياق السورة هي موضوعات السور المكية وهدفها الأوّل هو بناء أسس العقيدة، لأنّها تتعرض لطبيعة الوحي وصدق الرّسالة، وتتعرض أيضا لقضيّة الألوهية والوحدانية، ولقضيّة البعث والنشور التّي يشتدّ عليها التّركيز في السّورة.[4]

---

[1] – أخرجه أبوداود، كتاب الجنائز، باب: القراءة عند الميت، رقم: 3123.

[2] – انظر: ابن عاشور، التحرير، ج22، ص 341.

[3] – انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 193.

[4] – انظر: سيد قطب، الظلال، ج23، ص 2956-2957.

وابن عاشور لم يختلف كثيرا عمّا ذكره سيد قطب من أنّ السّياق العام للسّورة تناول القضايا الرّئيسية للعقيدة وسمّاها بأمّهات أصول الدّين من إثبات الرّسالة، والوحي، ومعجزة القرآن، وما يعتبر في صفات الأنبياء، وإثبات القدر، وعلم الله، والحشر، والتّوحيد، وشكر المنعم، وهذه أصول الطّاعة بالاعتقاد والعمل، ومنها تتفرّع الشّريعة، وإثبات الجزاء على الخير والشّر مع إدماج الأدلّة من الآفاق والأنفس بتفنن عجيب، فكانت هذه السّورة جديرة بأن تُسمّى "قلب القرآن"[1] لأنّ من تقاسيمها تتشعّب شرايين القرآن كلّه، وإلى وَتِينِها يَنْصَبُّ مَجْرَاها.[2]

أمّا في التّفسير الموضوعي فنجد كذلك اعتبار محوريّة القضايا العقدية في سياق السّورة والتّركيز على إثبات البعث والجزاء وإقامة الأدلّة والبراهين على ذلك.[3]

وبناء على ما سبق نجد بأنّ الآراء متّفقة على محوريّة القضايا العقدية في سياق السّورة لذلك نقول بأنّ السّياق العام للسّورة يتمثّل في بناء الأسس العقدية، وبيان كمال قدرة الله تعالى مع التّركيز على البعث والنّشور من خلال ذكر الدلائل والبراهين المختلفة كإحياء الأرض، وسلخ الليل من النّهار وحركة الشّمس والقمر ...

المطلب الثاني: سياق المقطع

أوّلا: عرض أحداث القصّة

ذُكرت أحداث قصّة أصحاب القرية في سورة يس من الآية 13 إلى 29، وجاءت أحداثها في مشهدين الأوّل يذكر النصّ القرآني فيه أنّ الله تعالى أرسل رسلا إلى أهل قرية –ولم يحدّد

---

(1) – إشارة إلى الحديث الذي أخرجه الترمذي في سننه عن أنس قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا، وَقَلْبُ القُرْآنِ يس، وَمَنْ قَرَأَ يس كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِقِرَاءَتِهَا قِرَاءَةَ القُرْآنِ عَشْرَ مَرَّاتٍ.» قال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وبالبصرة لا يعرفون من حديث قتادة إلا من هذا الوجه. وَهَارُونُ أَبُو مُحَمَّدٍ شيخ مجهول. كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل يس، رقم: 2878.

(2) – انظر: ابن عاشور، التحرير، ج22، ص 344.

(3) – انظر: مصطفى مسلم وآخرون، التفسير الموضوعي لسور القرآن، ج6، ص 295.

اسم القرية ولا زمان إرسالهم ولا أسماء أولئك الرّسل الثلاثة- فقابل أهل القرية دعوتهم بالتّكذيب والتّشكيك وهدّدوهم بالرّجم والقتل إن هم أصرّوا على دعوتهم إلى عبادة الله الواحد؛ الثّاني متعلّق برجل جاء من أقصى المدينة يُعلن نُصرته للرّسل الثلاث واتّباع هديهم، وينصح قومه بذلك، ويعرض عقيدته أمامهم لكنّهم يُقدمون على قتله ليلقى الله شهيدا، ويبشّره الله بالجنّة، ثمّ يأتي التّعقيب على هذه الأحداث ببيان أنّ الله تعالى سلّط الله عليهم عقابه وأهلكهم بصيحة واحدة فإذا هم خامدون.

ثانيا: علاقتها بسباقها ولحاقها

جاءت هذه الآيات بعد أن بيّن الله تعالى في الآيات السّابقة حال مشركي العرب وإعراضهم عن الانتفاع بما جاء به النبيّ ﷺ فأعقبه بضرب مثل بحال قوم أشبه بحالهم ليكون ألصق شيء في الذهن وأقطع للمراء والجدال[1]، وتحصُل لهم العبرة من مغبّة الوقوع في مصيرهم من الهلاك. أمّا عن لحاقها فقد كانت تعقيبا على أحداث القصّة ﴿ يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَاتِيهِم مِّن رَّسُولٍ اِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(30) أَلَمْ يَرَوْا كَمَ اَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمُ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ(31) وَإِن كُلٌّ لَّمَا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ(32) ﴾ وذلك باستخلاص العبرة من الأمم المكذّبة للرّسل وتحذير الأمّة المقصودة بسوق المثل القصصي وهم كفّار قريش "فإنه تعالى ضرب لهم مثلا لحال إعراضهم وتكذيبهم الرسول ﷺ وما تشتمل عليه تلك الحال من إشراك وإنكار للبعث وأذى للرّسول ﷺ وعاقبة ذلك كلّه، ثم أعقب ذلك بالتّفصيل لإبطال ما اشتملت عليه تلك الاعتقادات من إنكار البعث ومن الإشراك بالله."[2] وتلك هي وظيفة المثل القصصي في السّورة، تقريب المفاهيم وتسليط الضّوء عليها زيادة في الحجّة وتأكيدا لها، فالقصّة مثّلت لحال

---

[1] – انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج16، ص 103-104.

[2] – ابن عاشور، التحرير، ج23، ص 12.

المشركين الذين ذُكروا في سباقها، والآيات اللاّحقة حملت معاني الاعتبار والحذر من اتّباع سَنَن المكذّبين للرّسل من أهل القرية، وإقامة الدّلائل والبراهين والآيات الدّالة على مُلك الله وقدرته.

ثالثا: تحليل أحداث القصّة

تبدأ أحداث القصّة بعرض مشهد يُحدّد ملامح شخصيّات القصّة متمثّلة في: أصحاب القرية، والرّسل الذين كانوا قد أُرسلوا إليهم ﴿إِذَ اَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ فكذّبوهما ثمّ أيّدهما الله بثالث ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ فكُذّب هو أيضا، وينقل لنا السّياق ما جرى بعد ذلك من حوار بين الرّسل وأصحاب القرية:

قالت الرّسل﴿ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾

فأجابوهم﴿ قَالُوا مَآ أَنتُمُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ اِنَ اَنتُمُ إِلاَّ تَكْذِبُونَ ﴾

﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَآ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾

﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴾

﴿ قَالُوا طَآئِرُكُم مَّعَكُمُ أَين ذُكِّرْتُم بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾

فمن خلال هذا الحوار يتبيّن لنا بأنّ الرّسل كانوا يُخاطبون أهل القرية ويُحاورونهم بطريقة منطقيّة وحضارية، بتقديم أنفسهم بأنّهم يحملون رسالة من الله تعالى، ويدعونهم للتّصديق والايمان بها، ولكنّ أهل القرية قابلوهم بجفاء وصدّ وتكذيب، لأنّهم لم يجدوا الحجج العقلية المقنعة ليُواجهوهم بها، واتّخذوا من التطيّر والتّشاؤم والتّشكيك سبيلا لرفض دعوة الرّسل "لأنّهم لم يستسيغوا ذلك الإخفاق، فانصرفوا إلى تلفيف السّبب لرفض دعوة المرسلين بشيء خفيّ لا قِبل لغير مُخترعه بالمنازعة فيه وهذه عادة أصحاب الأوهام السّخيفة والعقول المأْفُونَة أن يُسندوا الأحداث إلى مُقارناتها دون معرفة أسبابها ثم أن يَتَخيّروا في تعيين مقارنات الشُّؤم أمورا لا تُلائم شهواتهم وما ينفرون منه، وأن يُعَيّنوا من المقارنات للتَيمُّن ما يرغبون فيه وتَقْبَلُه طباعهم يُغالطون بذلك أنفسهم شأن أهل العقول الضّعيفة، فمرجع العِلَل كلّها لديهم إلى أحوال نفوسهم

ورغائبهم كما حكى الله تعالى عن قوم فرعون: ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَـٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ﴾ [الأعراف: 131] وحكى عن مشركي مكة ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ﴾[النساء: 78][1]فهؤلاء إذا ينطلقون في تبرير سلوكهم من أنانيّتهم رغبة في إرضاء نفوسهم المريضة وتعزيز موقفهم ومكانتهم بمختلف الطّرق والأساليب تصل إلى حدّ العدوان مثلما صرّحوا به ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ اَلِيمٌ ﴾ لذلك تعجّب الرسل من ردّة فعلهم كيف تفعلون بنا كذلك ونحن نبيّن لكم الأمر بالمعجز والبرهان ﴿ بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ حيث تكفرون ثمّ تصرّون بعد ظهور الحقّ بالمعجِزِ والبرهان.[2]

فنحن إذا إزاء نوعين من السّلوك نوع يُمثّله الرّسل مسالم يدعوا إلى ما يُؤمن به بطريقة عقلية منطقيّة حواريّة مُقنعة ونوع يمثّله أصحاب القرية، عدوانيّ مريض منحرف يُقابل الحجّة العقليّة بالسّفه والتطيّر والوسوسة نُصرة للنّفس ورغباتها التّي تُترجمُ إلى سلوك عدواني من التّهديد والوعيد بالرّجم والقتل، فهذا هو موقف المعاندين لرسالة الرّسل.

ويتساءل القارئ حيال هذه الأحداث وما جرى بين الرّسل الثلاث وأهل القرية أليس فيهم رجل رشيد؟ ألم يُصدّقهم أحد وقد جاؤوهم بالحقّ المبين؟ فيجد الإجابة في سياق الآيات التّالية ﴿ وَجَآءَ مِنَ اَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمُ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ءَاَتَّخِذُ مِن دُونِهِ ءَالِهَةً اِنْ يُّرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِي إِنِّيَ إِذًا لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ إِنِّيَ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ حيث انتقل السّياق إلى بيان حال من آمن برسالة الرّسل ودعا النّاس إلى اتّباع هديهم، بعد أن بيّن موقف المكذّبين وهم الغالبيّة، ويظهر من سياق الآيات أنّه لم يكن داخل المدينة ولم يشهد الحوار بين الرّسل والقوم المعاندين وتهديد الرسل بالرّجم، ولكن خبرهم شاع بين النّاس

---

[1] – ابن عاشور، التحرير، ج22، ص 362-363.

[2] – الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج26، ص 262.

ووصل إلى أقصى المدينة، "وفائدة ذكر أنّه جاء من أقصى المدينة الإشارة إلى أنّ الإيمان بالله ظهر في أهل رَبَضِ المدينة قبل ظهوره في قلب المدينة، لأنّ قلب المدينة هو مسكن حكّامها وأحبار اليهود وهم أبعد عن الإنصاف والنّظر في صحّة ما يدعوهم إليه الرّسل، وعامّة سكّانها تبعٌ لعظمائها لتعلّقهم بهم وخشيتهم بأْسهم، بخلاف سكّان أطراف المدينة فهم أقرب إلى الاستقلال بالنّظر وقلّة اكتراث بالآخرين لأنّ سكّان الأطراف غالبهم عَمَلة أنفسهم لقربهم من البدو...وأنّ الإيمان يسبق إليه الضّعفاء لأنّهم لا يصدّهم عن الحقّ ما فيه أهل السيادة من ترف وعظمة إذ المعتاد أنّهم يسكنون وسط المدينة.[1]

فهذا الرّجل المؤمن موقعه من القصّة كان لأداء مهمّة تأييد الرّسل وإقامة الحجّة على القوم الذين كذّبوا الرّسل وهو واحد منهم لكنّه مؤمن بالرّسالة ومستعدّ للتّضحية من أجلها بدليل سعيه لنصرة وإنقاذ الرّسل من كيد أهل القرية حيث بادرهم بالنّصح وحاول استمالتهم إليه واستعطافهم ومناداتهم ب"ياقوم" ليُشعرهم بأنّه واحد منهم ويُحبّ لهم الخير لأنّ في مُخاطبتهم بهذا الأسلوب من شأنه أن يلقى منهم الاستجابة المطلوبة فنصحهم باتّباع الرّسل، مُبيّنا لهم علامات الصّدق في رسالتهم من أنّهم يدعون إلى الهدى والخير، وأنّهم مُخلصون في دعوتهم ولا يسعون لتحقيق مكاسب شخصيّة، وكلّ ذلك ترغيبا في اتّباعهم ومُحاولة لإقناع أهل القرية بصدق رسالتهم، وواصل استمالة قومه ونصرة رسالة الرّسل بالجهر بعقيدته والدّعوة إليها، "فكان أوّل من آمن من أصحاب القرية ممّا يعني أنّ الإيمان المبكّر أو السّابق له أهميّته الكبيرة في النّشاط العبادي أو الخلافي في الأرض ... نقلته فطرته وموضوعيّته في التّعامل مع الحقائق إلى الاستجابة للرّسل منذ اللّحظة الأولى التّي تعرّف عليهم."[2]

ففي سلوك هذا الرّجل واستجابته الفوريّة للحقّ تعريض لموقف قومه المكذّبين وإشارة إلى عُنصر الزّمن وتكرار الدّعوة لهم مرارا لكنّهم لم يُذعنوا للحقّ وكذّبوا وتكبّروا بل حاولوا الاعتداء

[1] - ابن عاشور، التحرير، ج22، ص 365-366.

[2] - محمود البستاني، دراسات فنية في قصص القرآن، ص 545.

على الرّسل بالتّهديد والقتل والرّجم، فاستحقّوا العذاب المهين، في حين أنّ الرّجل لم يحتج إلى وقت طويل لاتّباع الرّسل فهداه الله إلى اختيار الطّريق الصّحيح فآمن وسارع إلى نُصرة الرّسل وبذل الجُهد في نصح قومه فنال بذلك الجنّة والنّعيم المقيم، والله أعلم.

المطلب الثالث: علاقة سياق القصة بالسّياق العام للسّورة

من خلال ما سبق في تحليل أحداث القصّة نجد أنّ سياق القصّة متعلّق ببيان موقف المؤمنين والمكذّبين اتّجاه دعوة الرّسل ومصيرهم الدُّنيويّ والأُخرويّ، وكان التّركيز أكثر على موقف المكذّبين وذلك من خلال تسليط الضّوء على موقفهم اتّجاه الحقّ الذي دعاهم إليه الرّسل الثّلاثة والرّجل المؤمن، فقد صدّوهم بشتّى أنواع الرّفض من التّشكيك والتّكذيب والتّهديد بالقتل والرّجم، الأمر الذّي يُنبئ بأنّهم ليسوا أهلا للإيمان ولا أمل في إصلاحهم، كما قال تعالى: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمُ ءَآنذَرْتَهُمُ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُومِنُونَ ﴾ [يس: 10] سواء أُرسل إليهم رسولين وعُزّز بثالث ورابع لا يؤمنون، لأنّهم طغوا وتجبّروا وتكبّروا فكان جزاؤهم الهلاك في الدّنيا والآخرة كما دلّت عليه الآيات من قوله تعالى:﴿ إِن كَانَتِ اِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾[يس: 29] وفي هلاكهم موعظة للمُشركين الذين ضرب الله لهم مثلا لحالهم بحال أصحاب القرية من الإعراض والتّكذيب للرّسول ﷺ وأصحابه وما شمله حالهم من الشّرك وإنكار البعث والحساب وعاقبة ذلك كلّه، فكان موقع القصّة وما أعقبها من الآيات خادمة للسّياق العام للسّورة من حيث تناولها لقضيّة عقديّة سلوكيّة متعلّقة بالإيمان والشّرك، من خلال شخوص القصّة الذّي يمثّله الرسل المبلّغين والرّجل المؤمن من طرف، والمكذّبين من أهل القرية من طرف آخر، بين مثل الإيمان الحقّ وما يصدر منه من سلوك خيّر ومثل الكفر والشّرك وما يصدر منه من سلوك سيّء.

وقد عالجت القصّة أيضا قضيّة عقديّة غيبيّة متعلّقة بالبعث والحساب والجزاء حيث بيّن الله تعالى أنّ الإنسان مسؤول على أفعاله وسيلقى جزاءه في الدّنيا والآخرة من ذلك مصير الرّجل

المؤمن الذي بُشّر بدخول الجنّة وفق دلالة الآية ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ [يس: 26] أي معناه البُشرى بدخول الجنة، وأنّه من أهلها[1] ومصير أهل القرية بهلاكهم في الدّنيا وحضورهم بين يدي الله للحساب والجزاء في اليوم الآخر، وفي ذلك إبطال لزعمهم بعدم وُقوع البعث والجزاء والحساب، وبذلك تتحدّد علاقة سياق القصّة بسياق السّورة من هذا الجانب من مُعالجة قضيّة عقديّة في قالب قصصيّ ماتع يُقرّب صورتها ومفهومها إلى الأذهان لإدراك أبعادها، والله أعلم.

المطلب الرابع: تحكيم السّياق في بعض قضايا القصّة

وردت روايات كثيرة في تفصيلات القصّة والتّي تُعتبر من الإسرائيليات، من ذلك أنّ عيسى عليه السّلام سمع بأهل قرية تدعى أنطاكية يحكمها ملك ظالم يعبد الأصنام اسمه " أنطيخس " فأراد دعوة أهلها إلى الإيمان بالله فبعث رجلين (شمعون، ويوحنا) فكذّبوهما فأرسل ثالثا يُدعى "بولس"، ومن ذلك أيضا أنّ الرجل الذي قدم من أقصى المدينة عُرف باسم: "حبيب النجار".[2]، إضافة إلى تفصيلات أخرى، نُفضّل عدم ذكرها خشية الإطالة؛ فهذه الرّوايات "لم يُنقل منها شيء عن النبيّ ﷺ، ولذلك فهي من القول بالظنّ والخرص والتّخمين، فنحن مضطرّون إلى السّكوت عن تلك الاسرائيليات فلا نقول بها، كما أننا لا ننفيها كلها ونجزم ببطلانها.[3]لذلك نلتزم بما جاء في النصّ القرآني ولا نتجاوزه إلى غيره إن لم يكن هناك مستند صحيح من السنّة ونستعين بالسّياق لبيان معاني الآيات.

---

[1] – الزمخشري، الكشاف، ج4، ص 11.

[2] – انظر هذه التّفصيلات عند القرطبي، أحكام القرآن، ج15، ص 14-22.

[3] – صلاح الخالدي، مع قصص السابقين في القِرآن، ص 678.

المبحث الخامس: تأييد دعوة الرّسل بالموعظة

في هذا المبحث يتطرّق الباحث إلى مُحاولة بيان معاني متعلّقة بالدعوة التّي مارسها المؤمن من آل فرعون في قومه كنموذج للشّخصيّة الدّاعية المؤمنة الصّادقة، والتّعرّف على الأساليب الدعويّة التّي استعملها في خطابه لقومه، والكشف عن العلاقة بين أحداث هذه القصّة والسّياق العام لسورة غافر في ثلاثة مطالب.

المطلب الأوّل: السياق العام لسورة غافر

ورد في تسمية السّورة أنّها تُسمّى بسورة "غافر" لذكر وصفه تعالى﴿ **غَافِرِ** الذَّنبِ ﴾ في أوّلها، وتسمّى أيضا ب:" حم المؤمن " في الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: « من قرأ حم المؤمن إلى ﴿إليه المصير﴾ وآية الكرسي حين يُصبح حُفظ بهما حتى يُمسي، ومن قرأهما حين يُمسي حُفظ بهما حتّى يصبح.»[1]وبذلك الاسم اشتهرت في مصاحف المشرق، وبذلك أيضا ترجمها البخاري في صحيحه والترمذي في الجامع، ووجه التّسمية أنّها ذُكرت فيها قصّة مؤمن آل فرعون ولم تذكر في سورة أخرى بوجه صريح.[2]،والسّورة مكيّة بإجماع كما ذكر ابن عطية، وقد رُوِي في بعض آياتها أنّها مدنيّة، وهذا ضعيف، والأوّل أصحّ.[3]

بعد هذه المقدمة لاسم السّورة ومكان نزولها نعرض أقوال بعض المفسّرين في سياقها العام كالآتي:

---

(1) – رواه الترمذي في سننه، باب: ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي، رقم: 2879. انظر: الترمذي محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك (ت: 279هـ) الجامع الكبير – سنن الترمذي، تحق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت- لبنان، ط: 1998م، ج5، ص 7.

(2) – انظر: ابن عاشور، التحرير، ج24، ص 75.

(3) – ابن عطية، المحرر، ج4، ص 545.

يرى البقاعي بأنّ السّياق العام للسّورة هو الدّلالة على عزّة الله الكاملة وعلمه الشّامل من خلال تصنيف النّاس إلى صنفين، وتوفية كل ما يستحقّه على سبيل العدل.[1]

أمّا سيّد قطب فيقول بأنّ السّورة تعالج قضيّة الحقّ والباطل، قضيّة الإيمان والكفر، قضيّة الدّعوة والتّكذيب، وأخيراً قضيّة العلوّ في الأرض والتجبّر بغير الحقّ، وبأس الله الذي يأخذ العالين المتجبّرين.[2]

ويذكر ابن عاشور بأنّ السّورة تضمّنت أغراضا من أصول الدّعوة إلى الإيمان، ومنها موعظة مؤمن آل فرعون لقومه بمواعظ تشبه دعوة محمّد ﷺ قومه.[3]

وفي التفسير الموضوعي نجد أنّ محور السّورة هو الصّراع العقلي بين الحقّ والباطل وأدب الحوار.[4]

ويمكن تلخيص هذه الأقوال بأنّها تدور حول قضيّة الدّعوة إلى توحيد الله والإيمان به مما شكّل صراعا بين الحقّ والباطل بين الإيمان والشّرك في قبول هذه الدّعوة التّي رُوعي فيها أسلوب التّرغيب تارة والتّرهيب تارة أخرى كما أفصحت عنه مقدّمة السّورة (غافر الذّنب قابل التّوب شديد العقاب ذي الطّول لا إله إلاّ هو إليه المصير) بالإضافة إلى جوّ السّورة العام، فالسّورة ممّا نزل بمكّة حيث كان الصّراع بين الحقّ والباطل على أشدّه بين النبيّ عليه السّلام والمشركين من قريش، وفي فترة قد اشتدّ فيها أذى المشركين على النبيّ ﷺ بعد وفاة أبي طالب أي ثلاث سنوات قبل الهجرة تقريبا لما ورد أنّ أبا بكر الصدّيق قرأ قوله تعالى: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً اَنْ يَّقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ حينما أقدم نفر من قريش على أذيّة رسول الله ﷺ حول الكعبة وهو يكفّهم عنه.[5] لذلك يصف سيد قطب جوّ السّورة ويشبّهه بجوّ معركة، معركة

(1) - انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج 17، ص 1.

(2) - سيد قطب، الظلال، ج24، ص 3065.

(3) - انظر: ابن عاشور، التحرير، ج24، ص 77.

(4) - مصطفى مسلم وآخرون، التفسير الموضوعي لسور القرآن، ج 6، ص 528.

(5) - انظر: ابن عاشور، التحرير، ج24، ص 76.

بين الحقّ والباطل، وبين الإيمان والطّغيان، وبين المتكبّرين المتجبّرين في الأرض وبأس الله الذي يأخذهم بالدّمار والتّنكيل، تنسم خلال هذا الجوّ نسمات الرّحمة والرضوان حين يجيء ذكر المؤمنين، ذلك الجوّ يتمثّل في عرض مصارع الغابرين، كما يتمثل في عرض مشاهد القيامة وهذه وتلك تتناثر في سياق السورة وتتكرّر بشكل ظاهر وتُعرض في صورها العنيفة المرهوبة المخيفة متناسقة مع جوّ السّورة كلّه، مشتركة في طبع هذا الجوّ بطابع العنف والشدّة.[1] فالسّورة شأنها شأن السّور المكيّة التّي تدعوا إلى تثبيت المبادئ العقدية الإيمانيّة من توحيد الله وبيان لأسمائه الحسنى وصفاته العلا وسرد للبراهين العقلية وبيان للآيات الكونية الدالة على عظمته ووحدانيّته، والكشف عن الصّراع بين الحقّ والباطل بين أهل الإيمان وأهل الكفر ومصير كلّ طرف، وإنّ لكلّ سورة من اسمها ما يدلّ على مقاصدها فالسّورة تُسمّى بصفة من صفات الله الحسنى الغافر، وتسمّى أيضا بالمؤمن إشارة إلى مؤمن آل فرعون الذّي جهر بدعوته وكشف عن إيمانه متحدّيا في ذلك أعتى طاغية على الأرض فرعون اللّعين، ودعا قومه ورغّبهم إلى عبادة الله الواحد، وحذّرهم من بأسه.

ووفقا لهذه القرائن يمكننا القول بأنّ السّياق العام للسّورة يتعلّق بسُبل الدّعوة إلى توحيد الله العزيز الغفّار، والثّبات على الإيمان والحقّ في مقابل الكفر والجحود، وبيان سنّة الله التّي قد خلت في عباده.

المطلب الثاني: سياق المقطع

أوّلا: عرض أحداث القصّة

جاءت أحداث قصّة مؤمن آل فرعون في سورة غافر في الآيات من 28 إلى 47 ولم تتكرّر في أيّ سورة أخرى، وقبل أن نستعرض أحداث القصّة مُجملة نذكر ما قيل في مؤمن آل فرعون

---

[1] - سيد قطب، الظلال، ج 24، ص 3065.

ومن هو؟ مُكتفين بما أورده الطبري في تفسيره حيث تعرّض لهذه النّقطة وفصّل فيها القول وأشار إلى أنّ أهل العلم اختلفوا فيه على قولين:

الأوّل: أنّه كان من قوم فرعون، غير أنّه كان قد آمن بموسى، وكان يُسِرّ إيمانه من فرعون وقومه خوفا على نفسه.

الثّاني: كان إسرائيليّا، ولكنّه كان يكتم إيمانه من آل فرعون.

غير أنّ الطبري رجّح القول الأوّل من أنّه من قوم فرعون مستدلاّ بقول السدّي الذي قال بأنّ فرعون قد أصغى لكلامه، واستمع منه ما قاله، وتوقّف عن قتل موسى عند نهيه عن قتله. وقيله ما قاله. وقال له: ما أريكم إلاّ ما أرى، وما أهديكم إلاّ سبيل الرّشاد، ولو كان إسرائيليّا لكان حَريّا أن يُعاجل هذا القاتل له، ولملئه ما قال بالعقوبة على قوله، لأنّه لم يكن يستنصح بني إسرائيل، لاعتداده إيّاهم أعداء له، فكيف بقوله عن قتل موسى لو وَجَدَ إليه سبيلا؟ ولكنّه لما كان من ملأ قومه، استمع قوله، وكفّ عمّا كان همّ به في موسى.[1]

ويُضاف إلى ذلك تكرار مناداته لفرعون وقومه بلفظة:" يا قومي "، لأنّه فرد منهم، وبهذا نقول بأنّ مؤمن آل فرعون رجل ينتمي إلى آل فرعون، آمن برسالة موسى عليه السّلام ولم يكن يُظهر إيمانه.

مُجمل أحداث القصّة:

لما دعا موسى عليه السّلام فرعون وقومه إلى الحقّ من ربّه، ظهر طغيان فرعون أكثر فأمر بقتل أبناء المؤمنين مع موسى عليه السّلام واستحياء نسائهم، وأكثر من ذلك قتل موسى عليه السّلام، فحينئذ انتفض رجل من آل فرعون وقام خطيبا مُدافعا عن النبيّ موسى عليه السّلام ومُعترضا على قتله وناصحا قومه باتّباعه وقد كانت خطوات جهوده الدعويّة على الجوانب الآتية:

---

(1) - انظر: الطبري، جامع البيان، ج21، ص 376.

الأوّل: استنكار قتل موسى لمجرّد قوله ربّي الله مع أنّه جاء بمعجزات تُؤيّد موقفه، ثمّ الاشارة إلى صدق نبوّة موسى من غير تصريح.

الثاني: حذّرهم من زوال مُلكهم إن استمرّوا في تكذيب رسالة موسى عليه السّلام.

الثالث: ذكّرهم بمصارع الأمم السّالفة التّي كذّبت رسلها، ومُلفتا نظرهم إلى أهوال يوم القيامة.

الرابع: الدّعوة الصّريحة لقومه باتّباعه، ونصحهم بإخلاص.

ثمّ اختتمت أحداث القصّة ببيان عاقبة المؤمن بتنجية الله له من كيد الأعداء ومكرهم، وعاقبة المكذّبين ومصيرهم المخزي يوم القيامة.

فهذه هي مجمل أحداث القصّة مع الجوانب التّي ركّز عليها هذا المؤمن في دعوته لقومه.

ثانيا: علاقتها بسباقها ولحاقها

إنّ أحداث قصّة مؤمن آل فرعون جاءت ضمن الآيات التّي تتحدّث عن قصّة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه، فقد تحدّى فرعون موسى والمؤمنين به فأمر بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم، وتمادى أكثر عندما هدّد صاحب الرّسالة بالقتل، ففي خِضمّ هذا الصّراع بين موسى وفرعون ظهرت شخصيّة مؤمن آل فرعون لتقتحم هذا الصّراع كطرف ثالث يحمل صفة المدافع عن رسالة موسى عليه السّلام ويقف في مواجهة ذلك الفعل البشع من القتل الذّي قد يطال صاحب الرّسالة، لإخماد نار الفتنة وردّ الشرّ عنه، متّخذا في ذلك أسلوب اللّباقة والكياسة حتّى لا يستثير حفيظة القوم[1] أمّا من حيث اللّحاق فإنّ الآيات جاءت لبيان مصير فرعون ومن تبعه قبل قيام السّاعة في البرزخ ويوم القيامة وما سيكون من أحوال أهل النّار في التّخاصم والمحاجّة بينهم، فيربط السّياق بين أحوال أولئك المجرمين في الدّنيا ومآلهم في الآخرة، ثمّ يمتدّ خطّ سير الأحداث إلى بيان مصير المؤمن ومصير آل فرعون قال تعالى: ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ(45) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ

[1]- انظر: كعباش، نفحات الرحمن، ج12، ص 132.

السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ(46)﴾ ثمّ أعقبه بمشهد من مشاهد جهنّم –والعياذ بالله– متمثّل في التّخاصم والمحاجة بين الضّعفاء والذين استكبروا من آل فرعون﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَآءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلَ اَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ(47)﴾ ففي هذه الآية يُفيد السّياق بأنّ الضّمير في (يتحاجّون) يرجع إلى آل فرعون ودليل ذلك تغيير السّياق في قوله بعد: (وقال الذين في النار) ومعناه وحاق بآل فرعون سوء العذاب إذ يتحاجون في النار فيقول الضّعفاء منهم للذين استكبروا إنا كنا في الدنيا لكم تبعا وكان لازم ذلك أن تكفّونا في الحوائج وتنصرونا في الشّدائد ولا شِدّة أشدّ ممّا نحن فيه فهل أنتم مُغنون عنّا نصيبا من النّار...وهذا ظهور لما رسخ في نفوسهم في الدّنيا من الالتجاء بكبريائهم ومتبوعيهم من دون الله يظهر منهم ذلك يوم القيامة.[1]

وبهذه المعاني نقف على موقع أحداث القصّة بين سباقها ولحاقها والعلاقة بينها من حيثُ ذكرُها ضمن سياق الصّراع بين فرعون وموسى في سباقها ومن حيثُ بيانُ مصير كلّ من المؤمن والمستكبرين ومن تبعهم من آل فرعون في لحاقها.

ثالثا: تحليل أحداث القصّة

من خلال تحليل أحداث القصّة نُحاول بيان أثر السّياق في المعاني المتعلّقة بالجانب الدّعوي فيها والتّركيز على خطاب المؤمن من آل فرعون:

- قوله تعالى: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً اَنْ يَّقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِنْ يَّكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَّكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الذِي يَعِدُكُمُ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ(28) ﴾

لما سمع المؤمن بقرار فرعون من قتل موسى استشعر الخطر ورأى من الضّروري أن يتدخّل فالقضيّة متعلّقة باستحلال دم نبيّ ورجل رساليّ مبعوث من الله تعالى فحياته في خطر

[1] - الطباطبائي، الميزان، ج17، ص 335-336.

والموقف يستدعي إظهار الإيمان والتخلّي عن التقيّة وتقديم مصلحة الدّعوة على المصلحة الشّخصيّة، "فإذا كان كتمان الدعوة والإسرار بها في بعض الظّروف حنكة وفطنة وبُعد نظر فإنّ الجهر بالدّعوة وإظهار الإيمان في أحيان أخرى أكثر حنكة وفطنة ورجولة وثباتا وإقداما، فهذا الموقف الإيمانيّ الدعويّ منه يقدّم لنا مَعلَماً من معالم الدعوة إلى الله ودرسا دعويّا في كتمان الدعوة وإسرارها أو الجهر بها ومتى يكون ذلك، ولينسق بين الموقفين مراعاة لمصلحة الدّعوة وقوّتها وتقدّمها وانتصارها."[1]

ولما كان الإيمان الخالص لله تعالى متمكّنا منه ألهمه الله الحكمة في مُعالجة الموقف ويتبيّن ذلك من خلال اختياره للكلمات التّي خاطب بها قومه ناصحا أمينا، حيث استهلّ خطابه باستقباح واستنكار الفعل الذّي هم مُزمعون على تنفيذه في حقّ موسى من قتله واستباحة دمه، وافترض الكذب قبل التّصديق بأسلوب الاستفهام الإنكاري "الذي يُعتبر نوعا من أنواع علم البيان يسمّيه علماؤنا "استدراج المخاطب" لما رأى بأنّ فرعون قد عزم على قتل موسى، والقوم على تكذيبه، أراد الانتصار له بطريق يخفي عليهم بها أنه متعصّب له، وأنّه من أتباعه، فجاءهم من طريق النّصح والملاطفة.[2] ومن حكمته كذلك أنّه استعان بأسلوب المجادلة والحوار وزرع الشكّ في نفوسهم، فإمّا أن يكون موسى كاذبا فهو يتحمّل مسؤوليّة كذبه فيُوصف بالكذب، وإمّا أن يكون صادقا وقد يُلاحظ القوم بوادر ذلك الشرّ المتوعّد به فيُحاولون اتّقاءه بتصديقه واتّباعه.[3]

– قوله تعالى:﴿ يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ يَّنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ يُواصل السّياق عرض النّصح المخلص الذّي نصح به المؤمن قومه وفي هذه الآية استعمل كلمة " ياقوم " على سبيل الاستعطاف وإثارة الانتباه إلى النّعم التّي يتقلّبون فيها أقوياء

[1] - انظر: صلاح الخالدي، مع قصص السابقين، ج3، ص 174.
[2] - أبو حيان، البحر المحيط، ج9، ص 253.
[3] - انظر: كعباش نفحات الرحمن ج12، ص 133.

متمكّنون في الأرض، تمهيدا لتخويفهم من غضب الله وبأسه الذّي لا سبيل إلى ردّه، "وراعى عقلية الفراعنة وتشبّثهم بالحكم فخوّفهم من زوال ملكهم في حالة عدم إيمانهم برسالة موسى ...وهذا النّمط من التّعامل يجّسد قمّة الإدراك السّياسي للموقف لقد جاءهم بلغة الناصح الحريص على بقاء ملكهم حتّى لكأنه واحد منهم وهو أسلوب أدعى إلى الإقناع كما أنّه لا يستدعي ردود فعل انتقاميّة من قبل فرعون وبِطانته بقدر ما يُفضي إلى العناد والمخاصمة منهم وبالفعل نجد فرعون يُصرّ على رأيه الضال[1] ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمُ إِلاَّ مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمُ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ(29)﴾

– قوله تعالى: ﴿ يَاقَوْمِ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الاَحْزَابِ(30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ(31)﴾ بعد أن نصح قومه وحذّرهم من زوال مُلكهم وهو قريب منهم وماثل بين أعينهم، ذكّرهم بما سمعوا به ولم يشهدوه من مصارع الأقوام الذين كذّبوا رُسلهم فأهلكهم الله وما ظَلَمَهُم، ولم يكتف بذلك بل أضاف التّحذير من العذاب الآجل يوم القيامة فقال: ﴿ وَيَاقَوْمِ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِي(32) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُّضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(33) ﴾ فقد راعى المؤمن في خطابه التّرتيب المنطقي وتدرّج مع قومه فبدأ من العالم المشاهد الحاضر ثمّ الارتداد إلى الماضي الغابر المندثر ثمّ الانتهاء بعالم الغيب ليُوجّههم إلى سنن الله في المجتمعات فيكون خطابه بذلك أدعى للقبول.

– قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَّبْعَثَ اللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ(34) الذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ اَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ(35) ﴾

---

[1] -التفسير البنائي، محمود البستاني، ج4، ص 160-161.

استعان المؤمن بالذّاكرة التّاريخيّة أو المؤثّر التّاريخي وذكّرهم بموقف آبائهم من رسالة يوسف عليه السّلام من الشكّ والجدال والصدّ عن الحقّ، ويُلاحظ هنا انتقاله من أسلوب النّصح والتّحذير والتّخويف إلى أسلوب اللّوم والعتاب لأنّه توسّم فيهم قلّة جدوى النّصح وأنّهم مصمّمُون على تكذيب موسى فارتقى في موعظتهم إلى اللّوم على ما مضى، ولتذكيرهم بأنّهم من ذرّية قوم كذّبوا يوسف لما جاءهم بالبيّنات، فتكذيب المرشدين إلى الحقّ شَنْشَنَة مَعروفة في أسلافهم فتكون سجيّة فيهم.[1] وهذا يدلّ على معرفته الجيّدة بأحوال المخاطبين في الماضي والحاضر مما يُمكّنه من معرفة المداخل التّي ينبغي أن يأتيها للتّأثير عليهم واستمالتهم لتقبّل دعوته، فقد كان "يقرن بين أسلوب التّرغيب وأسلوب التّرهيب وبين أسلوب التّذكير وأسلوب التّخويف ويُوظّف ثقافته الشاملة وبيانه المؤثّر وموضوعيّته الملحوظة وعقليته المتفتحة في الوصول إلى قلوب السّامعين."[2] وهي أساليب مهمّة في الدّعوة التّي ينبغي للدّاعية التنبّه لها والأخذ بها لتحقيق الأهداف المرجوّة من العمل الدّعوي باختيار أفضل الأساليب واستغلال مُختلف الوسائل المؤثّرة للوصول إلى قلوب المدعوّين.

- قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الذِي ءَامَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ(38) يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الاَخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ(39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ اَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُومِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ(40) ﴾ وهذا نداء آخر من المؤمن يقدّمه في إصرار بعد أن حاول فرعون صرف الانتباه عن دعوته بالحيلة السّخيفة التّي دبّرها مع وزيره، وفي هذه المرّة بدا أكثر جديّة بالإعلان الصّريح عن إيمانه، "ورتّب خطبته على أسلوب تقديم الإجمال ثمّ تعقيبه بالتّفصيل على النّحو الآتي:

. دعاهم إلى اتّباعه في الطّريق إلى الله واستعمل كلمة سبيل الرّشاد وهو مما تتوق إليه النّفوس ويسترعي أسماعهم فلعلّه سيأتيهم بما ترغب نفوسهم.

---

[1] - ابن عاشور، التحرير، ج24، ص 138.

[2] - صلاح الخالدي، مع قصص السابقين، ج3، ص 180.

. ولما لمح بوارق تقبّلهم لخطابه كرّر النّداء تأكيدا واستعان بحقائق مسلمة عندهم، من معرفته بأنّ وراء هذه الحياة حياة أبديّة فيها حقيقة السّعادة والشّقاء، وفيها الجزاء على الحسنات والسيّئات بالنّعيم أو العذاب، إذ كانت ديانتهم تثبت حياة أخرى بعد الحياة الدّنيا ولكنّها حُرّفت معظم وسائل السّعادة والشّقاوة، بناء على ذلك ذكّرهم بأنّ الحياة الدّنيا محدودة بأجل غير طويل، وأنّ وراءها حياة أبديّة، لأنّه علم أنّ أشدّ دفاعهم عن دينهم مُنبعث عن محبّة السّيادة والرفاهيّة، وذلك من متاع الدنيا الزّائل وأنّ الخير لهم هو العمل للسّعادة الأبديّة، فهذا الأسلوب الذّي اتّبعه المؤمن من نوع الأصول الموضوعة في صناعة الجدل، وبذلك تمت مقدمة خطبته وتهيأت نفوسهم لبيان مقصده المفسّر لإجمال مقدمته.[1] ثمّ انتقل إلى بيان عدل الله في العقاب والثواب يوم الجزاء الأُخروي، واستعان بأسلوب الترغيب إلى رحمة الله والتّشويق إلى جنّة النّعيم.

- قوله تعالى: ﴿ وَيَاقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِيَ إِلَى النَّارِ(41) تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ(42)لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيَ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ(43) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (44) فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِئَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ(45)﴾

يُواصل السّياق في هذه الآيات بيان التّرتيب المنطقي لخطابه فبعد أن أجمل في المقدّمة انتقل إلى المقصود من الخطاب إلى أن أنكر عليهم شيئا جرى منهم نحوه وهو أنّهم أعقبوا موعظته إيّاهم بدعوته للإقلاع عن ذلك وأن يتمسّك بدينهم وهذا شيء مَطوِي في خلال القصّة دلّت عليه حكاية إنكاره عليهم، وهو كلام آيس من استجابتهم لقوله فيه: ﴿ فستذكرون ما أقول لكم﴾ ومتوقّع أذاهم لقوله: ﴿وأفوّض أمري إلى الله﴾، ولقوله تعالى آخر القصة: ﴿فوقاه الله سيّئات ما مكروا﴾ فصرّح هنا وبيّن بأنّه لم يزل يدعوهم إلى اتّباع ما جاء به موسى وفي اتّباعه

[1] - انظر: ابن عاشور، التحرير، ج24، ص 149.

النّجاة من عذاب الآخرة فهو يدعوهم إلى النجاة حقيقة، وليس إطلاق النجاة على ما يدعوهم إليه بمجاز مرسل بل يدعوهم إلى حقيقة النجاة بوسائط.[1]

من خلال هذا العرض لأسلوب مؤمن آل فرعون في دعوة قومه نلحظ كيف أنّه يتمتّع بصفات شخصيّة ذات أبعاد عقدية إيمانيّة راسخة في قلبه وعقله ووجدانه فأفعاله لا تخرج عن إطار الإيمان الرّاسخ بالله تعالى من خلال الإخلاص في الدّعوة والحرص على الأخذ بيد قومه إلى سبيل الرّشاد وما أكسبه ذلك من الحكمة والجرأة والشّجاعة على قول الحقّ " فلقد كان بإمكانه أن يتمتع بدنياه مستفيدا من صلة قرابته لفرعون وأن يكون واحدا من تلك الفئة التي عادت الحقّ وحاربته حفاظا على المصالح والمناصب والجاه والمال لكنّه فتح قلبه للحقّ مُقَدِّما وَلَاية الدّين على وَلاَية القُربى والنّسب والمصالح الشّخصيّة فبذل كل ما في وسعه لجلب المصالح للدّعوة وحمايتها وإقناع النّاس بما تحمله هذه الدّعوة الربّانيّة المباركة من خير وصلاح للبشر كافّة.[2] فهذه الصّفات التّي كان يتمتّع بها جعلته متمكّنا من خطابه بدليل أن لا أحد اعترض عليه من المخاطبين ومن فرعون نفسه رُغم طغيانه، بالإضافة إلى ما يحمله تكرار عنصر النّداء ب: "ياقوم" من دلائل إخلاص الرّجل في دعوته شفقة عليهم ومحبّة للخير لهم وزيادة اهتمام وتقدير وحثّ على استجلاب عواطفهم وأنّه منهم سيرا على سَنَن الأنبياء في سلوكهم لهذا المنهج.

المطلب الثاني: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة

يقدّم الله لنا من خلال أحداث قصّة المؤمن من آل فرعون نموذجا لنصرة الرّسل والمؤمنين، فالله تعالى قيّض لموسى من يُدافع عنه من آل فرعون وفي مجلسه ومن كبرائهم ولا عجب في

[1] - انظر: ابن عاشور، التحرير، ج24، ص 152.

[2] - قاسم رياض، **الداعية الإيجابي في ضوء القرآن الكريم**، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية، المجلد الثاني، العدد:2، جوان 2014، ص 408.

ذلك فموسى عليه السّلام في حفظ الله ورعايته فكما حفظه الله من قبل رضيعا وألقى محبّته في قلب امرأة فرعون فقالت: ﴿لا تقتلوه ﴾كذلك ألقى محبّته في قلب الرّجل من آل فرعون فقام مُنافحا عنه قائلا: ﴿ أتقتلون رجلا أن يقول ربّي الله ﴾ ولكنّ المحبّة هنا كانت ممزوجة بالإيمان الخالص لله تعالى، فأحداث القصّة امتداد لمعاني الرّعاية الإلهيّة لرسله وللمؤمنين، وإنجاز وعده بالنّصرة لهم كما انتصر لموسى ولمؤمن آل فرعون، واختار الله تعالى الصّراع الجدلي بين المؤمن وفرعون وملئه تماشيا مع سياق السّورة من جهة في بيان الصّراع القائم دائما بين الحقّ والباطل بين الإيمان والشّرك ومقدّماته وتفاصيله ومآلاته، ومن جهة أخرى يكون متناسقا مع الجوّ العام للسّورة وقت نُزولها وما شمله من صراع عقدي إيماني وفكري في مكّة بين المشركين والنبيّ محمد ﷺ ومن معه من المؤمنين، لأنّ آيات المقطع جاءت "لتذكّر المجادلين في آيات الله من مشركي العرب بعبرة التاريخ قبلهم، ويوجّههم إلى السّير في الأرض، ورؤية مصارع الغابرين الذين وقفوا موقفهم، وكانوا أشدّ منهم قوّة وآثاراً في الأرض، ولكنّهم مع هذه القوّة والعمارة كانوا ضعافاً أمام بأس الله، وكانت ذنوبهم تعزلهم عن مصدر القوّة الحقيقيّة، وتستعدي عليهم قوى الإيمان ومعها قوّة الله العزيز القهّار."[1] وتذكّرهم بوعد الله في نصرة الحقّ في الحياة الدّنيا وفي الآخرة لذلك جاء التّعقيب على هذا المقطع بقوله تعالى:﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الاَشْهَادُ(51) يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ(52) ﴾ تسلية للرّسول ﷺ ومن معه من المؤمنين ليصبروا على كيد المشركين وكذبهم وأذيتهم في الصدّ عن الحقّ والتبجّح بالباطل ويعلموا بأنّ الله مُنجز وعده رسله بالنّصر والتّمكين، وقد امتدّ عنصر الجدل على طول السّورة بما يتناسق مع سياقها العام من الصّراع بين الحقّ والباطل وما يتوافق مع ما سيق في هذا المقطع من نموذج هذا الصّراع بين موسى وفرعون بين الرّجل المؤمن وفرعون وملئه ومن عاداه من قومه استخلاصا للعبرة من نصرة الحقّ وحسن العاقبة للمؤمنين، والخسران المبين للمتكبّرين "وذلك أنّ الكلام من ابتداء السّورة كان بذكر مُجادلة

[1]- سيد قطب، الظلال، ج5، ص 3077.

المشركين في القرآن بقوله تعالى:﴿ مَا يُجَادِلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الذِينَ كَفَرُوا ﴾[غافر: 4] وأومأ إلى الرّسول ﷺ بأنّ شِيَعَهُم آيلة إلى خسار بقوله: ﴿ فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاَدِ ﴾ [غافر: 4] ، وامتدّ الكلام في الردّ على المجادلين وتمثيل حالهم بحال أمثالهم من الأمم التي آل أمرها إلى خيبة واضمحلال في الدّنيا وإلى عذاب دائم في الآخرة ولما استوفى الغرضُ مُقتضاه من إطناب البيان بيّن الله لرسوله ﷺ عَقِبَه أنّه ينصر رسله والذين آمنوا في الدّنيا كما دلّ عليه قوله في آخر الكلام ﴿ فَاصْبِرِ اِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾[غافر: 55][1]

ونموذج المؤمن من آل فرعون الذي عليه مدار القصّة ساقه الله تعالى كنموذج لشخصيّة المؤمن المخلص لله تعالى والذي لا يخرج في أفعاله عن منهج الله في جميع المواقف التّي عرضتها القصّة في الخطاب الدّعوي الذي ألقاه على الملأ من فرعون وعِلية القوم والخطاب الآخر الموجّه إلى قومه ضمن الصّراع القّائم بين الحقّ والباطل بين الإيمان والكفر بين التّواضع والتّسليم للحقّ وبين التكبّر والعناد والمكابرة، فقد أبانت ملامح شخصيّته عن صفات ذات أبعاد عقديّة إيمانيّة انعكست واقعا في أفعاله ومواقفه من الشّجاعة والجرأة في قول الحقّ عند سلطان جائر، والأسلوب الدّعوي الذي مارس فيه عدّة مؤثّرات نفسيّة وعاطفيّة ومنطقيّة وتاريخيّة تنمّ عن ثقافة واسعة وحكمة في توظيف الكلمات المناسبة مع مُراعاة حال المخاطبين والحرص على هداية قومه والأخذ بأيديهم إلى سبيل الرّشاد، وعن المقامات الإيمانيّة التّي اتّصف بها خاصةّ مقام التوكّل على الله والذي صاحبه طوال جهاده الدّعوي وكان سببا من أسباب نجاته من كيد أعدائه، فهذا الرّجل المؤمن يُعتبر النّموذج الإيجابيّ للشّخصيّة المؤمنة الصّادقة الذي ساقه الله تعالى لتجلية معنى نصر الله للمؤمنين في معركة الإيمان والشّرك والحقّ والباطل والله أعلم.

---

[1] - ابن عاشور، التحرير، ج24، ص 167.

خلاصة الفصل:

من خلال مباحث الفصـــل يتبين لنا بأنّ قضـــيّة الدّعوة إلى الله من المحاور التّي اهتم بها القصـص القرآني كثيرا، وقد بيّن الله لنا في القرآن الكريم نماذج لدُعاة كان لهم إسـهام في تبليغ رسالة الحقّ للنّاس وتطبيق شرع الله في مختلف المستويات والمجالات، والسّعي لتحقيق سعادة الدّارين، ســيرا على نهج الأنبياء والرّســل، وقد عرفنا من خلال مباحث الفصــل نماذج لشـخصـيات صـالحة مُصـلحة تسـعى لنشـر الخير، مثل نموذج ذي القرنين وهو ملك عظيم ســعى لتحقيق العدل بين النّاس، ولقمان الحكيم في دعوة ابنه إلى مكارم الأخلاق، ونموذج مؤمن آل فرعون الذي يمثّل شـخصـيّة الدّاعية المؤمنة الصّـادقة، وكذا التّعرّف على الأسـاليب الدعويّة التّي اســتعملها في خطابه لقومه، وتأييد آخرين لرســلهم، وقد اتّســمت جهودهم الدّعويّة بالإخلاص وقوّة الإيمان وحســن التوكّل على الله واتّخاذ الأســباب من القوّة والعلم والحكمة في تبليغ الدّعوة.

وسـنتعرّف في الفصـل الموالي على السّـياق ودوره في بيان معان متعلّقة بالأسـس الاجتماعية والتربوية والأخلاقية، والتعرّف على هدايات الله لنا من خلال النّماذج التّي ســنتعرّض لها بالدّراسة.

الفصل الرّابع: أثر السّياق في بيان المعاني المتعلّقة بالجانب الاجتماعي في آيات القصص

وفيه عدّة مباحث:

- المبحث الأول: خطورة الحسد في السّلوك البشري وعاقبته
- المبحث الثاني: الابتلاء بالمنع والعطاء
- المبحث الثالث: أحوال العالم والمتعلّم
- المبحث الرابع: صفات الشّخصيّة المؤمنة الصّابرة
- المبحث الخامس: الآداب الاجتماعية
- المبحث السادس: بيان عاقبة مسلك البغي والطّغيان المالي
- المبحث السّابع: الابتلاء بالخير وعاقبة منع حقوق الغير

تمهيد:

مفهوم الجانب الاجتماعي الأخلاقي:

القرآن الكريم وما فيه من قضايا وتوجيهات لو تمعّنا فيها لوجدنا بأنّ موضوعها هو الإنسان بمقتضى الخلافة التّي شرّفه الله بها ودعاه إلى اتّباع المنهج السّليم الذي يستقيم عليه أمره في الدنيا والآخرة، فقد وصف الله تعالى القرآن الكريم بأنّه يهدي للتي هي أقوم﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُومِنِينَ الذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا(9)﴾ [الإسراء: 9]، ومن آيات هدايته أن وضع بين يديه المبادئ والقواعد والأسس الفكرية والاجتماعية والأخلاقية التي يمكن تطبيقها في الواقع البشري لنستفيد منها بقدر العلم بها والكشف عن منهج عملها والعمل على توظيفها فيما يعود عليه بالخير والصّلاح، فحاجة الإنسان إلى القيم والأخلاق ضروريّ لحياته لضمان استقرار اجتماعي وتوافق نفسي، "وقد وضع القرآن الكريم منهجا عمليّا لتحقيق ذلك من خلال القصّة القرآنيّة، بأن نأخذ مناهج سلوكنا من دراسة أهدافها والتمعّن في أحداثها وما جرى للسّابقين من خير وشر باعتبارها واقعا مُشاهدا وسنة لا تتخلف، فهذا المنهاج المستمدّ من المصدر الذّي لا يُخطئ (الوحي) هو وحده الذي يكفل السّعادة البشرية من حيث أنّه يحقّق مصالح النّاس ويُبعد عنهم الأذى والضّرر قال تعالى: ﴿ فَمَنِ اِتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى(123)﴾ [طه: 123] فالقصّة في إطارها العام تدعوا إلى المستوى الإنساني الفاضل من حسن الصّلة بالله ثمّ حسن الصّلة بالنّاس ويترتّب على ذلك إقامة الدّين وعدم التفرّق فيه وبالتّالي استقامة الخلق عن طريق مناهج السّلوك التّي دعا إليها الأنبياء والمرسلون."[1] فسنّة الله تعالى في الاجتماع البشري ماثلة في النّماذج التّي ساقها الله تعالى في القرآن الكريم وأمرنا بأن نتفكّر فيها ونعتبر بأحوالها، وفي هذا الفصل نحاول البحث في هذا الجانب من خلال نماذج لأمم سابقة سواء على مُستوى الأفراد مثل نموذج قصّة ابني

---

[1] - عبد الباسط إبراهيم محمد بلبول، القصص القرآني، ص 381-382.(بتصرّف)

آدم و قصّة قارون، وقصّة صاحب الجنّتين، أو على مستوى الجماعات مثل نموذج أصحاب الجنّة، وبيان المعاني التّي يمكن الاستفادة منها وفق نظريّة السّياق القرآني.

المبحث الأوّل: خطورة الحسد في السلوك البشري وعاقبته

يُحاول الباحث في هذا المبحث التطرّق إلى بيان المعاني المتّصـــلة بأحداث قصّـــة ابني آدم والتّركيز أكثر على سـلوك كلّ منهما لمعرفة خلفيّاتها وقياسـها على النّتائج المترتبّة عليه خاصـّة جريمة القتل التّي ارتكبها أحدهما في حقّ الآخر وربط تلك المعاني بالسّياق العام للسّورة.

المطلب الأول: السياق العام لسورة المائدة

سمّيت في كتب التّفسير وكتب السنّة بسورة المائدة: لأنّ فيها قصّة المائدة والتّي اختصّت بذكرها، وهو أشهر أسمائها، وهي مدنيّة بإجماع[1] ومن أواخر ما نزل فيها[2] في السّنة السادسة بعد الحديبية بمدّة، وكان نزولها منجّما حيث امتدّ إلى عام حجّة الوداع، لما صحّ أنّ آية:﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: 3] نزلت يوم عرفة في حجّة الوداع؛ ونزول السّورة في تلك الفترة الزمنيّة يدل على أنّ الإسلام قد اشتدّ عوده في المدينة، واستقام للرّسول ﷺ أمر العرب وأمر المنافقين ولم يبق في عناد الإسلام إلاّ اليهود والنّصارى، واحتوت السورة على تشريعات كثيرة تنبئ بأنّها أُنزلت لاستكمال شرائع الإسلام، ولذلك افتتحت بالوصاية بالوفاء بالعقود، أي بما عاقدوا الله عليه حين دخولهم في الإسلام من التزام ما يؤمرون به.[3]

أمّا عن سياق السّورة فقد ذكر بعض المفسّرين أوجها في ذلك منها:

ما ذكره ابن الزّبير الغرناطي من أنّ الوفاء كان ساريا في أجزاء السّورة فقال: "لما طلب تعالى المؤمنين بالوفاء فيما نقض به غيرهم، وذكّرهم ببعض ما وقع فيه النّقض وما أعقب ذلك فاعله، وأعلمهم بثمرة التزام التّسليم والامتثال، أراهم جلّ وتعالى ثمرة الوفاء وعاقبته، فقال تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَآنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾ [المائدة: 116] إلى قوله:﴿ هَذاَ يَومَ يَنفَعُ

---

(1)- ابن عطية، المحرر الوجيز، ج2، ص143.

(2)- الزركشي، البرهان، ج1، ص 194.

(3)- ابن عاشور، التحرير، ج6، ص 69 – 72.

الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة: 119] إلى آخرها، فحصل من جملتها الأمر بالوفاء فيما تقدمها وحالُ من حاد ونقض، وعاقبة من وفىّ، وأنهم الصادقون، وقد أمرنا أن نكون معهم﴿ يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: 119]."[1]

فمُجمل ما ذكره الغرناطي إشارة إلى مقدّمة السّورة وخاتمتها لندرك ما حوت عليه السّورة فقد ختمت السورة بمثل ما بُدِئت به، فقد بدئت بالحديث عن الوفاء بالعهود والعقود "وتصدير السّورة بالأمر بالإيفاء بالعقود مؤْذن بأن سترد بعده أحكام وعقود كانت عقدت من الله على المؤمنين إجمالا وتفصيلا، ذكّرهم بها لأنّ عليهم الإيفاء بما عاقدوا الله عليه."[2] وخُتمت بالذين أوفوا بعقود الله معهم.

ما ذكره البقاعي من أنّ مقصود السورة يتمثّل في "الوفاء بما هدى إليه الكتاب، ودلّ عليه ميثاق العقل من توحيد الخالق ورحمة الخلائق شكراً لنعمه واستدفاعاً لنقمه، وقصّة المائدة أدلّ ما فيها على ذلك، فإن مضمونها أن من زاغ عن الطمأنينة بعد الكشف الشافي والإنعام الوافي نوقش الحساب فأخذه العذاب، وتسميتها بالعقود أوضح دليل على ما ذكرت من مقصودها وكذا الأحبار."[3] فالبقاعي هنا يشير إلى أنّ الوفاء بما أنزل الله من الهدى في الكتاب وما تضمنّه من أحكام وتشريعات يمثّل مقصود السّورة، وذلك سرّ تسميتها بالعقود وكذا قصّة المائدة وما تضمّنته من وفاء بأمر الله لأنّ طلب الحواريين من عيسى عليه السلام لمعجزة مادية دالّة على صدقه، كانت بمثابة عقد موثّق بين الله وبينهم على عدم الكُفر بعدها، ولكن لحاق الآية يبيّن بأنّ منهم من عاد إلى الكفر والشّرك.

وفي الظلال نجد سيد قطب يذكر بأنّ سياق السّورة يتناول جانبين الأوّل خاصّ ببيان التّصور الاعتقادي الصّحيح، والانحرافات التي تتلبس به عند أهل الكتاب وأهل الجاهلية وبأنّ

---

[1]- ابن الزبير الغرناطي أحمد بن إبراهيم، (ت: 708هـ) **البرهان في تناسب سور القرآن**، تحق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المغرب، 1410 هـ – 1990 م ج1، ص203.

[2]- ابن عاشور، التحرير، ج6، ص 74.

[3]- البقاعي، مصاعد النّظر للإشراف على مقاصد السور، ج2، ص106.

الدين هو الاعتقاد الصّحيح والطّاعة والتلقّي من الله وحده في التحريم والتحليل والحكم بما أنزل الله وحده دون تعديل أو تحريف أو تبديل.

الآخر متّجه إلى الأمّة المسلمة وبيان دورها الحقيقي وموقفها تجاه أعدائها وكشف هؤلاء الأعداء وكيدهم لهذه الأمّة ولهذا الدّين وبيان ما هم عليه من الضّلالة والانحراف في عقيدتهم وما هم عليه كذلك من العداء للجماعة المسلمة وإجماع الكيد لها..."[1]

فسيّد قطب في تقديمه للسّورة أشار إلى هذه المحاور الكبيرة العامّة من تصحيح العقيدة وكشف انحرافات أهل الكتاب وما للأمّة المسلمة التي هي وارثة الرسالات من دور في قيادة البشرية بالمنهج الربّاني.

أمّا صاحب الميزان يرى بأنّ سياق السّورة يتمثّل في: " الدّعوة إلى الوفاء بالعهود وحفظ المواثيق الحقّة كائنة ما كانت، والتّحذير البالغ عن نقضها وعدم الاعتناء بأمرها، ثمّ دللّ على ذلك بقوله بأنّ السورة اشتملت على كثير من أحكام الحدود والقصاص والاشارة إلى كثير من مظالم بني إسرائيل ونقضهم المواثيق المأخوذة منهم، واعتبر ذلك المناسب لزمان نزول السّورة من أنّها آخر سورة مفصّلة نزلت على الرّسول ﷺ، وتأكيد الوصيّة بحفظ المواثيق المأخوذة لله تعالى على عباده وللتثبّت فيها.[2]

وجاء في التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم أنّ المقصد العام للسورة يدور حول ثلاثة محاور:

1. التشريع لإقامة المجتمع المسلم المستمد أمره من الله.
2. توحيد الله ومحاربة الشرك في عقيدة التثليث عند النصارى.
3. إبطال تحريم وتحليل وأمر ونهي الجاهلية وردّ ذلك كله لله[3] .

---

(1) - سيد قطب، الظلال، ج 6، ص 623- 629.

(2) - الطّباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 6، ص 157.

(3) - مصطفى مسلم وآخرون، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج2، ص287.

وبعد عرض آراء أصحاب الفضل في السّياق العام للسورة، يُرجّح الباحث بأنّ سياق سورة المائدة متعلّق "بالوفاء بالعهود التّي بين الله تعالى وعباده المؤمنين والتّحذير من نقضها"، بناء على ما ذكره ابن الزّبير الغرناطي من النّظر إلى مفتتح السّورة وخاتمتها و ما تضمّنته من أمر بالوفاء بالعقود وعاقبة نقضها، وكذا ما ذكره البقاعي من أنّ قصّة المائدة أدلّ شيء في ذلك لما تضمّنته من عقد موثّق بين الله وبين حواريّي سيدنا عيسى عليه السّلام، بالإيمان وعدم الكُفر بعدها، ومن جهة أخرى فإنّ القصّة ممّا اختصّت به سورة المائدة ولم ترد في سورة أخرى غيرها، إضافة إلى جوّ السّورة العام وزمن نزولها كآخر سورة أنزلت لاستكمال شرائع الإسلام، والذّي ناسب أن يخاطب فيه المؤمنون بالعهود التّي بين الله تعالى وبينهم، تذكيرا وتثبيتا لها.

المطلب الثاني: سياق المقطع

أولا: عرض أحداث القصة

قصّة ابني آدم في سورة المائدة ذُكرت في الآيات من 27 إلى 31 وصفها الله تعالى بالحقّ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيَ ءادَمَ بِالْحَقِّ ﴾ فنبؤهما حقّ بما ذكره الله في القرآن فلم يُفصح عن اسمهما إذ لا عبرة بذكرهما، فقد اختلفا على أمر – لم يُحدّده القرآن – فاحتكما إلى أبيهما فطلب من كلّ واحد منهما أن يتقرّب إلى الله بقربان من صدقة أو طعام أو متاع أو غير ذلك مما يصلح للتقرّب به إلى الله حيث قرّب، فشاءت حكمة الله أن يتقبّل من أحدهما ويردّ الآخر، فامتلأت نفس الذي لم يُتقبّل منه غيظا وحسدا، وهدّده بالقتل، فردّ عليه أخوه بهدوء وطمأنينة بأنّ الله تعالى يتقبّل من المتّقين لذلك لم يتقبّل منه قربانه، وبأنّه لن يمدّ يده إليه ليقتله إن هو بادر إلى ذلك الفعل لأنّه يخاف الله تعالى وذكّره بعاقبة أمره بأن يكون من أصحاب النّار إن هو أقدم على قتله، لكنّه طاوع نفسه الأمّارة بالسّوء فأقدم على قتل أخيه فأصبح من الخاسرين، ثمّ بعث الله غرابا يبحث في الأرض أي يحفر فيها، فتعلّم منه كيف يدفن جثّة أخيه[1]

---

[1] – كعباش، نفحات الرحمان، ج 4، ص 12.

ثانيا: مناسبة القصة لسباقها ولحاقها

جاءت هذه الآيات الكريمة من قصة ابني آدم بعد قصّة بني إسرائيل مع سيّدنا موسى عليه السّلام لما طلب منهم الدّخول إلى الأرض المقدّسة فأحجموا وقالوا لموسى عليه السّلام اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا هاهنا قاعدون، فكتب الله عليهم التّيه أربعين سنة.

وفي وجه المناسبة بينهما يذكر ابن عاشور بأنّ المناسبة بينهما مناسبة تماثل وتضاد ثمّ فصّل وقال: "فأما التماثل فإن في كلتيهما عدم الرضا بما حكم الله تعالى، فإن بني إسرائيل عصوا أمر رسولهم إياهم بالدخول إلى الأرض المقدسة، وأحد ابني آدم عصى حكم الله تعالى بعدم قبول قربانه لأنه لم يكن من المتقين. وفي كلتيهما جرأة على الله بعد المعصية فبنو إسرائيل قالوا:﴿ فَاذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ ﴾ [المائدة: 24] ، وابن آدم قال: لأقتلنّ الذي تقبل الله منه. وأمّا التضادّ فإن في إحداهما إقداما مذموما من ابن آدم، وإحجاما مذموما من بني إسرائيل، وإن في إحداهما اتفاق أخوين هما موسى وأخوه على امتثال أمر الله تعالى، وفي الأخرى اختلاف أخوين بالصّلاح والفساد.[1]

أمّا منسابتها للحاقها في قوله تعالى: ﴿ مِنَ اَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساَۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ اَوْ فَسَادٍ فِي الاَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ [المائدة: 32] فإنّ السّؤال هنا ينصرف إلى المقصود من قوله تعالى من أجل ذلك، هل هو متعلّق بنبأ ابني آدم وما حصل بينهما؟ أم أنّه متعلّق بآية أخرى؟ فالامام الرّازي يرى بأنّه متعلّق بجريمة القتل الّتي كانت نتيجة الحسد و ما أعقبه من أنواع المفاسد الحاصلة بسبب القتل الحرام بغير حقّ، منها أنه حصلت له خسارة الدين والدنيا، وأنه حصل في قلبه أنواع الندم والحسرة والحزن مع أنه لا دفع له البتة، أي من أجل ذلك شرعنا القصاص في حق القاتل على بني إسرائيل[2]، وإلى قريب من ذلك أشار سيد قطب وأرجع الجملة إلى المقصد من القصّة مما صدر من ابني آدم من السّلوك فقال:

[1] – ابن عاشور، التحرير، ج 6، ص 168.

[2] – انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج 11، ص 343.

"من أجل وجود هذه النماذج في البشرية، من أجل الاعتداء على المسالمين الوادعين الخيرين الطيبين، الذين لا يريدون شراً ولا عدواناً، ومن أجل أن الموعظة والتحذير لا يجديان في بعض الجبلات المطبوعة على الشر؛ وأنّ المسالمة والموادعة لا تكفان الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور في النفس، من أجل ذلك جعلنا جريمة قتل النفس الواحدة كبيرة كبيرة، تعدل جريمة قتل الناس جميعاً، وجعلنا العمل على دفع القتل واستحياء نفس واحدة عملاً عظيماً يعدل إنقاذ الناس جميعاً، وكتبنا ذلك على بني إسرائيل فيما شرعنا لهم من الشّريعة."[1]

فالجملة عائدة إلى المفاسد الحاصلة من القتل والعدوان بغير حقّ فقتل نفس كمن قتل النّاس جميعا لما للإقدام على ذلك من مفاسد ومن أحياها كمن أحيا النّاس جميعا لأنّ النّفس عزيزة عند الله تعالى.

ثالثا: تحليل أحداث القصّة

إذا جئنا لتحليل أحداث القصّة نجد أنّه هناك خطوطا عريضة تحدّثت عنها القصّة وأخرى فرعية شملتها الاختزالات الواقعة فيها، فالخطوط العريضة متمثّلة في تقديم ابني آدم من صلبه قربانا إلى الله تعالى، وأنّ التّقوى سبب قبول أحد القربانين عن الآخر، وأنّ القتل كان نتيجة عدم تقبّل أحدهما حكم الله فيهما، ثمّ بعث الله غرابا يبحث في الأرض ليتعلّم منه القاتل كيف يدفن أخاه فتحسّر القاتل وندم أشدّ النّدم على ما اقترفه من جُرم.

أمّا الخطوط الفرعيّة التّي يكتشفها القارئ من خلال الأحداث المختزلة، فهي المتعلّقة أوّلا بالقربانين حيث تُقبّل أحدهما ورُفض الآخر دون ذكر السّبب، ولكن ما أجاب به الذي تقبّل الله منه يعطينا مؤشّرا لذلك من اعتبار التّقوى وهو موقف سلوكيّ لأنّ سياق القرآن يستهدف السّلوك في هذه الجزئيّة فالتّقوى التّي تميّز بها أحدهما فيه تعريض لسلوك الآخر من سوء النيّة

[1] – سيد قطب، الظلال، ج 6، ص 707.

والعصيان[1] الذّي تمثّل في عمليّة القتل، ومن هنا تظهر سمات شخصيّة القاتل من العدوانيّة والحسد لأنّ مجرّد قوله " لأقتلنّك "كاف في تحسيسنا بأنّ القتل ناجم عن الحسد[2] وهو ما لم يذكره القرآن بل جعلنا نستخلص ذلك بأنفسنا، من خلال سياق القصّة ولحاقها من قوله تعالى: ﴿ مِنَ اَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ اَوْ فَسَادٍ فِي الاَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ...﴾ [المائدة: 32] فالغرض من القصّة بيان عاقبة الحسد الذي يؤدّي بالإنسان إلى ارتكاب أبشع الجرائم وهي القتل، لذلك "فإنّ القرآن لم يشدّد على ظاهرة الحسد بقدر ما شدّد على أبرز نتائجه وهو القتل"[3] على نحو ما يتّسق مع سياق الآيات في هذا المقطع من السّورة؛ وثانيا ما يتعلّق بدفن الجثّة والتّي عبّر عنها القرآن بأبلغ عبارة ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الاَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنَ اَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: 31] حيث لم يذكر القرآن أنّه دفن جثّة أخيه ولكن ذكر حفر الغراب للأرض فتعلّم منه كيف يستر فعلته الشّنيعة وما شابهها من المشاهد المكروهة وهو أيضا مشهد أوّل علم اكتسبه البشر بالتقليد وبالتجربة، وهو أيضا مشهد أوّل مظاهر تلقي البشر معارفه من عوالم أضعف منه، فكم في هذه الآية من عبرة للتاريخ والدّين والخُلق.[4]

المطلب الثّالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة

من المهمّ جدّا في هذا الجانب من اعتبار السّياق العام ملاحظة أنّ السّورة تنقسم إلى عدّة مقاطع وكلّ مقطع يتناول موضوعا يرتبط ارتباطا عضويا مع السّياق العام للسّورة، فقصّة ابني

---

(1) – كعباش، نفحات الرحمان، ج 4، ص 8.

(2) - محمود البستاني، **دراسات فنيّة في قصص القرآن**، دار البلاغة، بيروت، ط:1، 1409هـ – 1989م، ص 134.

(3) – محمود البستاني، المرجع نفسه، ص 135.

(4) – ابن عاشور، التحرير، ج 6، ص 174.

آدم جاءت ضمن مقطع يبتدئ من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدَ اَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا... ﴾ [المائدة: 12] إلى قوله تعالى: ﴿ اِلاَّ الذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: 34] حيث يذكر صاحب الأساس أنّ هذا المقطع يتحدّث عن ثلاثة قضايا: نقض الميثاق، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، والإفساد في الأرض؛ وهي القضايا الرئيسية التي تحول بين الإنسان وبين الاهتداء بكتاب الله.(1)

وهو ما نقرأه في آيات السّورة من أنّ أهل الكتاب بعيدون عن تطبيق ما في التوراة والانجيل، فلمّا عجزوا عن ذلك عصيانا لأوامر الله ورسله وانحرافا عن منهج الله، ولما رأوا من الحقّ وأهله في الرّسول عليه السّلام والمسلمين، شرعوا في تنفيذ مكائدهم، ومحاولة بسط أيديهم على المؤمنين فجاء التّطمين من الله الحافظ بأنّهم لن يصلوا إليهم ﴿ يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمُ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ اَنْ يَّبْسُطُوا إِلَيْكُمُ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُومِنُونَ ﴾ [المائدة: 11] لذلك اعتبر الامام الرّازي هذه الآية مقدّمة لبيان أنّ الله تعالى يحفظ النبي عليه السّلام والمؤمنين من حسد الكفّار على ما أنعم الله به عليهم في الدّين والدّنيا ومشيرا إلى موقع قصّة ابني آدم فيها من ورودها ضمن سلسلة القصص السّابقة لها لتسلية النبيّ ﷺ والتّخفيف على قلبه جرّاء الأحداث التّي لحقت به في المدينة من كيد أهل الكتاب من اليهود(2) والنّصارى حسدا من عند أنفسهم على ما فضّل الله به نبيّه عليه السّلام من النّعم في الدّين والدّنيا فذكر أوّلا قصّة النقباء الاثني عشر وأخذ الله تعالى الميثاق منهم، ثم إن اليهود نقضوا ذلك الميثاق حتى وقعوا في اللعن والقساوة، وذكر بعده شدة إصرار النصارى

---

(1) – سعيد حوى، الأساس في التفسير، ج 3، ص 1367.

(2)– المقصود منه ما حدث للنبي ﷺ وأصحابه من غدر بني النّضير لما طلب منهم النبيّ عليه السّلام أن يُعينوه في دية رجلين أصابهما أصحابه، وكان معهما أمان من الرّسول فلزمته بذلك ديتهما، وقد عاهده بنو النّضير على ترك القتال وعلى أن يعينوه في الدّيات، فتظاهروا بإعطائه ما يريد، إذ قالوا لرسول الله ﷺ اجلس حتى نطعمك ونعطيك ما تريد، ثم همّوا بالفتك برسول الله ﷺ وبأصحابه، فنزل جبريل وأخبره بذلك فقام رسول الله في الحال مع أصحابه وخرجوا. انظر: كعباش، نفحات الرحمن، ج4، ص 14- 15.

على كفرهم وقولهم بالتّثليث بعد ظهور الدلائل القاطعة لهم على فساد ما هم عليه، وما ذاك إلا لحسدهم لمحمد ﷺ فيما آتاه الله من الدّين الحقّ، ثمّ ذكر بعده قصّة موسى في محاربة الجبارين وإصرار قومه على التمرد والعصيان، ثم ذكر بعده قصّة ابني آدم وأنّ أحدهما قتل الآخر حسدا منه على أن الله تعالى قبِل قربانه، وكل هذه القصص دالة على أنّ كل ذي نعمة محسود، فلما كانت نعم الله على النبيّ ﷺ أعظم النعم لا جرم لم يبعد اتفاق الأعداء على استخراج أنواع المكر والكيد في حقه، لكنه تعالى يحفظ النبيّ ﷺ وأصحابه بفضله ويمنع أعداءهم من إيصال الشرّ إليهم.[1]، فالحسد إذا جعل من اليهود والنّصارى أعداء للحقّ الذي جاء به النبيّ عليه السّلام، وقد كان أظهر عند اليهود من النّصارى لأنّ اليهود "مجمع نقائص ومجموعة رذائل فلا بدّ أن يكون داء الحسد متمكّنا فيهم مسيطرا على نفوسهم، موجّها لحركاتهم، وأن يكون مرضا يهوديا فتّاكا وخلقا يهوديا ذميما يسري فيهم للآخرين المشوّهين من أمثالهم."[2] وصدق المولى عزّ وجلّ حين قال: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنَ اَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنۢ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة: 109] ، ثمّ إنّ التركيز في هذا المقطع من آيات سورة المائدة على أهل الكتاب والتّنديد بأفعالهم ناسب الاختصاص ببني إسرائيل في التّعقيب على قصّة ابني آدم بسبب استمرارهم على إسرافهم وبغيهم إلى زمن النبي ﷺ برغم ما جاءهم من الله من رسل وأُنذروا به من نذر.[3] لذلك استحقّوا اللّعنة، ونقل شرف حمل أمانة الدّين منهم إلى أمّة محمّد ﷺ، وكلّ ذلك مثل ضربه الله عز ذكره لبني آدم، وحرَّض به المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ على استعمال العفوِ والصفح عن اليهود من بني النّضير الذين كانوا هموا بقتل النبي ﷺ، وعرَّفهم جل وعز رداءة سجيَّة أوائلهم، وسوء استقامتهم على

---

[1] – الرّازي، مفاتيح الغيب، ج11، 336– 337.

[2] – صلاح عبد الفتاح الخالدي، الشخصية اليهودية من خلال القرآن، ص 202.

[3]– انظر: دروزة محمد عزت (ت: 1404هـ) **التفســير الحديث**، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة – ط:1، 1383 هـ – 1964م، ج9، ص 99.

منهج الحق، مع كثرة أياديه وآلائه عندهم، و ضرب المثل بابني آدم للتأسِّي بالفاضل منهما دون الطالح.(1)

من جهة أخرى نجد السّياق القرآني يتحدّث عن قضيّة العقود التّي أُخذت من أهل الكتاب وكيف نقضوها حيث كان عاقبة اليهود اللّعن وقساوة القلوب والتّيه، وعاقبة النّصارى العداوة والبغضاء بينهم إلى يوم القيامة، وذكر الله تعالى خلاله نموذجا لنقض عهد نصرة الرّسل والجهاد في سبيل الله لما أمرهم سيّدنا موسى عليه السّلام بمحاربة الجبّارين، فخالفوا أمره، ثمّ أعقبه بعرض قصّة ابني آدم "وفيها نقض لعقد تحريم القتل بغير الحقّ فقد أقدم القاتل على قتل أخيه حينما كان مأمورا بالإحجام، عن ذلك وبذلك تكتمل الصورة التناسقية بين القصتين ....فقصة بني إسرائيل إحجام في موضع الإقدام وقصّة ابني آدم إقدام في موضع إحجام وكلاهما مخالف للعقد مع الله فيما تعلّق بموضوع القتل.(2) وهذا ما يتّسق مع السّياق العام للسّورة من الوفاء بالعقود، والالتزام بها، ومع أنّ الآيات كانت مركّزة على أهل الكتاب ودعوتهم إلى الإسلام وبيان أنّ القرآن جاء مصدّقا لما في التوراة والانجيل ومهيمنا عليه، وبالتّنديد بموقفهم من نقض المواثيق، إلاّ أنّها كنت متّجهة أيضا إلى المسلمين جميعا ومن أهل المدينة خاصّة، للوقوف على حقيقة اليهود والنّصارى وموقفهم من الحقّ باعتبار الجوّ الذّي نزلت فيه السّورة المدنيّة، "وذلك لإبطال كيدهم في الصفّ المسلم، وإحباط مناوراتهم ومؤامراتهم التي يلبسونها ثوب التمسّك بدينهم، وهم في الحقيقة قد نقضوا هذا الدّين من قبل، ونقضوا ما عاهدوا الله عليه(3)

فمن خلال ما بيّنه القرآن في السّورة من حقيقة أهل الكتاب ونقضهم للعهود، ذكّر المسلمين بما عاقدوا الله عليه حين دخولهم في الإسلام من التزام ما يؤمرون به تأكيدا وتثبيتا للوصيّة بحفظ المواثيق بينهم وبين الله تعالى.

---

(1) – انظر: الطبري، جامع البيان، ج 10، ص 229– 230.

(2) – عمر علي حسان عرفان، **دلالة أسماء السور القرآنية على محاورها وموضوعاتها**، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق–سوريا– ط:1، 1439هـ–2018م، ص 76–77.

(3) – سيد قطب، الظلال، ج 6، ص 674.

المطلب الرّابع: تحكيم السّياق في بعض قضايا القصّة

المطّلع على نبأ ابني آدم في كتب التّفسير والقصص يجد بعض المفسّرين وكتّاب القصص قد أكثروا من سرد تفاصيل أحداث القصّة ممّا لم يذكره الله تعالى وليس له سند يُعتمد عليه من ذكر سبب قتل أحد الأخوين أخاه وأنّه كان بسبب حسد أحدهما الآخر على ما فُضّل به من زرع أو غنم، أو بسبب امرأة ليتزوّجها أحدهما[1] وكلّ ذلك لا سند من كتاب أو سنّة، وقد وصف الله تعالى نبأهما بأنّه حقّ وهو الصّدق والثّابت في الواقع ويُحتمل أن يكون إشارة إلى ما حفّ بالقصّة من زيادات زادها أهل القصص من بني إسرائيل في أسباب قتل أحد الأخوين أخاه[2] وكذا ما ذكروه من أنّ الله بعث غرابين فقتل أحدهما الآخر ليتعلّم منهما كيفيّة دفن الجثّة[3] وكلّ ذلك يتعارض مع صريح القرآن، وأسلوبه في عرض القصص الذي كان للعظة والتّذكير، حيث كان الاكتفاء بسرد ما تُأخذ منه العبرة ممّا قد عرفناه من أنّ أحدهما قتل أخاه حسدا لما تفضّل الله به من قبول قربانه، ليحسن الإنسان سلوكه ويُخلص النيّة لله تعالى.

(1) – أنظر، الرازي، مفاتيح الغيب، ج 11، ص 337.

(2) – ابن عاشور، التحرير، ج 6، ص 169.

(3) – الرازي، المرجع نفسه، ج 11، ص 341.

المبحث الثاني: الابتلاء بالمنع والعطاء

من خلال هذا المبحث نتطرّق إلى المعاني الخاصّة بقصّة صاحب الجنتين في سورة الكهف من ابتلاء الله للإنسان بطريق العطاء والمنع وكيف بيّن الله تعالى نموذج المؤمن الصّادق القانع بقضاء الله ونموذج الجاحد لنعمه وعاقبة كلّ منهما في الدّنيا قبل الآخرة، ومحاولة تجلية هذه المفاهيم عن طريق سياق السورة والمقطع وآيات القصّة.

المطلب الأول: سياق المقطع

أوّلا: عرض أحداث القصّة

ضرب الله مثلا في سورة الكهف من الآيات 32 إلى 44 حال رجلين أحدهما مؤمن والآخر كافر حيث أنعم الله على الكافر بأن رزقه جنّتين أكسبتاه ثروة وجاها، ولكنّه لم يُقدّر تلك النّعم فصار يُفاخر بما لديه من مال وحشم وأنصار على صاحبه المؤمن وظنّ أنّ ما لديه من متاع لن يبيد أبدا وأوصله العُجب والتكبّر والمفاخرة إلى إنكار أمر السّاعة فابتدره صاحبه المؤمن بالموعظة مذكّرا إياه بالتّواضع وشكر الخالق المنعم، لكنّه لم يسمع لنصحه ووعظه واستمرّ في جحوده حتّى استحقّ العقاب من الله بأن أهلك جنّته فتحسّر ندما على ما فرّط في جنب الله.

ثانيا: مناسبتها لسباقها ولحاقها

جاءت آيات القصّة مرتبطة ارتباطا وثيقا بسباقها من حيث المعاني والدلالات التّي تحملها فقد كانت معطوفة على ما قبلها من قوله تعالى:﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ لأنّه تعالى بعد أن بيّن مصير أهل الشّرك وما يُقابله من نعيم للمؤمنين "كشف بضرب المثل أنّ ما فيه الكفار من

الارتفاق العاجل ليس أهلا لأن يفتخر به لأنّه إلى زوال"[1] وبأنّ الارتفاق الحسن في عبادة الله الواحد، والصّبر على ذكره وشكر نعمه وآلائه بالتّواضع وعمل الصّالحات كما هو دأب المؤمنين، فقد ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [الكهف 28] إلى آخر الآية أنّها نزلت في أشراف قريش الذين طلبوا من النبيّ ﷺ أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه، كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك."[2] ثمّ بيّن الله تعالى الميزان الحقّ الذّي ينبغي أن يحتكم إليه النّاس من اعتبار طاعة الله وعبادته ممّا يتّصف به الضّعفاء الفقراء الذّين كانوا يزدرونهم ويحتقرونهم، "وليظهر للفريقين ما يجرّه الغرور والإعجاب والجبروت إلى صاحبه من الأرزاء، وما يلقاه المؤمن المتواضع العارف بسنن الله في العالم من التذكير والتدبر في العواقب فيكون معرضا للصلاح والنجاح."[3]

ومن حيث اللّحاق فالآيات جاءت تعقيبا على أحداث القصّة كما هو منهج القرآن في عرض القصص وامتداد لمعانيها من بيان الموازين الواهية التّي يحتكم إليها الإنسان في تعامله مع الآخر ونظرته إلى متاع الدّنيا وزينتها حيث أقام البرهان على فساد نظر المشركين من أنّ الدّنيا وما فيها سريع الانقراض والزوال والبوار والفناء وخصّ بالذّكر المال والبنون في إشارة إلى ما تفاخر به المشركون على فقراء المؤمنين فقال تعالى:﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ اَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الاَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ اَمَلاً﴾ [الكهف: 45 – 46] ومن المقتضى البديهي أن ما كان كذلك فإنه يقبح بالعاقل أن يفتخر به أو يفرح بسببه أو يقيم له في نظره وزنا، ثمّ بيّن تعالى أنّ ما عليه فقراء المسلمين من ذكر ودعاء وعبادة ابتغاء وجهه وتطلّعا إلى رفعة الدّرجات في الآخرة خير وأفضل، فخيرات الآخرة دائمة

---

(1) – البقاعي، نظم الدرر، ج12، ص 56.

(2) – انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج5، ص 137 – 138.

(3) – ابن عاشور، التحرير، ج15، 315.

باقية والدائم الباقي خير من المنقرض المنقضي، ليتبيّن بذلك خساسة الدّنيا وحقارتها أمام خيرات الآخرة الباقية الدّائمة.(1) وهكذا تساوقت معاني هذه الآيات وترابطت فيما بينها في بيان المعاني المتّصلة بتوجيهات الله تعالى إلى عدم الركون إلى الدّنيا وملذّاتها والاشتغال على ما يُقرّب إلى طاعة الله ورضوانه في نظم عجيب لا تجد فيه خللا ولا خروجا عن النصّ كما كان لأحداث القصّة اتّصال وثيق مع سباقها ولحاقها.

ثالثا: تحليل أحداث القصة

أحداث القصّة تتضمّن تفصيلا لمثل حال الكافرين والمؤمنين في مشهد حسّي جسّده رجلين ولم يذكر الله تعالى من أصلهما أو زمنهما أو مكانهما شيئا ولكن أعطى لنا لمحة عن الحالة الاجتماعية لكليهما فالأول غنيّ أكرمه الله بجنّتين ومال وبنين والثاني فقير لا يملك مالا كثيرا ومكانته الاجتماعية دون مكانة صاحبه الذي قال له ﴿ أَنَاْ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ وهذا موقف يشي بالازدراء والترفّع والتكبّر عليه بما يملكه من مال وجاه، ثمّ يقدّم لنا السّياق دلالة أخرى مفادها أنّ هذا الغني قاده عُجبه بنفسه وعشيرته وجنّتيه وما فيهما من ثمار وخيرات إلى كفر النّعمة ونسيان الخالق وإنكار البعث قال تعالى: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهُمَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: 35 – 36] فجملة وهو ظالِمٌ لنَفسهِ "جملة حالية أي وهو ضار لنفسه بكفره حيث عرضها للهلاك وعرض نعمتها للزوال أو واضع الشّيء في غير موضعه حيث كان اللاّئق به الشّكر والتّواضع لا ما حكي عنه"(2)

فتبيّن لنا من خلال هذا الموقف انحراف هذا الرّجل الغنيّ عن الفطرة السّليمة فقد أدّاه عُجبه ومفاخرته بثروته إلى نسيان ربّه رُغم نصح صاحبه له وتذكيره له بالخالق المنعم وهو يُحاوره

(1) – انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج21، ص 467- 469. (بتصرف)

(2) – الألوسي، روح المعاني، ج8، 262.

"والمحاورة مراجعة الكلام من حار إذا رجع أي يراجعه الكلام ... بالوعظ والدعوة إلى الله عزّ وجلّ"(1)قال تعالى: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّيَ أَحَدًا وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَآ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا فَعَسَىٰ رَبِّيَ أَنْ يُّوتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا اَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ [الكهف: 37 – 41] فمن خلال هذه الآيات يتبيّن لنا قوّة إيمان صاحبه وصدقه وتوكّله على الله في مقابل انحراف الرّجل الغنيّ، "ونلاحظ أيضا دقّة التّعبير عن الخوالج النّفسية للإنسان، فنحن أمام نموذجين من النّاس اختلفت نظرتهما للحياة والوجود والإنسان:

أ –النّموذج الأنانيّ المادّي، كيف تستحوذ عليه النّظرة الفرديّة المتطرّفة، فلا يعبد إلاّ نفسه، ولا يعترف إلاّ بمواهبه مغترّا بقوّته زاهيا بحظّه.

ب –النّموذج الرّباني المعتز بجلال خالقه القانت المخبِت، يقنع بالكفاف، ويرضى بقضاء الله، وتغلب عليه النّظرة الإنسانيّة الكريمة"(2).

والمفهوم من سياق القصّة بعد ذلك أنّ الرّجل الغنيّ الجاحد لنعم الله لم يسمع لنصيحة صاحبه المؤمن واستمرّ في جحوده حتّى استحقّ العقاب من الله الذي أهلك جنّته فتحسّر ندما على ما فرّط في جنب الله ﴿ وَأُحِيطَ بِثُمُرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمُ اشْرِكْ بِرَبِّيَ أَحَدًا وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ [الكهف 42 - 43] وفي معنى الآية يقول ابن عاشور: "أحاط به هذا العقاب جزاء على طغيانه وجعله ثروته وماله وسيلة إلى احتقار المؤمن الفقير، فإنه لما اعتز بتلك النعم وتوسّل بها إلى التكذيب بوعد الله استحق عقاب الله بسلب تلك النعم عنه كما سُلبت النعمة عن قارون حين قال: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيَ ﴾ [القصص: 78]، وبهذا كان هذا المثل

(1) – الألوسي، المرجع نفسه، ج8، 261.

(2) – كعباش، نفحات الرحمن، ج8، ص 200.

موضع العبرة للمشركين الذين جعلوا النّعمة وسيلة للترفّع عن مجالس الدّعوة لأنّها تجمع قوما يرونهم أحطّ منهم وطلبوا من النبيء ﷺ طردهم عن مجلسه."[1]

فمن خلال كلام ابن عاشور تتّضح لدينا العلاقة الوطيدة بين أحداث القصّة وبين ما ذُكر من المعاني في سباقها من احتقار كفّار قريش لفقراء المسلمين وامتناعهم من الجلوس معهم في مجلس واحد وذلك لأنّ النّعمة قد تصل بالإنسان إلى العجب والتفاخر والتكبّر واحتقار من دونه وينسى وهو في غمرة الزّهو بنفسه الخالق المنعم الذّي كان سببا فيما وصل إليه من ثراء ومكانة وينسب كلّ ذلك إلى علمه وقوّته، ومثل صاحب الجنّة وكفّار قريش موجود في كلّ زمان ومكان، مثلما هو الحال للمؤمن وفقراء المسلمين.

المطلب الثاني: علاقة سياق القصة بسياق السورة

من خلال ما مرّ بنا من تحليل لأحداث القصّة وعلاقتها بسباقها ولحاقها يُمكن القول بأنّ سياق القصّة وما تحمله من معان جاءت لإبراز مفهوم الابتلاء بالعطاء والمنع وكانت مادّته متعلّقة بالمال ومتاع الحياة الدّنيا فالله تعالى أعطى صاحب الجنّة أسباب الثّروة والغنى المادّي من جنّة ومال ونفر حتّى أصبح في مرتبة المنعمين بالثّراء ليبتليه وينظر كيف يعمل وفيم يستعمل تلك النّعم، إلاّ أنّه اتّخذها سبيلا إلى الغرور وتوهّم البقاء و الطّغيان والتّفاخر ونسيان الخالق المنعم﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى ﴾ [العلق: 06] فاستحقّ سلب النّعمة لأنّه لم يقدّر نعمة العطاء بالشّكر وأداء حقّها بما يُرضي الله تعالى رغم نُصح صاحبه المؤمن له؛ وفي المقابل نجد المؤمن قد فهم معنى ابتلاء الله له من خلال نُصح صاحبه بأن يتذكّر خالقه ويردّ الفضل إليه "وبتعليمه إيّاه سبيل الإيمان في استقبال النعمة، بأنْ يردَّ النعم إلى المنعم؛ لأن النّعمة التي يتقلّب فيها

[1] – ابن عاشور، التحرير، ج15، ص 328.

الإنسان لا فضْلَ له فيها، فكلها موهوبة من الله"[1] والأصل أن يستعمل الإنسان هذه النّعم والمواهب بما يصلُح لآخرته ومصيره لذلك عقّب الله تعالى ببيان حقيقة الحياة الدّنيا بأنّ ما فيها من زينة ومتاع مآله الزّوال والفناء وما كان للآخرة وابتغاء وجه الله فهو خير وأبقى، وفي ذلك عبرة لأولي الأبصار.

والذي ينبغي تأكيده أنّ ما تمّ تفصيله من أحداث القصّة امتداد لمعاني سياق السّورة في بيان فتنة من فتن الدّنيا المتعلّقة بالمال والجاه وطريق العصمة والنّجاة منها باتّباع منهج الله الذّي التزم به المؤمن وحاد عنه الرّجل الغنيّ في مشهد حسّي يقرّب هذا المفهوم ويجلّيه ويرسّخه في الأذهان، فمن الأمور الفنيّة الرّائعة التّي نستشفّها من خلال سياق قصّتي أصحاب الكهف وصاحب الجنّتين أنّهما تنضويان على فكرة تصحيح مفاهيم عقدية بمشاهد قريبة محسوسة من قبل كائن آدميّ ليهتدي كائن آدميّ آخر إلى حقيقة تلك المفاهيم فقصّة فتية الكهف تجسيد لمفهوم البعث والنّشور من خلال نوم الفتية سنين طويلة ثمّ بعثهم وتمكين أهل زمانهم من الوقوف على هذه الحقيقة الغيبيّة ويتيقّنوا بأنّ الله على كلّ شيء قدير؛ أمّا قصّة صاحب الجنّتين تجسيد لمفهوم حقيقة الحياة الدّنيا وعدم الرّكون إليها لأنّها دار فناء وزوال وأن الآخرة هي دار القرار من خلال الحوار بين الكافر وصاحبه المؤمن الذي نبّهه إلى عدم التّباهي والتّفاخر والتكبّر وذكّره بأنّ الله الذي أنعم عليه بالجنتين قادر على إبادتها فتصبح أرضا جرداء، وكان الله على كلّ شيء مقتدرا؛ إذا فتجسيد هذه الحقائق من قبل كائن آدمي تظلّ أشدّ قناعة في صوابها وتقبّلا واستيعابا من طرف كائن آدميّ آخر، فالسّياق في كلتا القصّتين تجلية لفتنتي الدّين والمال، ويربّي في الإنسان كلّ ما من شأنه التقرّب إلى الله وموالاته والالتجاء إليه طلبا للعصمة منها.

---

[1] – الشّعراوي محمد متولي (ت: 1418هـ) **تفسير الشعراوي** – الخواطر – مطابع أخبار اليوم، د س ط، ج14، ص 8911.

المبحث الثالث: أحوال العالم والمتعلّم

هذا المبحث الخاص بقصّة موسى عليه السّلام والخَضِر من سورة الكهف أحداثها مُتعلّقة بالرحلة في طلب العلم من خلال ثلاثة محطّات مع أصحاب السّفينة والغلام وإقامة جدار في قرية، ونُحاول من خلالها استخراج ما فيها من معان في طلب العلم وأدب العالم والمتعلّم، والإشارة إلى ما فيها من أمور عقديّة إيمانيّة من خلال أحداثها التّي يبيّن الله لنا فيها بعض علومه الغيبيّة التّي لا ندركها نحن البشر وقد تخفى حتّى على الأنبياء ولكن لله حكم فيها.

المطلب الأوّل: سياق المقطع

أوّلا: عرض أحداث القصّة

قصّة موسى عليه السّلام مع العبد الصّالح تعتبر القصّة الثّالثة في ترتيب القصص الوارد في سورة الكهف ولم تتكرّر في أيّ سورة أخرى غير الكهف وقد اشتملت على مقدّمة وثلاثة مشاهد رئيسيّة وخاتمة للأحداث في الآيات من 60 إلى 82 من السّورة حيث تضمّنت المقدّمة تمهيدا للأحداث الرّئيسيّة للقصّة وابتدأت بالحوار بين موسى وفتاه الذي أخبره موسى بأنّه عازم عزما حثيثا على بلوغ مجمع البحرين ولو كلّفه ذلك مدّة زمنيّة طويلة، ولما بلغا المكان المقصود نسي الفتى الحوت، الذّي جعله الله علامة على لقاء الرّجل الصّالح حال فقده، وكان رُجوعهما إلى ذلك المكان أوّل لقاء بينهم وبين الرّجل الصّالح الخضر، ثمّ توالت المشاهد بين موسى والخضر في رحلة علمية، تعلّم فيها موسى عليه السّلام ثلاثة مسائل من ثلاث وقائع عجيبة: خرق سفينة لمساكين، قتل غلام زكيّ، وإقامة جدار، وختمت الرّحلة ببيان الخضر سرّ تلك الوقائع العجيبة المتمثّل في علم الله الغيبي وقدرته الخفيّة.

التّعريف بشخصيّات القصّة:

ورد في هذه القصّة ذكر شخصيّتين أبهم القرآن ذكر إسميهما، وهما: فتى موسى في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ ﴾ والعبد الصّالح في قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا(65)﴾ ولكنّ نصوصا حديثيّة صحيحة عن النبيّ ﷺ تُعرّف هاتين الشّخصيّتين، وتصرّح بأنّ الفتى هو: يوشع بن نون، والعبد الصّالح هو: الخَضِر، وهذا ما نجده منصوصا عليه في الصّحيحين وغيرهما.

. روى البخاري ومسلم عن عُبَيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود، عن عبد الله بن عباس، أنّه تمارى هو والحُرُّ بن قَيس الفَزَارِيّ، في صاحب موسى، قال ابن عباس: هو خَضِرٌ، فمرّ بهما أُبي بن كعب، فدعاه ابن عباس فقال: إنّي تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى، الذي سأل السّبيل إلى لُقِيّه، هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « بينما موسى في ملإ من بني إسرائيل، جاءه رجل فقال: هل تعلم أحدا أعلم منك؟ قال: لا، فأوحى الله إلى موسى: بلى، عبدنا خَضِرٌ، فسأل موسى السّبيل إليه، فجعل له الحوت آية، وقيل له إذا فَقَدت الحوت فارجع فإنّك ستلقاه، فكان يَتْبع أثر الحوت في البحر، فقال لموسى فَتاهُ:﴿ أَرَآيْتَ إِذَ اَوَيْنَآ إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَآ أَنسَانِيهِ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنَ اَذْكُرَهُ ﴾ فقال مُوسى:﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي ﴾ [الكهف: 64]، فارتدّا على آثارهما قصصا، فوجدا خَضِرًا، فكان من شأنهما الذي قصّ الله في كتابه »[1]

وفي حديث مطوّل عند البخاري ومسلم أيضا تصريح بأنّ فتى موسى يُدعى "يوشع بن نون" ونكتفي بأخذ طرف الحديث الذي ذُكر فيه هذا المعنى "فعن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: إنّ نوفا البِكَالِي[2] يزعُم أنّ موسى عليه السلام، صاحب بني إسرائيل ليس هو موسى

[1] - البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى عليه السلام، رقم: 3400، ج4، ص 154.، ومسلم، كتاب فضائل القرآن، باب: فضائل الخضر عليه السلام(47)، رقم: 172، ج4، ص 1852.

[2] - نوف البِكالي بكسر الموحدة مخففا وبعد الألف لام واسم أبيه فَضالة بفتح الفاء وتخفيف المعجمة وهو منسوب إلى بني بكال بن دعمي بن سعد بن عوف بطن من حمير ويقال إنه بن امرأة كعب الأحبار وقيل بن أخيه وهو تابعي

صاحب الخضر، عليه السلام، فقال: كذب عدوّ الله، سمعت أُبَي بن كعب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « قام موسى عليه السلام خطيبا في بني إسرائيل فسئل: أي النّاس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، قال فعتب الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: أنّ عبدا من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: أي رب كيف لي به؟ فقيل له: احمل حوتا في مَكْتَلٍ، فحيث تَفْقِد الحوت فهو ثَمّ، فانطلق وانطلق معه فتاه، وهو يوشع بن نون...»[1]

يقول الشيخ بيوض في تأويل معنى قول موسى: "أنا أعلم الناس" الوارد في الحديث بأنّ موسى في مقامه وكونه نبيئا ورسولا لا يمكن أن يظنّ نفسه أعلم من على ظهر الأرض أو لا يوجد من هو أعلم منه ويبدو في التأويل أنّ لموسى غرض صحيح في مثل هذا الجواب وموسى لم يقل ما قال إعجابا بنفسه أو كان يظنّ حقّا أنه لا أحد أعلم منه حاشاه فأوّل ما يعلمه موسى أن علم الله أوسع وأكبر من علم الإنس والجن والملائكة وأنّه فوق كلّ ذي علم عليم غير أنّه يمكن أن يكون الله تعالى عاتبه ولو على ظاهر قوله لأنّه في حقّه كنبيء يستحقّ العتاب عليه كما وقع لبعض الأنبياء.

ثمّ يواصل في تبرير ما وصل إليه مُستعينا بمقصد من المقاصد الرّئيسيّة في السّورة وهو بيان أنّ الله بكلّ شيء عليم، فيقول: " أراد الله تعالى أن يبيّن لموسى علما وراء علمه تحقيقا لمقصد من مقاصد هذه السّورة وهو أن يُبيّن الله تعالى سعة علمه وأنّه مُحيط بكلّ شيء علما وأنّ كلماته لا يُحاط بها ولو كان البحر مدادا لها كما قال: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا(109) ﴾....ولعلّ الله أطلع الخضر على أشياء لا تخطر على بال نبيء أو رسول ليجعله مثالا يراه موسى ويفتح له كُوّة

صدوق. انظر: ابن حجر أحمد بن علي أبو الفضل العسقلاني (ت: 852هـ) فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة – بيروت- 1379هـ، ج8، ص 413.

[1] - البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب: حديث الخضر مع موسى عليه السلام، رقم: 3401، ج4، ص 154.، ومسلم، كتاب فضائل القرآن، باب: فضائل الخضر عليه السلام(47)، رقم: 172، ج4، ص 1847.

صغيرة يُطلّ منها على مكنون علم الله، ونُطلّ منها نحن أيضا لنرى أنّه يوجد في الدّنيا شيء وراء ما نعتقده ونعلمه حتّى تتقاصر أمامه علوم البشر وعقولهم التي يعتزّون بها.

ويقول في موضع آخر بعد أن ذكر رواية أخرى عن القصّة: هذا هو أصل القصّة وهو متّفق عليه ونحن ننزّه موسى عن كونه يظنّ أنّه لا علم وراء علمه أو أنّه أعلم النّاس كلّهم، إنّما أراد الله أن يُظهر على يد موسى لموسى ولقومه، ولمن يأتي بعدهم بهذه القصّة، بعض علومه الغيبيّة وأنّ المتصرّف في الكون هو الله وحده، وأنّ هناك تصرّفات لا يُدركها البشر ولا يفقهون حقيقتها ولا أسبابها ولو رجع الأمر إليهم لأنكروها، ولكن لله فيها حِكم وإنّما قد تخفى حتّى على الأنبياء والمرسلين بل على أولي العزم من الرّسل وموسى منهم. [1]

ثانيا: علاقتها بسباقها ولحاقها

علاقة هذه القصّة بما قبلها هي علاقة مُقابلة قصّة بقصّة بما يُماثلها في ضدّها ومُقابلة بين خُلقين وإقامة الحجّة على المماثلة والمخالفة بين الفريقين المؤمنين والكافرين، فقد ذكرت الآيات السّابقة قصّة خلق آدم وأمر الله الملائكة بالسّجود له وما بدر من إبليس من مُكابرة وعناد وحسد في الشّرف والفضل حيث ضرب الله به المثل لأهل الضّلال عبيد الهوى والكِبر والحسد أعقب القصّة بقصّة موسى والخضر وهي مثل في ضدّها في تطلّب ذي الفضل والكمال للازدياد منهما والسّعي للظّفر بمن يُبْلِغه الزّيادة من الكمال اعترافا للفاضل بفضيلته؛ فكان موسى عليه السّلام مثلا للرّجل الفاضل الذي يبحث عن الزّيادة والكمال في الخير والفضيلة ويسعى لذلك بمصاحبة من هو أعلم منه اعترافا وتقديرا لأهل الفضيلة، وإبليس مثل لمن يعتدّ بنفسه وعلمه واجتمعت فيه مساوئ العُجب والكِبر والحسد فضلّ بها واتّبع هواه.

أمّا من حيث اللّحاق فللقصّة تعلّق بسبب نزول السّورة مما سأل به المشركون الرّسول ﷺ عن قصّة ذي القرنين التّي تدلّ على السّير في الأرض ونشر العدل ونصرة الحقّ فقد كانت قصّة

[1] - بيوض إبراهيم، في رحاب القرآن، تفسير سورة الكهف، ص 262-265.

موسى والخضر سيرا في الأرض لطلب نفع صالح، فبينهما تناسق وتناسب في خطّ السّير في الأرض وفي سوق قصّة موسى والخضر تعريض بأهل الكتاب بأن الأولى لهم أن يَدُلُّوا النّاس على أخبار أنبياء إسرائيل وعلى سفر لأجل تحصيل العلم والحكمة لا سفر لأجل بسط الملك والسلطان.[1] وفي نفس السّياق من اعتبار أسلوب الإيحاء والتّعريض يقول كعباش بأنّ قصّة موسى والخضر العجيبة في أطوارها ومشاهدها جاءت لتبيّن لليهود ولكفار قريش أنّ موسى الذي يتعصّبون له لم يأخذه الكِبر والعُجب بما خصّه الله به من كلامه ووحيه، ولم يمنعه ذلك أن يركب الأهوال، ويُديم التّطواف والتّرحال بحثا عمّن هو أعلم منه ليتواضع أمامه ويتعلّم منه، بعد ما أخبره الله بأن هناك في الأرض من هو أعلم منه.[2]

المطلب الثاني: تحليل أحداث القصّة

قصّة سيّدنا موسى مع الخضر عليهما السّلام من القصص التّي لم ترد إلاّ في سورة الكهف كما ذكرنا من قبل وهي مُختلفة تماما عن المشاهد القصصيّة التّي ذكرت عن سيّدنا موسى عليه السّلام وتكرّرت في عدّة سور من ميلاده ونشأته، وتكليفه بالرّسالة إلى فرعون وملئه والمعجزات التّي أيّده الله بها وغيرها ومع كلّ تكرار طبعا معنى وقضية ومقصد جديد، ممّا يدعونا للتّساؤل عن سبب ورود هذه القصّة بهذا القدر وفي سورة الكهف ضمن مجموع قصص تميّزت بها السّورة الكريمة؟

القصّة رحلة في طلب العلم وهذا ما يمكن بيانه من خلال القرائن الآتية:

أوّلا: النصّ الحديثي الذّي يبيّن سبب عزم موسى عليه السّلام على لقاء الخَضِر من التعلّم منه.

ثانيا: أحداث القصّة والجوّ العام فيها مثلما سنتعرّض له في تحليل الأحداث ومعرفة السّلوكات التربويّة العلميّة.

(1) - انظر: ابن عاشور، التحرير، ج15، ص 258-259. (بتصرف)

(2) - كعباش، نفحات الرحمن، ج8، ص 231.

ثالثا: الألفاظ الدّالة على العلم وردت بشكل لافت في ثنايا أحداث القصّة مثل: "علّمنه من لّدنا علما"، "هل أتّبعك على أن تعلّمني ممّا عُلّمت رشدا" ومنه السّؤال الذّي يوصل إلى العلم والمعرفة: "هل أتّبعك على أن تعلّمني ممّا عُلّمت رشدا" "فلا تسألني عن شيء"، "إن سألتك عن شيء"...وغيرها ممّا يدخل في عمليّة العلم والتعلّم.

رابعا: علاقتها بسباقها كما عرفنا من قبل.

فكلّ هذه القرائن تدلّ على أنّ سياق القصّة متعلّق بمحور العلم والتعلّم، وسنحاول من خلال هذا المبحث التّركيز على محور العلم والتعلّم من جوانبه المتعدّدة وتتبّع المعاني المتعلّقة به وفق النّظريّة السّياقيّة، وإن كانت أحداثها أيضا تخصّ محور الغيب الذّي لا يعلمه إلاّ الله وبالتالي يدخل في باب العقيدة والإيمان بالله والعلم الغيبيّ بنسبته إلى الله تعالى لا يمكننا إدراكه، أمّا علم المشاهدات الذّي هو في حيّز المدركات البشريّة وما يتعلّق به ممّا يسعنا الاستفادة منه في الحيّز الذّي تشغله أحداث هذه القصّة من أحوال العالم والمتعلّم.

وقد ارتأينا تقسيم أحداث القصّة إلى مقدّمة وتمهيد للأحداث، ثمّ التطرّق إلى الأحداث الرئيسيّة من خرق السّفينة، وقتل الولد، وإقامة الجدار، وانتهاء بخاتمة الأحداث.

. مقدّمة وتمهيد للأحداث، وفيها بيان لصفات سلوكيّة تربويّة وعلمية:

تُخبرنا القصّة بأنّ موسى عليه السّلام عزم على الوصول إلى مجمع البحرين ولو كلّفه ذلك المشقّة والسّير مدّة زمنيّة طويلة للوصول إلى هدفه من لقاء الخضر، واصطحب معه فتاه يوشع بن نون، وحصلت بينهما مواقف حواريّة نقف عندها لنستخرج منها مبادئ تربويّة وعلميّة من خلال الآيات الآتية:

. قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوَ اَمْضِيَ حُقُبًا(60)﴾

أظهر موسى عليه السّلام قوّة وعزيمة وإرادة ووضوح هدف وإصرار على بلوغ الهدف في بداية رحلته للقاء الخضر، "وذلك تنبيه على أن المتعلم لو سافر من المشرق إلى المغرب لطلب مسألة

واحدة لحق له ذلك"[1] ونحن نعلم ما للتّهيئة النّفسيّة من أثر للوصول إلى الأهداف المسطّرة ودافع لمواجهة الصّعاب والتغلّب عليها، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه طالب العلم ذو همّة عالية وإرادة وعزيمة في الإقبال على التعلّم وتسطير أهداف وإصرار على بلوغها لتحصّل فائدة العلم، وضمان أكبر قدر من الاستفادة.

. قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا(61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا(62) قَالَ أَرَآيْتَ إِذَ اَوَيْنَآ إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَآ أَنسَانِيهِ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنَ اَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا(63) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي فَارْتَدَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا(64)﴾

موقف تربويّ فريد من موسى عليه السّلام في التّعامل مع الخدم ومُراعاة الجانب الإنسانيّ فيهم على أنّهم مُتساوون مع خلق الله جميعا فقد قال تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ ﴾ ولم يقل خادمه أو عبده وهذا أدب قرآنيّ رفيع ساقه الله تعالى على يد شخصيّة نبويّة هي القدوة في كلّ شيء ليكون أدعى للقبول والتّطبيق سلوكا عمليّا في الواقع "وقد ندبت الشّريعة إلى ذلك في قول الرّسول ﷺ: « لا يقل أحدكم عبدي أَمتي ولْيقُلْ فتاي وفَتاتي وغلامي»[2] فهذا ندب إلى التواضع والفتي في كلام العرب الشاب، ولمّا كان الخَدَمة أكثر ما يكونون فِتيانا، قيل للخادم فتى، على جهة حسن الأدب."[3]

. قوله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا(65) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلَ اَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا(66)﴾

في هذه الآية ذُكر مصطلح " العلم اللدني " والذي وُصف به الخَضِر في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ والذّي عرّفه ابن القيّم بقوله: "العلم اللّدُنِي هو ما يحصل للعبد من غير واسطة، بل بإلهام من الله، وتعريف منه لعبده، كما حصل للخضر عليه السلام بغير واسطة

[1] - الرازي، مفتيح الغيب، ج21، ص 479.
[2] - صحيح البخاري، حديث رقم: 2552، ج3، ص 153.
[3] - ابن عطية، المحرر الوجيز، ج3، ص 527.

موسى، قال الله تعالى:﴿ ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾[الكهف: 65]، والعلم اللّدني ثمرة العبوديّة والمتابعة، والصّدق مع الله، والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقّي العلم من مشكاة رسوله، وكمال الانقياد له، فيفتح له من فهم الكتاب والسّنة بأمر يخصّه به، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه –وقد سُئل هل خصّكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ – فقال: لا والذي فلق الحبّة، وبرأ النّسمة، إلاّ فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه، فهذا هو العلم اللّدني الحقيقيّ.[1]

فالعلم اللّدني من لدن الله أي علم من عند الله تعالى يؤتيه من يشاء من عباده ويفتح عليه بقدر العبوديّة لله والصّدق مع الله والإخلاص والاستسلام والانقياد لأمره، واستشهاد ابن القيّم بآية الكهف والخَضِر ما يبيّن بأنّ الخضر عليه السّلام ممّن خصّه الله بهذا المقام الشّريف، فهو مقام غير النّبوءة التّي تأتي بواسطة الملك جبريل، وقد وضّح الشّعراوي الفرق بينهما فقال: "علينا أن نفرّق بين علم وفيوضات تأتي عن طريق الرّسول وتوجيهاته، وعلم وفيوضات تأتي من الله تعالى مباشرة لمن اختاره من عباده؛ لأنّ الرّسول يأتي بأحكام ظاهرية تتعلق بالتّكاليف: افعل كذا، لا تفعل كذا. لكن هناك أحكام أخرى غير ظاهرية لها علل باطنة فوق العلل الظّاهرية وهذه هي التي اختصّ الله بها هذا العبد الصّالح "الخضر" كما سمّاه النّبي صلى الله عليه وسلم."[2] لذلك فالله تعالى وصفه بعبد من عبادنا بإضافته إليه تعالى "وفيه إشارة إلى أن لله تعالى خواص أضافهم سبحانه إليه وقطعهم عن غيره وأخصّ خواصه عزّ وجلّ من أضافه إلى الاسم الجليل وهو اسم الذّات الجامع لجميع الصّفات أو إلى ضمير الغيبة الرّاجع إليه تعالى

(1) – ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر (ت: 751هـ) **مدارج السـالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نسـتعين**، تحق: محمد المعتصـم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت – ط:3، 1416 هــــ - 1996م، ج2، ص 245-246.

(2) - تفسير الشعراوي، ج14، ص 8945.

وليس ذاك إلا حبيبه الأكرم ﷺ ﴿ آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا ﴾ وهي مرتبة القرب منه عزّ وجل ﴿وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ وهو العلم الخاصّ الذي لا يُعلم إلاّ من جهته تعالى."[1]

وبهذه المعاني من أهل الفضل نكون قد قدّمنا لهذا العلم الشّريف الذّي سعى موسى عليه السّلام لمعرفته وتعلّمه من العبد الصّالح، بعزيمة وإرادة وإصرار، وفي أوّل لقاء بين المعلّم الخَضِر والمتعلّم موسى عليه السّلام نقف على السّلوكات التّربوية والعلميّة فيه:

. أدب موسى عليه السّلام وتواضعه كطالب علم مع أستاذه في ترجّيه بأن يُعلّمه ممّا علّمه الله "فيطلب موسى الجلوس إليه للتعلّم ويكون هذا التعلّم شيئا ميسورا، ويضع نفسه في مكان الخادم المطيع لا لشيء إلاّ ليستفيد مسألة تزيده هدى أو تصدّه عن ردى، وفي قوله: على أن تُعلّمني يتضمّن اعتراف موسى بجهله لأنّه في مرتبة المتعلّم، وكلّ ما عنده من علم لم يعتبره في مُقابل ما يرجو أن يزداد معرفة به. فهذه بعض الأخلاق التّي يقدّمها لنا موسى عليه السّلام لنستفيد منها في تقدير قيمة العلم وأهله فإنّه لا يعرف الفضل إلاّ ذووه، فالمتعلّم قد يُصيبه غرور أوّل مرّة ولكن كلّما تقدّم في العلم خطوة يظهر له جهله أكثر ويزداد معرفة بقيمة العلم وهذا دليل الرّشد والتّوفيق وقد عرف موسى عليه السّلام قيمة العلم لأنّه أوتي علما كثيرا.[2]

فعلى طالب العلم أن يكون حريصا على مراعاة الأدب مع شيخه وخدمته تقديرا للعلم وأهله، واعترافا لذوي الفضل بفصلهم وإكرامهم، فلله درّ سيّدنا موسى عليه السّلام الذّي قدّم لنا نموذجا قمّة في التّواضع للعلم وأهله، يقول الرازّي: " موسى صاحب التوراة وهو الرّجل الذي كلمه الله عز وجل من غير واسطة وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة، ثم إنه عليه السلام مع هذه المناصب الرفيعة والدرجات العالية الشريفة أتى بهذه الأنواع الكثيرة من التّواضع وذلك يدلّ على كونه عليه السلام آتيا في طلب العلم بأعظم أنواع المبالغة وهذا هو اللاّئق به لأنّ كلّ

---

[1] - الألوسي، روح المعاني، ج8، ص 344.

[2] - بيوض إبراهيم، في رحاب القرآن، تفسير سورة الكهف، ص 292-293.

من كانت إحاطته بالعلوم أكثر كان علمه بما فيها من البهجة والسّعادة أكثر فكان طلبه لها أشدّ وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشدّ."[1]

. قوله تعالى:﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا(67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا(68) قَالَ سَتَجِدُنِيَ إِن شَآءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا(69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا(70)﴾

في سياق العلاقة بين طالب العلم وأستاذه تُقدّم لنا هذه الآيات كيف يكون الاتفاق بين الأستاذ وتلميذه، في وضوح وحزم، لضمان نوع من الضّبط لحدود العمليّة التربويّة التّعليميّة، ومعرفة كلّ طرف لدوره وممارسة نشاطه في الإطار المسموح به والحصول على أكبر قدر من الاستفادة والإفادة من ثمرات هذا النّوع من الضّبط النّظامي، فقد شرط الخضر المعلّم على موسى المتعلّم ألاّ يسأل عن شيء حتّى يكشف له عن سرّ ذلك بعد الحادثة، فرضي موسى عليه السّلام بذلك، وقد تمّ الاتّفاق في جوّ من الهدوء والرويّة والرّضى والإقبال والتشوّق لطلب العلم، وهو ما يُعطي قيمة وأهميّة للحوار في العملية التّربويّة التّعليمية والوضوح في بسط الشّروط التّي تضمن ضبط نظام الصفّ وتبيّن العلاقة بين الأستاذ والطّالب، وفي ذلك "حصول أكمل أحوال المتَعَلّم مع المعلِّم، لأن السّؤال قد يصادف وقت اشتغال المسئول بإكمال عمله فتضيق له نفسه، فربّما كان الجواب عنه بدون شره نفس، وربّما خالطه بعض القلق فيكون الجواب غير شاف، فأراد الخَضِر أن يتولّى هو بيان أعماله في الإبان الذي يراه مناسبا ليكون البيان أبسط والإقبال أبهج فيزيد الاتّصال بين القرينين.[2]

فسيّدنا موسى عليه السّلام في هذا الموقف كان متشوّقا وقد أعدّ العدّة وتجشّم الصّعاب وتحمّل مشقّة السّفر للتعلّم، فلديه إصرار واستعداد لتقبّل أيّ شيء في سبيل ذلك فقد قال له الخضر:﴿إنّك لن تستطيع معي صبرا ﴾ تنبيها له على أنّ ما سيتعلّمه فيه مشقّة وصبر جميل،

[1] - الرازي، مفاتيح الغيب، ج21، ص 484.

[2] - ابن عاشور، التحرير، ج15، ص 373-374.

فكان الجواب منه عليه السّلام: ﴿ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا ﴾ وهذا تواضع شديد منه وإظهار للتّحمّل التّام للعواقب، وكلّ ذلك يدلّ على أنّ الواجب على المتعلّم إظهار التّواضع بأقصى الغايات، وأما المعلّم فإن رَأَى أنّ في التّغليظ على المتعلّم ما يفيده نفعا وإرشادا إلى الخير، فالواجب عليه ذكره فإنّ السّكوت عنه يُوقع المتعلّم في الغرور والنّخوة وذلك يمنعه من التعلّم.[1] ومن الأدب والتّواضع لله ربط سيّدنا موسى الأمر بمشيئة الله تعالى: ﴿ستجدني إن شاء الله صابرا﴾.

. قوله تعالى: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا اِمْرًا(71) قَالَ أَلَمَ اَقُلِ اِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا(72) قَالَ لاَ تُوَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنَ اَمْرِي عُسْرًا(73) فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلاَمًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَاكِيَةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكُرًا(74) قَالَ أَلَمَ اَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا(75) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍۭ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا(76)﴾

بعد الاتّفاق على شروط هذه الرّحلة العلميّة انتقل السّياق لبيان المشاهد العجيبة التّي هي محطّ ابتلاء لسيّدنا موسى عليه السّلام، وكانت البداية بإحداث خرق في سفينة بمجرّد الرّكوب فيها، فلم يصبر موسى عليه السّلام أمام هذا التصرّف العجيب الذّي يعني غرق السّفينة، فأنكر عليه الفعل بل اتّهم مُعلّمه باقتراف مُنكر فظيع، ممّا يدلّ على حدّة الطّبع والحالة الانفعاليّة التّي كان عليها؛ ذلك ما حدث مع موسى وهو يُحاول أن يُوائم بين ما شاهده وبين الحكم الشّرعي في إتلاف مال الغير.[2] فذكّره الخضر بالشّرط الذّي أقرّ على الوفاء به، فلم يكن من موسى عليه السّلام إلاّ ان اعتذر بالنّسيان واعترف بخطئه واعتذر في لباقة ولطف والتمس من معلّمه عدم المؤاخذة، فقبل الخضر اعتذاره وانتهى المشهد دون أن تُذكر تفاصيل أخرى ولم يفسّر له الخضر سبب خرق السّفينة.

---

[1] - الرازي، مفاتيح الغيب، ج21، ص 485.

[2] - كعباش، نفحات الرحمن، ج8، ص 137.

وفي موقف موسى من الاعتذار ما ينبغي أن يكون عليه طالب العلم إن بدر منه خطأ فعليه الاعتراف به وتلمّس العفو من مُعلّمه وتعلّم ثقافة الاعتذار والاعتراف بالخطأ، وهو أدب رفيع يزيد في شخصيّة المتعلّم.

المشهد الثاني: قتل الغلام

بعد المشهد العجيب من إفساد السّفينة بإحداث الخرق فيها انتقل السّياق لمشهد أعجب وهو قتل النّفس بغير حقّ "وإذا كانت الأولى خرق سفينة واحتمال غرق من فيها، فهذه قتل نفس، قتل عمد لا مجرد احتمال، وهي فظيعة كبيرة لم يستطع موسى أن يصبر عليها على الرغم من تذكّره لوعده:﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَاكِيَةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴾ فليس ناسياً في هذه المرة ولا غافلاً، ولكنّه قاصد، قاصد أن يُنكر هذا النّكر الذي لا يصبر على وقوعه ولا يتأوّل له أسباباً، والغلام في نظره بريء، لم يرتكب ما يُوجب القتل، بل لم يبلغ الحلم حتّى يكون مؤاخذاً على ما يصدر منه."[1] فجاءه التّذكير من مُعلّمه بما التزما به من شروط الصّحبة ولكن هذه المرّة في حدّة وحزم وعتاب ويدلّ على ذلك زيادة " لك " وهي مكافحة[2] بالعتاب على رفض الوصية، ووسماً بقلّة الثّبات والصّبر لما تكرّر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يَرْعَوِ بالتّذكير أوّل مرّة حتّى زاد في الاستنكار ثاني مرّة.[3]

وفي موقف الخضر في تذكير موسى عليه السّلام بما التزما به وكيفيّة التّعامل مع مثل هذه المواقف ما يحسُن أن يكون عليه المعلّم من الحلم والصّبر على أخطاء المتعلّم وترك مساحة الخطأ

---

(1) - سيد قطب، الظلال، ج15، ص 2280.

(2) - المكافحة المكالمة شفاها أي زيادة في مكافحة العقاب على رفض الوصية مرة بعد مرّة والوسم بعدم الصبر وهذا كما لو أتى إنسان بما نهيته عنه فلمته، وعنفته، ثم أتى به مرة أخرى فإنك تزيد في تعنيفه وكذا هنا فإنه قيل: أوّلاً ألم أقل إنك ثم قيل ثانياً: ألم أقل لك إنك. انظر: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي (ت: 1069هـ) حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، دار صادر – بيروت – د س ط، ج6، ص 123.

(3) - البيضاوي، أنوار التنزيل، ج3، ص 289.

مفتوحة وتصويبه، ولكن في حدود المعقول، بالتّذكير أوّلا، ثمّ العتاب، ثمّ الحسم والحزم في تطبيق ما اتّفق عليه.

وسيدنا موسى عليه السّلام لما رأى بأنّه لم يف بما التزم به في موضعين قال للعالم﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾أي فارقني فلا تكن لي مصاحبا فقد بلغت العذر في شأني[1] استحياء منه وإنصافا وفي ذلك ذكاء وتفطّن ونباهة من المتعلم في معرفة وقراءة أسلوب شيخه فقد تفطّن موسى عليه السّلام إلى أنّه قد أثقل على شيخه في موقفين فلا ينبغي أن يتكرّر منه ذلك في الثّالثة التّي جعلها حدّا فاصلا ليضبط نفسه على الصّبر ويتعلّم أكثر ولكنّه ربّما استعجل في اتّخاذ القرار، لذلك قال النبيّ ﷺ عند هذه الآية:" رحمة الله علينا وعلى موسى، لولا أنّه عجل لرأى العجب، ولكنّه أخذته من صاحبه ذمامة"[2] أي استحياء.

. قوله تعالى:﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اِسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوَا اَنْ يُّضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَّنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذتَّ عَلَيْهِ أَجْرًا(77) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَاوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا(78)﴾

المشهد الثّالث: إقامة الجدار

يقودنا السّياق إلى مشهد آخر متعلّق بقرية أهلها لئام كما وصفهم النبيّ عليه السّلام في الحديث لإبائهم ضيافة عابر السّبيل متى طلب الطّعام "مع أنّ إقدام الجائع على الاستطعام أمر مباح في كلّ الشرائع بل ربما وجب ذلك عند خوف الضرر الشديد،"[3] والضّيافة من مكارم الأخلاق وضدّها البخل ومنع الطّعام مثلما فعل أهل القرية مع موسى والخضر عليهما السّلام، ثمّ يبيّن الله تعالى بأنّهما وجدا في القرية جدار على وَشَك السّقوط فأقامه الخضر بما يسّر الله له

---

[1] - الطبري، جامع البيان، ج 18، ص 76.

[2] - سبق تخريجه من حديث مسلم، رقم: 172.

[3] - الرازي، مفاتيح الغيب، ج21، ص 487.

في ذلك، وقد تعجّب موسى عليه السّلام من هذا الفعل حتّى نسي ما قاله من قبل من العذر في المصاحبة وفسّر الرازي سبب النّسيان هنا بحالة الاضطرار والافتقار إلى الطّعام حتّى قال: لو شئت لاتخذت عليه أجرا أي طلبت على عملك أجرة تصرفها في تحصيل المطعوم وتحصيل سائر المهمّات.[1]

ولكنّ الخضر رأى إلى الأمر باعتبار قدر موسى ومقامه أتُنكر يا موسى عليّ الإحسان إلى من أساء إليّ؟ ليس من مقامك يا موسى ولا من مقامي هذا.... فالصّلحاء يعملون الخير للخير، لا يريدون به جزاء ولا شكورا هذه طريقة الأنبياء والصّالحين الكرام وهل مثل موسى والخضر ينحطّان عن هذه الدرجة حتى لا يعمل أحدهما خيرا إلا في مقابلة أجر دنيوي –وإن لم يكن موسى يقصد هذا أبدا–وإنما أغاظه هؤلاء إذ لم يضيفوهما فقال للخضر: لو طلبت منهم شيئا لنقتات منه، هذا كلّ ما في الأمر.[2] وهنا حصل موجب الافتراق على ما اتّفق عليه المعلّم والمتعلّم، ولا بدّ من الفراق بعد الالتقاء ولكن فراق في ودّ ومحبّة وصفاء ووضوح﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَاوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾.

خاتمة الأحداث

. قوله تعالى:﴿ اَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنَ اَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَاخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا(79) وَأَمَّا الْغُلاَمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُومِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَنْ يُّرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا(80) فَأَرَدْنَآ أَنْ يُّبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا(81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَّبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنَ اَمْرِي ذَٰلِكَ تَاوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا(82)﴾

بعد أن اطلعنا الله على المشاهد العجيبة التّي حدثت في رحلة موسى والخضر، ولما كان من شرط الخضر لموسى أن لا يسأله عن شيء حتّى يبيّن له ذلك، تشوّقت النّفس لمعرفة سرّ هذه

(1) - انظر: الرازي، المرجع نفسه، ج21، ص 489.

(2) - بيوض إبراهيم، تفسير سورة الكهف، ص 311.

التصرّفات العجيبة فينتقل السّياق إلى بيان تصديق العالم لما وعد به موسى عليه السّلام ممّا لم يُحط به خبرا ولم يصبر ويتمالك نفسه اتّجاه تلك الأمور العجيبة ليدرك أنّها لم تكن إلاّ تدبيرا من حكمة إلهيّة عُليا في مراعاة مصالح العباد:

. المحافظة على المال والرّأفة بالمساكين والضّعفاء وتحمّل أخفّ الضّررين لمنع الضّرر الأشدّ "فالسّفينة كانت لمساكين يسترزقون ويتكسّبون منها وكان أمامهم ملِك جبّار يغتصب كلّ سفينة صالحة، فإحداث العيب فيها إنّما هو لاتّقاء ما هو أضرّ بأولئك المساكين من الاستيلاء عليها كلّها لو بقيت سليمة."[1]

. مراعاة مصلحة الدّين بحفظ أتباعه من الكفر، فقتل الغلام كان لقطع فساد خاصّ علمه الله من أنّ تركيب عقل الغلام وتفكيره، عقل شاذّ وفِكْر مُنحرف طُبع عليه بأسباب مُعتادة من انحراف طَبع وقُصور إدراك، وذلك من آثار مُفْضِية إلى تلك النّفسية وصاحبها في أنّه ينشأ طاغيا كافرا؛ وأراد الله اللّطف بأبويه بحفظ إيمانهما وسلامة العَالَم من هذا الطّاغي لطفا أراده الله خارقا للعادة جاريا على مُقتضى سَبق علمه.[2] وممّا يُستفاد من الآية الرّضى بقضاء الله وقدره، لأنّ فقد الولد من المصائب الأليمة ولها وقع شديد على الإنسان يتطلّب صبرا جميلا لتجاوز المصيبة، "فالواجب على كل امرئ الرضا بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه له فيما يحب."[3]

. حفظ مال اليتيمين رأفة ورحمة بهما وجزاء لصلاح أبيهما "فقد اجتمع عند الغلامين ضعفان: ضعف الطّفولة البريئة وضعف اليتم، ومن تمام صلاح أبيهما أن ادّخر لحاجتهما مالا تركه لهما كنزا مدفونا تحت جدارهما، وكاد ينكشف ذلك الكنز لميلان الجدار، وليس للغلامين حول ولا قوة لإقامته، فقيّض الله العبد الصّالح للقيام بذلك العمل حفظا لمال اليتيمين حتى يبلغا أشدّهما،

---

(1) - كعباش، نفحات الرحمن، ج8، ص 242.

(2) - انظر: ابن عاشور، التحرير، ج16، ص 13.

(3) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 11، ص 38.

بحيث يملكان حينئذ القوّة على استخراج ذلك الكنز"[1] فصلاح الآباء بما تحمله كلمة " الصّلاح " من معاني الاستقامة على منهج الله من الإخلاص في العبادة والإيمان الصّادق والتوكّل على الخالق الرّازق ومنه تحرّي الكسب الحلال الذّي يبارك الله فيه ويصل نفعه للأبناء حتّى بعد هلاك الأب، بإرادة الله وقدرته؛ فهذه المعاني للصّلاح وغيرها تكون طريقا لصلاح الأبناء واستقامتهم، إكراما للوالد على صلاحه، والله أعلم.

ويحسن بنا ونحن في ختام أحداث هذه القصّة أن نذكر كلاما جميلا للألوسي يُلخّص فيه الدّروس المستفادة من القصّة ممّا يتعلّق بالعلم وغيره من الأحكام فيقول: "واستدلّ العلماء بما في القصّة حسبما ذكره شُرّاح الحديث وغيرهم على استحباب الرّحلة للعلم وفضل طَلبه، واستحباب استعمال الأدب مع العالم، واحترام المشايخ وترك الاعتراض عليهم، وتأويل ما لا يُفهم ظاهره من أفعالهم وحركاتهم وأقوالهم، والوفاء بعهودهم والاعتذار عند مخالفتهم، وعلى جواز اتّخاذ الخادم في السّفر وحمل الزّاد فيه وأنّه لا يُنافي التوكّل ونسبة النّسيان ونحوه من الأمور المكروهة إلى الشيطان مجازا وتأدّبا عن نسبتها إلى الله تعالى، واعتذار العَالِم إلى من يريد الأخذ عنه في عدم تعليمه ممّا لا يحتمله طبعه، وتقديم المشيئة في الأمر واشتراط المتبوع على التّابع وعلى أنّ النّسيان غير مؤاخذ به، وأنّ للثّلاث اعتبارا في التّكرار ونحوه على جواز ركوب السّفينة، وفيه الحكم بالظّاهر حتّى يتبيّن خلافه لإنكار موسى عليه السّلام، وعلى جواز أن يطلب الإنسان الطّعام عند احتياجه إليه وعلى أنّ صُنع الجميل لا يُترك ولو مع اللِّئام، وجواز أخذ الأجر على الأعمال، وأنّ المسكين لا يخرج عن المسكنة بملك آلة يكتسب بها أو بشيء لا يكفيه، وأنّ الغصب حرام وأنّه يجوز دفن المال في الأرض وفيه إثبات كرامات الأولياء على قول من يقول: الخضر وليّ إلى غير ذلك ممّا يظهر للمتتبع أو للمتأمل، وبالجملة قد تضمنت هذه القصة فوائد كثيرة ومطالب عالية خطيرة فأمعن النّظر في ذاك والله سبحانه يتولّى هُداك."[2]

---

[1] - كعباش، نفحات الرحمن، ج8، ص 245.

[2] - الألوسي، روح المعاني، ج8، 344.

المطلب الثالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة

ذكرنا فيما سبق أنّ سياق القصّة متعلّق بمحور العلم وما يتّصل به من أحوال العالم والمتعلّم ذلك أنّ الرّحلة في عمومها ابتلاء لموسى عليه السّلام فكان نموذجا -على قدر مكانته من النّبوءة وشرفها- لطالب علم يبحث عن مزيد فضل من علم الله تعالى والاستزادة منه بتطلّب صُحبة الخَضِر الذي خصّه الله تعالى بالعلم اللّدني فسعى سعيا حثيثا لبلوغ مُراده، وقد كانت هاتين الشّخصيّتين الرّئيسيّتين البارزتين في القصّة بالأدوار التّي قدّمتها كلّ شخصيّة من المتعلّم موسى والمعلّم الخضر عليهما السّلام، وقد رأينا من خلال تحليل أحداثها جملة من الصّفات السّلوكيّة التّي تخصّ كلّا من العالِم والمتعلّم ولا ندّعي أنّنا أحطنا بكلّ ما يتعلّق بهذا الجانب في القصّة فلا تزال هناك حاجة إلى مزيد نظر وتأمّل وتدبّر.

أمّا إذا انتقلنا إلى السّياق العام للسّورة وجدنا بأنّه متعلّق بالعصمة من الفتن والابتلاءات وطرق النّجاة منها، وقد تبين لنا من القصّة بأنّ الرّحلة كانت محطّ ابتلاء لموسى عليه السّلام، ليزداد علما وقربا من الله تعالى، ويعلم بأنّ هناك أمورا لم يطّلع عليها موسى عليه السّلام من مثل العلم اللّدني الذي خصّ الله به بعض عباده منهم الخَضِر والذي أخبرنا الله تعالى عن بعض الأمور التّي أطلعه الله عليها من خلال المواقف الثلاث فكان سببا في تغيير بعض الأوضاع الاجتماعية مثل الظّلم والاعتداء على أموال النّاس من فعل الملك الذي يستبيح ثروات الرعيّة ويعتدي عليها غصبا، أو الفساد الأخلاقي الذي قد ينشؤ من عقوق الوالدين وغيرها، وقد رأينا ما لهذا العلم من أثر في الواقع من خلال المشاهد العجيبة التّي مرّت بنا في القصّة والتيّ تُعتبر في أصلها ابتلاءات كان العاصم منها العلم النّافع، ولكنّها تحمل حكما وعبرا من عند الله تعالى فالحالة الاجتماعية والماديّة للمسكين واليتيم ابتلاء، وفقد الولد ابتلاء، والانسان في كلّ ذلك مُحاط بعناية الله وحفظه وقدرته وما علينا سوى الإيمان بقدرة الله وقضاءه وقدره ونسلّم أمرنا له ونتوكّل عليه في جميع أمورنا؛ لتُضاف هذه الابتلاءات إلى مجموع الابتلاءات المختلفة في السّورة لتكون متناسبة ومتناسقة مع السّياق العام للسّورة.

من جهة أخرى فإنّ مشاهد القصّة تعلّمنا أنّ هناك علما غيبيّا ومكنون واسع لا يعلمه إلاّ الله، قد يُطلع عليه بعض عباده من غير الأنبياء وهو ما أشار إليه الخضِر في الرّواية التّي أخرجها البخاري في صحيحه: « فلما ركبا في السفينة جاء عصفور، فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، قال له الخضر يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر...»[1] فعِلم الله الشّامل وحكمته وتدبيره ممّا اتّفقت عليه قصص السّورة في بيان معانيه، "وترتبط قصّة موسى والعبد الصالح في سياق السورة، بقصة أصحاب الكهف في ترك الغيب لله، الذي يُدبّر الأمر بحكمته، وفق علمه الشّامل الذي يقصر عنه البشر الواقفون وراء الأستار، لا يكشف لهم عمّا وراءها من الأسرار إلاّ بمقدار..."[2]

كما تتّفق القصّة كذلك مع خطّ السّياق العام لمحور العلم في السّورة، فقد ذُكرت صفة العلم بصيغة التّفضيل: "أفعل" في أربعة مواضع في السّورة، وبما يتوافق أيضا مع ختام السّورة:﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا(109) ﴾ ونخلص إلى أنّ سياق القصّة بما فيها من مشاهد عجيبة، وبيان لمكانة العلم تتناسق وتتّسق مع السّياق العام للسّورة بشكل لافت، وتُقرّر هذه المعاني في جميع تفاصيل أحداثها من التّمهيد إلى الخاتمة، فالعلم أساس كلّ سعادة وقوام كلّ أمر.

---

[1] - سبق تخريجه، رقم: 3401، ج4، ص 154.

[2] - سيد قطب، الظلال، ج15، ص 2282.

المبحث الرابع: صفات الشّخصيّة المؤمنة الصّابرة

هذا المبحث نتناول فيه دور السّياق في بيان معاني قصّة أمّ موسى في سورتي طه والقصص فقد كان معاني آياتها من سورة طه في سياق ذكر منن الله تعالى على موسى عليه السّلام، أمّا في سورة القصص فقد كان للسّياق دور بارز في بيان الصّفات الشّخصيّة لأمّ موسى من الإيمان والثّبات والصّبر على ما مرّت به من ظروف عصيبة في مرحلة الولادة من حياة موسى عليه السّلام، وسنحاول من خلال مطالب المبحث التّفصيل في أحداثها أكثر.

المطلب الأوّل: قصّة أمّ موسى كما عرضها القرآن الكريم

ذُكرت أحداث قصّة أمّ موسى في سورتين فقط من القرآن الكريم هما: سورتي طه، والقصص، حيث ورد ذكرها في أربع آيات من سورة طه ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ(37) إِذَ اَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ(38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَاخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيَ(39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلَ اَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَّكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تقرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ(40) ﴾ [طه: 37-40] وفي سبع آيات من سورة القصص ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنَ اَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِيَ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ(7) فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا اِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ(8) وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَنْ يَّنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ(9) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا اِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُومِنِينَ(10) وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ(11) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلَ اَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ(12)

فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(13)﴾ [القصص: 7-13]

وسورة طه من السّور المكيّة[1] ومن أوائل ما نزل من فيها[2] فهي بذلك تُعالج مواضيع متعلّقة بالعقيدة شأنها في ذلك شأن السّور المكيّة، ولنتعرّف أكثر على السّياق العام للسّورة نستعرض آراء بعض المفسّرين على الشّكل الآتي:

يقول البقاعي بأنّ المقصود من السّورة تشريف النبيّ محمّد ﷺ بإعلامه بالرّفق بأمّته والإقبال بقلوبهم حتّى يملؤوا الأرض كثرة كما أنزل عليهم السّكينة وهم في غاية الضّعف والقلّة وحماهم ممّن يُريد قتلهم...[3]

يقول سيد قطب بأنّ سياق السّورة العام يتضمّن خطابا للرّسول ﷺ بأنّ وظيفته في تبليغ الرّسالة ليست شقوة كُتبت عليه وليست عناء إنما هي الدّعوة والتّذكرة، والتّبشير والإنذار، وأنّه تعالى هو العليم الخبير، إذا اصطفى أحدا لإبلاغ دعوته فلا يشقى بها ويحيطه برعايته تعالى وقصّة موسى عليه السّلام أدلّ على ذلك فهي نموذج كامل لرعاية الله تعالى لمن يختارهم لإبلاغ دعوته.[4]

ويقول صاحب نفحات الرحمن بأنّ السّياق العام للسّورة متعلّق بموضوعات السّور المكيّة التّي تركّز على إثبات أصول العقيدة الاسلاميّة من التّوحيد والنّبوءة والبعث.[5]

وفي التّفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم نجد بأنّ السّياق العام للسّورة هو رعاية الله للمختارين لحمل الدعوة من الرّسل وأتباعهم، والرّفق بالمدعوّين، والعناية بهم.[6]

---

(1) - انظر: ابن عطية، المحرر، ج4، ص 36.

(2) - انظر: الرازي، مفاتيح الغيب، ج22، ص7.

(3) - البقاعي، نظم الدرر، ج 12 ، ص 265-266.

(4) - انظر: سيد قطب، الظلال، ج16، ص 2326-2327.

(5) - كعباش، نفحات الرحمن، ج8، ص 367.

(6) - مصطفى مسلم وآخرون، التفسير الموضوعي لسور القرآن، ج4، ص 493.

من خلال ما سبق يمكننا القول بأنّ السّياق العام للسّورة يدور حول معاني العناية الإلهيّة لمن اصطفاهم لحمل لواء الدّعوة من الرّسل والمدعوّين، والتّذكير بأنّ تبليغ الرّسالة ليست شقاء وتعبا وإنّما هو منهج الدّعوة والتّذكرة المحاط بعناية الله وعلمه وقدرته، ويتبيّن هذا من خلال ما يلي:

- فاتحة السّورة التّي تخاطب النبيّ ﷺ وتُطمئنه بأنّ القرآن الذّي أُنزل إليه لم يكن أبدا ليسبّب له الشقاء والعناء، والله أعلم حيث يجعل رسالاته.

- جوّ السّورة العام، فمن حيث النّزول كانت من أوائل ما نزل في مكّة والنبيء ﷺ لم يستطع بعد إظهار دينه الذي جاء به، فكان يحمل همّا كبيرا لأنّ أكابر قريش والفصحاء والبلغاء يعتزّون ببيانهم، وهم أدرك النّاس لسحر البيان وتأثيره كيف لم يؤثّر فيهم القرآن ولم يجتذبهم، بل حادّوه وجادلوه وجحدوه، وكان النبيء يتحسّر ليله ونهاره، وربّما خطر بباله أنّه قصّر في الدّعوة ولم يف بالواجب الذي تقتضيه النبوّة والرّسالة.[1] ومن حيث الإيقاع الذّي ميّز السّورة ننقل هذا الكلام النديّ الطيّب لسيّد قطب يقول: "وللسّورة ظلّ خاصّ يغمر جوّها كلّه... ظلّ علويّ جليل، تخشع له القلوب، وتسكن له النّفوس، وتعنو له الجباه... إنّه الظلّ الذي يخلعه تجلّي الرّحمن على الوادي المقدّس على عبده موسى، في تلك المناجاة الطّويلة، واللّيل ساكن وموسى وحيد، والوجود كلّه يتجاوب بذلك النجاء الطّويل... وهو الظلّ الذي يخلعه تجلّي القيّوم في موقف الحشر العظيم: ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا(108) ﴾ ﴿ وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا(111) ﴾ والإيقاع الموسيقي للسّورة كلّها يستطرد في مثل هذا الجوّ من مطلعها إلى ختامها رخياً شجياً ندياً بذلك المدّ الذاهب مع الألف المقصورة في القافية كلّها تقريباً."[2]

[1] - انظر: بيوض إبراهيم، في رحاب القرآن، تفسير سورتي مريم وطه، ص 218-219.

[2] - سيد قطب، الظلال، ج16، ص 2327.

- قصّة موسى عليه السّلام وما تحمله من معاني الرّعاية الإلهيّة له من خلال الآيات الآتية: من قوله تعالى:﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَىٰ(36) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ(37)﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِيَ(41) ﴾ وهي الآيات المعنيّة بالدّراسة في هذ المبحث، والمعيّة الإلهيّة في قوله تعالى: ﴿ لاَ تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ(46) ﴾ وما بعدها من الآيات التّي تبرز المعجزات التّي أيّد الله بها موسى عليه السّلام وكيفيّة نجاته من فرعون وعمله، فهذه بعض القرائن المعينة على بيان السّياق العام للسّورة ممّا ذكرناه من خلاصة أقوال السّابقين في معرفة سياق السّورة العام المتمثّل في عناية الله تعالى للمصطفين لحمل الدّعوة من الرّسل وأتباعهم.

أمّا سورة القصص فهي من السّور المكيّة إلاّ قوله عز وجل:﴿ إِنَّ الذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾[القصص: 85]، نزلت هذه بالجحفة في وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، قاله ابن سلام وغيره، وقال مقاتل: فيها من المدني﴿ الذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾[القصص: 52] إلى قوله:﴿ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾[القصص: 55][1]

ويذكر ابن عاشور أنّها سمّيت سورة القصص ولا يُعرف لها اسم آخر، ووجه التّسمية بذلك وقوع لفظ القصص فيها عند قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ [القصص: 25] فالقصص الذي أُضيفت إليه السّورة هو قصص موسى الذي قصّه على شعيب عليهما السّلام فيما لقيه في مصر قبل خروجه منها، فلمّا حُكي في السّورة ما قصّه موسى كانت هاته السّورة ذاتَ قَصصٍ لحكاية قصصٍ، فكان القصص متوغّلا فيها.[2]

أمّا عن سياق السّورة فنعرض أقوال أصحاب الفضل في هذا الجانب كالآتي:

---

[1] – ابن عطيّة، المحرر، ج4، ص 275.

[2] – ابن عاشور، التحرير، ج20، ص 61.

يقول ابن الزبير الغرناطي: أنّ السّورة وما فيها من آيات التخويف والترهيب والإنذار والتهديد ما انجر معه الإشعار بأنّه عليه السلام سيملك مكة ويفتحها تعالى عليه، ويُذِل عُتَاة قريش ومتمرّديهم، ويعزّ أتباع رسوله عليه السلام ومن استضعفته قريش من المؤمنين(1)

يقول البقاعي أنّ مقصود السّورة التّواضع للهِ، المستلزم لردّ الأمر كلّه إليه، الناشئ عن الإيمان بالآخرة، الناشئ عن الإيمان بنبوة محمد ﷺ الثابتة بإعجاز القرآن، المظهر للخفايا، على لسان من لم يتعلم قط من أحد من الخلق، المنتج لعلو المتصف به، وذلك هو المأخوذ من تسميتها بالقصص، الذي حكم لأجله شعيب بعلو الكليم -عليهما السلام- على من ناوأه، وقمعه لمن عاداه، فكان المآل وفق ما قال.

وسيد قطب يقول بأنّ السّورة تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم، فقرّرت أنّ هناك قوّة واحدة في هذا الوجود، هي قوّة الله، وأنّ هناك قيمة واحدة في هذا الكون، هي قيمة الإيمان، فمن كانت قوّة الله معه فلا خوف عليه، ولو كان مجرّداً من كلّ مظاهر القوّة، ومن كانت قوّة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى، ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كلّه، ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلاً.(2)

ويذكر الشيخ كعباش أن سياق السّورة ومحورها العام يدور حول تركيز العقيدة كغيرها من السّور المكية سيما في بيان قوّة الله وقدرته إذ قهر كل الطّغاة المتجبرين من أمثال فرعون وقارون، وكيف يمنّ على المستضعفين في الأرض فيمكّن لهم وينصرهم على أعدائهم، لذلك كان التّركيز على قصّتي فرعون وقارون في حوالي ثلثي السّورة مع بيان عاقبتهما المشؤومة كمَثلين لسلطان الله وقدرته وكيف ينتقمُ من الظّالمين.(3)، وتصوّر لنا آيات السّورة مقدار الطّغيان والظّلم والاستعباد الذّي كان يمارسه الظالمون من خلال كلمة الخوف التّي ترددت في السّورة عشر مرات بصيغ مختلفة وردت مرة واحدة في صورة مضادة لمادة الخوف وهي الأمن

(1) – ابن الزبير الغرناطي، البرهان في تناسب سور القرآن، ج1، ص 266.

(2) – سيد قطب، الظلال، ج20، ص 317.

(3) – انظر: كعباش، نفحات الرحمن، ج10، ص 177.

فهذه إحدى عشرة مرة، وهو تكثيف ربّما لم يتكرر في سورة أخرى في القرآن وذلك ليصوّر من خلال التكرار ما ملأ القلوب من رعب ورهب وخوف وفزع من فرد طغى وبغى وتجبّر و تألّه.[1]

ويمكن تلخيص الأقوال السّابقة في أنّ السّياق العام للسّورة يتمثّل في: الدّعوة إلى توحيد الله تعالى ببيان قوّة الله وقدرته على التّصريف والتّدبير، وإثبات نبوّة محمّد ﷺ من خلال ما عُرض من مشاهد قصّة موسى وفرعون وكذا قصّة قارون وهي أدلّ ما فيها على السّياق العام للسّورة، تسلية للنبيّ ﷺ والمؤمنين و تأكيدا لرعاية الله تعالى للمؤمنين وذلك بأنّ ما هم فيه من الصّبر على استضعاف طغاة قريش لهم سيجنون ثمره بمنّ الله عليهم والتّمكين لهم وإذلال أولئك الطّغاة كما أُذلّ فرعون وهامان وقارون، فالسّورة تحمل معاني قدرة الله تعالى وقوّته وحفظه ورعايته وعدله وتدبيره ممّا تختصّ به السّور المكيّة في مجال ترسيخ العقيدة.

وبالمحصّلة يمكن القول بأنّ السّياق العام للسّورة بيان سلطان الله وقوّته وحكمه وإنفاذ القدرة في الدّنيا والآخرة، وإرادته التّمكين للمصلحين المتّقين والانتقام من الطّغاة الظّالمين المفسدين.

المطلب الثاني: سياق المقطع

أوّلا: عرض أحداث القصّة

أحداث القصّة كما ترويها كتب التّفسير تذكر بأنّ فرعون ذُكر له أنّ خراب مُلكه يكون على يد غلام من بني إسرائيل فأمر بقتل كلّ مولود يولد لبني إسرائيل، ثمّ إنّه رأى مع أهل مملكته أنّ فناء بني إسرائيل يعود على القِبط بالضّرر إذ هم كانوا عَمَلة الأرض والصنّاع ونحو هذا، فعزم على أن يقتل الولدان سنة ويستحييهم سنة فولد موسى في العام الرابع سنة القتل

[1] – أحمد نوفل، **تفسير سورة القصص – دراسة تحليلية موضوعيّة –** جمعية المحافظة على القرآن الكريم، الأردن، ط:3، 1436هـ- 2015م، ص 196.

فخافت أمّه عليه الذبح فبقيت مهتمة فأوحى الله إليها بأن تتّخذ تابوتا فتقذف فيه وليدها وتقذف بالتابوت في البحر الذي ساقه إلى فرعون، فأحبّته امرأة فرعون وطلبت له المراضع فلم يقبل امرأة، وكانت أمّه حين ذهب عنها بقيت مغمومة فؤادها فارغ إلاّ من همّه فقالت لأخته اطلبي أمره في المدينة عسى أن يقع لنا منه خبر، فبينما الأخت تطوف إذ بصرت به وفهمت أمره فقالت لهم أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون، فردّ الله تعالى موسى إلى أمّه ترضعه وتكفله وتسعد به كما وعدها الله. [1]

ثانيا: سياق المقطع من سورة طه

قصّة أمّ موسى في سورة طه وردت في سياق النّعم التّي أكرم الله بها موسى عليه السّلام، وقد عدّها الرّازي ثمانية فقال: "المنّة الأولى: قوله: إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له.... المنة الثانية: قوله: وألقيت عليك محبة مني... المنة الثالثة: قوله: ولتصنع على عيني.... المنة الرابعة: قوله: إذ تمشي أختك ....والمنة الخامسة: قوله: وقتلت نفسا فنجيناك من الغم... المنة السادسة: قوله: وفتناك فتونا... المنة السابعة: قوله تعالى: فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى... المنة الثامنة: قوله تعالى: واصطنعتك لنفسي."[2]

وكان القصد من إيراد مشاهد القصّة تحسيس سيّدنا موسى عليه السّلام بعظيم عطاء الله عليه وجميل أفضاله التّي لا تنقطع منذ الولادة وتنجيته من الذّبح والقتل مرورا بحفظه وتنجيته من تبعات القتل الذي تمّ على يديه وغيرها من الابتلاءات التّي ابتُلي بها ورحمة الله رعايته تُرافقه في جميع أحواله، فالمقام مقام تذكير بالنّعم وتثبيت على مهمّة الرّسالة والتّبليغ، لذلك

[1] - انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، ج4، ص 43-44، بيوض إبراهيم، في رحاب القرآن، تفسير سورتي مريم وطه، ص 274-278.

[2] - انظر: الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ج 22، ص46-50.

اقتصرت الأحداث المتعلّقة بأمّ موسى على ذكر مشاهد من هذه النّعم في فترة ميلاده عليه السّلام ورعايته طفلا فقد ورد ذكر هذه الأحداث بعد الحوار الذّي كلّف الله فيه موسى عليه السّلام بالرّسالة وتبليغها إلى فرعون وملئه فناسب أن تكون بداية الحديث عن أمّ موسى بلفظ المنّة﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ(37) إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ(38)﴾ "والمنّ الإحسان والإفضال، وهي حفظه سبحانه له من شرّ الأعداء في الابتداء، وذلك حين الذبح. والله أعلم."[1]

ثمّ عاد السّياق إلى نقطة الحوار والتّكليف بالرّسالة﴿ اذْهَبَ اَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِيَ(42) اذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ(43) ﴾فالقصّة بذلك تكون قد ذُكرت في ثنايا الحوار المتضمّن تكليف موسى عليه السّلام بالرّسالة، فالشّخصيّة التّي وُجّه إليها الخطاب هو موسى عليه السّلام، أمّا شخصيّة أمّ موسى فيمكن اعتبارها فرعيّة ولها دور ثانويّ في السّياق العام للقصّة، لذلك نجد أحداثها وردت في سياق متسارع وجاءت لخدمة هدف مُعيّن وهو تجلية معنى رعاية الله لموسى وتوضيحه أكثر في مرحلة من مراحل عمره، قبل الرّسالة وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال ما يلي:

. استعمال كلمات فيها معنى التّسارع في سرد الحدث مثل:

. التّعبير بالقذف والذي يدلّ على السّرعة في التّنفيذ كمن يرمي شيئا بقوّة.[2]

. حرف الفاء العاطفة وما فيها من معاني ترتيب الأفعال وضمّها بعضها إثر بعض (فاقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليمّ فليلقه اليمّ بالسّاحل) (إذ تمشي أختك فتقول هل أدلّكم على من يكفله فرجعناك إلى أمّك) فقد جاءت هذه الأفعال متّسقة بعضها إثر بعض وكأنّ الأمر بينها قريب.

---

(1) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج11، ص 195.

(2) - كعباش، نفحات الرحمن، ج8، ص 392.

. الألفاظ الدّالة على رعاية الله تعالى لسيّدنا موسى والتّي تدلّ على زيادة كرم الله تعالى له ومنّه عليه في مثل قوله تعالى:﴿ وأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيَ ﴾"بمعنى أنّ الله ألقى محبّته على موسى، فحبّبه إلى آسية امرأة فرعون، حتى تبنّته وغذّته وربّته، وإلى فرعون، حتّى كفّ عنه عَادِيته وشرَّه، وقد قيل: إنّما قيل: وألقيت عليك محبة منّي، لأنّه حبّبه إلى كلّ من رآه."[1]

. وأعجب من هذا أنّ كلمة "الخوف" وما في معناها وردت عدّة مرّات في السّورة وفي سياق المقطع خاصّة بسباقه ولحاقه فكانت المرّة الأولى في قوله تعالى: ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلاَ **تَخَفْ** سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ(21) ﴾ والمرّة الثانية عندما طلب موسى عليه السّلام من الله تعالى أن يُزيل عنه العُقدة من لسانه ويُرسل معه أخاه هارون ليسانده ويُؤازره وفي ذلك ما يُشعر تخوّف موسى عليه السّلام من مسؤولية التّبليغ، والثالثة في قوله تعالى: ﴿ قَالاَ رَبَّنَآ إِنَّنَا **نَخَافُ** أَنْ يَّفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوَ اَنْ يَّطْغَىٰ(45) قَالَ لاَ **تَخَافَآ** إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ(46) ﴾ "ولكن مثل هذا التخوّف، يبدو وكأنّه دافع غريزيّ (طبيعة الخوف الإنساني) مادام الأمر متّصل ببداية الاضطلاع بالمسؤوليّة وبخاصّة أنّ النصّ القصصي نفسه قد أضفى على الموقف ما يُحسّ الشّخصيّة بمناخ الخوف، من نحو تكراره بأنّ فرعون قد طغى مثلا، وإشارة النصّ إلى مخاطبة فرعون باللّغة الليّنة، يُحسّس موسى عليه السّلام بأنّه أمام مهمّة محفوفة بالأخطار، حيث سيواجه طاغية من الصّعب أن يخضع لليُونة القول."[2] وربّما كانت هذه الحالة التّي انتابت موسى عليه السّلام من الخوف احتاج السّياق القرآني فيها إلى تطمين نفس موسى عليه السّلام وتحسيسه بأنّ الله معه في جميع أحواله فذكّره بالمواقف الصّعبة التّي مرّ بها منذ الولادة ومع كلّ ابتلاء يجد رحمة الله ورعايته له فيخرج منها منتصرا، والله أعلم.

---

(1) - الطبري، جامع البيان، ج18، ص 303.

(2) - انظر: محمود البستاني، دراسات فنية في قصص القرآن، ص 369.

بالإضافة إلى الضّمائر العائدة إلى الذّات الإلهية العلويّة من نون العظمة وغيرها (أوحينا، ألقيت عليك محبّة منّي، لتُصنع على عيني، فرجعناك) فكلّ هذه القرائن التّي تدلّ على رعاية الله تعالى لموسى عليه السّلام في فترة من فترات حياته، جاءت متناسقة مع السّياق العام للسّورة من رعاية الله تعالى للمُصطفين لحمل الرّسالة فمن حيث السّباق واللّحاق وردت أحداث قصّة أمّ موسى في ثنايا الحوار الذّي حمل عنوان تكليف موسى عليه السّلام بتبليغ الرّسالة إلى فرعون، ومن حيث الأحداث فالمشاهد كلّها سرد لمنن الله على موسى عليه السّلام في فترة الرّعاية الخاصّة له من أمّه وما صاحبها من أفضال الله عليه، لتكون بذلك أحداث القصّة متّسقة ومتناسقة تمام الاتّساق مع سياق السّورة العام بالرّغم من عدم التزام القصّة من حيث السّرد بالتّسلسل الزّمني للأحداث والتّي ابتدأت بحادثة بحث موسى عليه السّلام عن النّار، ثمّ لقاؤه بالله تعالى وتكليفه بالرّسالة والذّهاب إلى فرعون، فهذين الحدثين روعي فيهما التّسلسل الزّمني ولكن بعد ذلك يرتدّ السّياق إلى مرحلة ما قبل البحث عن النّار، من ولادته وإلقاءه في التّابوت ونجاته من اليمّ، وقتل النّفس ولبثه في مدين، ثمّ يرجع السّياق إلى حيث قَطع تسلسل الأحداث من تكليفه بالذّهاب إلى فرعون، فكلّ هذا ينطوي على إعجاز ونظم عجيب خاصّ بالقرآن الكريم وما دور السّياق في هذا كما عرفنا إلاّ بيان لسرّ هذا الإعجاز.

ثالثا: سياق المقطع من سورة القصص

الملاحظ على أحداث قصّة أمّ موسى في هذه السّورة الكريمة أنّها متعلّقة بنشأة موسى عليه السّلام في مرحلة الطفولة وبالتّحديد فترة الولادة والرّضاعة، حيث تُقدّم لنا معطيات عن البيئة التّي كان يعيش فيها بنو إسرائيل تحت الحكم الفرعوني من الاستعباد والطّغيان وقد سيقت أحداث هذه القصّة لبيان إرادة الله وقدرته تعالى في تصريف شؤون الخلق، وخفيّ تدبيره وكمال حكمته وعلمه وذلك ما يُمكن أن نستشفّه من خلال تحليل أحداث القصّة وتتبّع سياق المعاني الواردة فيها كالآتي:

من حيث السّباق واللّحاق:

الآيات السّابقة للقصّة هي مقدّمة السّورة الكريمة والممهّدة لقصّة موسى عليه السّلام، وفرعون وما كان من خبرهما بالحقّ الذّي لا مِرية فيه من عالم الغيب والشّهادة، تقدّم لنا مُعطيات عن الواقع المرير الذي عاشه بنو إسرائيل في مصر تحت الحكم الفرعوني لمجرّد توجّس الخطر والحذر منهم أن يسلبوه الملك والحكم، وقد ذكر سيّد قطب سببين من الأسباب التّي جعلت فرعون يعتقد بأنّ تهديد مُلكه سيكون من طائفة بني إسرائيل، الأوّل: أنّ لهم عقيدة غير عقيدته هو وقومه، عقيدة جدهم إبراهيم وأبيهم يعقوب والتي تقوم على أصل الاعتقاد بإله واحد، وبالتالي إنكار ألوهية فرعون والوثنية الفرعونية جميعاً، الثاني: العدد المتزايد لهذه الطّائفة التي أصبحت تُعدّ بمئات الألوف وقد تُشكّل خطراً على عرشه وملكه ويصبحون إلباً عليه مع جيرانه الذين كانت تقوم بينهم وبين الفراعنة الحروب.

وتبعا لذلك قام بتسخيرهم للأعمال الشّاقّة، وإذلالهم وتعذيبهم بشتى أنواع العذاب، وتذبيح الذكور من أطفالهم عند ولادتهم، واستبقاء الإناث كي لا يتكاثر عدد الرجال فيهم؛ وبذلك يُضعف قوّتهم بنقص عدد الذّكور وزيادة عدد الإناث، فوق ما يصبّه عليهم من نكال وعذاب، ورُوي أنّه وكّل بالحوامل من نسائهم قوابل مولدات يخبرنه بمواليد بني إسرائيل، ليبادر بذبح الذكور، فور ولادتهم حسب خطّته الجهنميّة الخبيثة، التي لا تستشعر رحمة بأطفال أبرياء لا ذنب لهم ولا خطيئة.[1]

فهذه كانت ظروف ولادة موسى عليه السّلام تُفصّله مقدّمة السّورة تمهيدا للدّخول في أحداث القصّة.

[1] - انظر: سيد قطب، الظلال، ج20 ، 2677.

أمّا من حيث اللّحاق فالآيات امتداد لقصّة موسى وانتقال من بيان حاله في مرحلة الولادة والطّفولة إلى مرحلة "بلغ فيها مبلغه الذي لا يزيد عليه نشؤه وذلك من ثلاثين إلى أربعين سنة فإن العقل يكمل حينئذ، واستوى قده أو عقله."[1]

من حيث أحداثُ القصّة:

هذا المقطع من قصّة أمّ موسى ورد بشكل أكثر تفصيلا مقارنة بما ورد في سورة طه، فقد جاءت أحداث القصّة في سياق بيان قدرة الله في وإنفاذ إرادته وتدبيره الخفيّ، وقد أفصح تعالى عن الهدف من أحداث القصص الوارد في السّورة ومنها قصّة أمّ موسى في مقدّمة السّورة فقال:﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الاَرْضِ وَنَجْعَلَهُمُ أَيِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ(5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الاَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ(6) ﴾ أمّا تفاصيل القصّة فتبرز لنا هذا المنّ على أمّ موسى وابنها وإرادة الله وقوّته في فرعون وهامان وجنودهما على نحو واضح "فإنّ الإرادة لما تعلّقت بإنقاذ بني إسرائيل من الذلّ خلق الله المنقذ لهم."[2]

مثلما تبرز لنا أيضا ما تحمله من مشاعر نفسيّة عميقة لأمّ موسى اتّجاه ابنها بمقتضى عاطفة الأمومة فقد خافت من أن تطال أيدي القتل ابنها فأوحى الله إليها بما ينشرح صدرها به وأمرها بأن تُرضعه ثمّ تُلقيه في البحر إن خافت عليه الضرر من جنود فرعون ونهاها عن توجّس الخوف من هلاكه ومن فراقه، وطمأنها بما يُشعرها بالأمان من أنّ قدرة الله تعالى وإرادته ستُرجعه إليها وسيكون من المرسلين، فكان من تدبير الله أن يلتقط آل فرعون هذا المولود وتكون نجاته على أيديهم، "لأنّهم كانوا مجرمين فجعل الله ذلك عقابا لهم على ظلمهم بني إسرائيل وعلى عبادة الأصنام."[3]، ثمّ انتقل السّياق إلى بيان حال المولود موسى وخفيّ تدبير الله في تنفيذ أمره ورعايته وحفظه له، وموسى بين يدي فرعون الذّي كان يأمر بقتل الأولاد

---

(1) - البيضاوي، أنوار التنزيل، ج 4، ص 173.

(2) - ابن عاشور، التحرير، ج 20، ص 73.

(3) - ابن عاشور، المرجع نفسه، ج 20، ص 76.

ويبحث عنهم في كلّ أرجاء مُلكه تسوقه القدرة الإلهية إليه وإلى قومه "وهم لا يعلمون خفي إرادة الله من الانتقام من أمة القبط بسبب موسى، واختير يشعرون هنا لأنّه من العلم الخفي، أي لا يعلمون هذا الأمر الخفيّ."[1] ويرجع السّياق إلى أمّ موسى مُشعرا بأنّها كانت متلهّفة لمعرفة مصير ابنها بعد أن ألقت به في اليمّ وعبرّ عن ذلك بجملة:" أصبح فؤاد أمّ موسى فارغا " وقد اختلف المفسّرون في إجابتهم عن السّؤال المطروح عن الآية: فؤاد أمّ موسى فارغ من ماذا؟ على النّحو الآتي:

الأوّل: أنّه فارغ من الخوف والحزن وهذا دليل إيمانها وثباتها ويقينها بوعد الله.

الثاني: وهو الرّاجح عند أغلب المفسّرين أنّه كان من الصّبر ومن العقل حتى كادت تغفل عن وعد الله بما خامرها الشّيطان به من الوساوس والشّكوك ومن تأنيب الضّمير، خاصّة عندما علمت بأن أعوان فرعون قد حملوا التّابوت إلى القصر حتى كادت تصيح وتعلن أنها أمّ الوليد لولا أن تداركها الله بالصّبر واليقين فعاودها إيمانها وثقتها بوعد الله، وليس ذلك بمستغرب من أمّ في مثل ذلك الموقف العصيب.[2] والقرآن الكريم في سرده لأحداث القصّة يصوّر الأحاسيس والمشاعر على حقيقتها فلم تخل هذه المشاهد وغيرها من مراعات التّركيبة النّفسيّة العاطفيّة للمرأة وبيان عاطفة الأمومة، وتقديرها فبعد أن طلب الله تعالى من الأمّ أن تُلقي بابنها في البحر مع ما في ذلك الفعل من الصّعوبة، أتبعها بالكلمات التّي تُراعي فيه حالها ونفسيّتها في ذلك الموقف، لا تخافي ولا تحزني، أي لا تخافي فإنّه تحت رعاية الله وقدرته ولا تحزني على فراقه فلن يدوم طويلا وسيرجع إليك، وبالفعل وقع منها ذلك الحزن موقعا كادت تكشف عن أنّها أمّ الوليد، لولا رحمة الله بها، ورباطة جأشها ويقينها بوعد الله، فطلبت من أخته تتبّع أثره ومعرفة أخباره بحذر وعناية دون أن يشعر آل فرعون بذلك؛ ثمّ ينتقل السّياق إلى مشهد آخر من تدبير الله الحكيم وتوفير أسباب عودة موسى الوليد إلى أمّه بجعله لا يقبل أن يرتضع من

---

[1] - ابن عاشور، المرجع نفسه، ج 20، ص 80.

[2] - انظر: كعباش، نفحات الرحمن، ج10، ص 188-189.

المرضعات، وكون أخته مشيرة لهم إلى من يُرضعه ويتولّى رعايته، "لأنّ القدرة التي ترعاه تدبّر أمره، وتكيد به لفرعون وآله، فتجعلهم يلتقطونه، وتجعلهم يحبّونه، وتجعلهم يبحثون له عن ظئر تُرضعه، وتُحرم عليه المراضع، لتدعهم يحتارون به، وهو يرفض الثّديّ كلّما عرضت عليه، وهم يخشون عليه الموت أو الذّبول! حتّى تبصر به أخته من بعيد، فتعرفه وتتيح لها القدرة فرصة لهفتهم على مُرضع، فتقول لهم﴿ هَلَ اَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ(12) ﴾؟ فيتلقّفون كلماتها، وهم يستبشرون، يودّون لو تصدق فينجو الطّفل العزيز المحبوب!"[1]

ويعود الإبن إلى أمّه بإرادة الله وقدرته، لتقرّ عينُها إذ رجع إليها سالما، ولا تحزن على فراقه، فتحقّق وعده تعالى لأمّه "وفي الآية تعريض بما فرط منها حين سمعت بوقوع موسى في يد فرعون."[2]﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ(13)﴾

هكذا كانت دلائل تدبير الله الخفيّ في سياق أحداث القصّة، فقد أراد فرعون استئصال شعب بأكمله للحفاظ على مُلكه وسلطانه، ولكنّ قوّته وطغيانه وتجبّره اصطدم بالقوّة الإلهية وإرادته وتدبيره، ممّا قد عرفناه من أحداث القصّة سواء ما تعلّق منها بالسّباق واللّحاق، وما يتعلّق بتفاصيل القصّة من مقدّمة ممهدّة لها وكلمات تحمل معاني التّدبير الخفيّ لله تعالى، ودور أمّ موسى في بيان معاني الإيمان واليقين والصّبر والتوكّل على الله، فالمشاعر التّي صاحبت أحداث القصّة من الخوف والهلع تُصوّر لنا مدى الرّعب والعذاب والأذى الذّي كان يمارسه فرعون وهامان وجنودهما على بني إسرائيل من خلال خوف أمّ موسى على وليدها، فكيف يمكن أن تكون للإنسان الذي يعيش تحت هذه الظّروف قوّة لتحمّل ذلك العذاب النّفسي والجسدي؟ فيقدّم الله تعالى لنا أمّ موسى مثالا للشّخصيّة المؤمنة الصّابرة المتوكّلة على الله في جميع أحوالها، "وتبين لنا أين يكون الأمن وأين تكون المخافة، وتعلّمنا بأنّ الأمن إنّما يكون

[1] - سيد قطب، الظلال، ج20، ص 2680.

[2] - البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص 173.

في جوار الله ولو فقدت كلّ أسباب الأمن الظّاهرة التي تعارف عليها الناس، وأنّ الخوف إنّما يكون في البعد عن ذلك الجوار ولو تظاهرت أسباب الأمن الظّاهرة التي تعارف عليها الناس، فحين يشيع الفساد ويكثر الشرّ ويقف الخير والصّلاح عاجزا، عندئذ تتدخّل قدرة الله لتضع حدّا للشرّ والفساد."[1] ، فقدرة الله تعالى وإرادته فوق كلّ اعتبار، ومن كان الله معه فلا خوف عليه، فهذه المعاني الّتي أفصحت عنها أحداث هذه القصّة ممّا يتوافق مع السّياق العام للسّورة، فقد كانت أحداث القصّة موضّحة لتلك المعاني في أسلوب قصصي مشوّق ومشاهد محسوسة يتقبّلها العقل وتكون قابلة للاستحضار في مُختلف الأحوال، والله أعلم.

---

[1] - سيد قطب، الظلال، ج20، ص 2675.(بتصرّف)

المبحث الخامس: الآداب الاجتماعية

من خلال هذا المبحث يُحاول الباحث إبراز دور السّياق في بيان معاني قصّة لم تتكرّر في أيّ سورة أخرى وتُعتبر مرحلة مهمّة من مراحل حياة سيّدنا موسى عليه السّلام وبالأخصّ إعداده لتحمّل أمانة الرّسالة ونحاول من خلال أحداثها التّركيز على السّلوكات المتعلّقة بشخصيّات القصّة سواء من سيّدنا موسى عليه السّلام أو من الشّيخ الكبير وابنتيه في مجال الأسرة والمجتمع بشكل عام لما لها من أبعاد اجتماعيّة وأخلاقيّة راقية.

المطلب الأوّل: سياق المقطع

أوّلا: عرض أحداث القصّة

ذكر الله تعالى قصّة الرّجل الصّالح وابنتيه مع سيّدنا موسى عليه السّلام في سورة القصص في الآيات من 22 إلى 28 من السّورة الكريمة، فقد توجّه سيّدنا موسى عليه السّلام إلى مدين خائفا ممّا قد يصيبه من قومه جرّاء قتله لرجل قبطيّ، فلمّا وصل إلى بئر مدين لاحظ أنّ النّاس يسقون من البئر إلاّ امرأتين تمنعان غنمهما، فبادرهما بالسّؤال عن السّبب فقالتا أنّهما لا تقويان على المزاحمة ولا مُعين لهما على ذلك لأنّ أباهما شيخ كبير، فتولّى أمر السّقاية عنهما، وبينما هو جالس تحت ظلّ شجرة يدعوا الله أن يُعينه على شكر نعمه عليه جاءته إحداهما تمشي على استحياء تحمل إليه دعوة أبيها ليجازيه على المعروف الذّي قدّمه لهم، فلمّا حضر عنده قصّ عليه موسى ما أصابه من قومه، فطمأنّه الشّيخ وأعطى له الأمان، فبادرت إحدى الفتاتين أباها باقتراح عرض عمل يقضي باستئجار موسى عليه السّلام لمهمّة الرّعي لما رأت فيه من القوّة الجسديّة والأمانة الخُلقيّة، فوافق الشّيخ على ذلك وعرض على موسى الزّواج من احدى ابنتيه على أن يكون أجيرا عنده لثماني أو عشر سنوات، فاطمأنّ موسى لذلك وتمّ الاتّفاق، ولما استوفى الأجل سار بأهله عائدا إلى مصر.

ثانيا: سباق الآيات ولحاقها

جاءت القصّة ضمن سلسلة أحداث متعلّقة بموسى عليه السّلام، ومراحل حياته حيث ابتدأت بسرد تفاصيل عن طفولته، ثمّ مرحلة بلغ فيها أشدّه واستوى ونضج عقله ثمّ مرحلة زواجه من احدى ابنتي الرّجل الصّالح وهي الأحداث التّي نحن بصدد الحديث عنها، والتّي كانت امتدادا لحادثة قتله لرجل قبطيّ، حيث جاءه من أقصى المدينة رجل ينصحه بأن يخرج من المدينة لأنّ القوم يدبّرون له مكيدة ليقتلوه فخرج منها خائفا يترقّب مستغيثا الله تعالى أن يُنجيه منهم، واهتدى إلى سلوك طريق مدين إلى أن وصل موضع ماء سقاء القوم وحصل معه ما قصّه الله لنا في سورة القصص ممّا قد عرضنا له في النّقطة السّابقة، ثمّ انتقل السّياق إلى مرحلة مهمّة في حياة موسى عليه السّلام وهي مرحلة النّبوءة وتلقّي أمر التّكليف بالرّسالة من الله تعالى، وبذلك تكون أحداث القصّة متّصلة بالمراحل العمريّة المهمّة في حياة سيّدنا موسى عليه السّلام وترتبط ارتباطا وثيقا بالحدث الذّي قبله من حيث بيانُ سبب خروج موسى عليه السّلام من مصر وانتقاله إلى مدين من حيث السّباق، ومن حيث اللّحاق كانت امتدادا للمراحل السّابقة وخاتمة لها بضمان الأمن النّفسي والاستقرار الأسري في بيت الزّوجيّة، في سبيل إعداد الله له عليه السّلام لتكاليف النبوّة والرّسالة، ومواجهة أعتى طاغية على وجه الأرض.

هكذا كانت العلاقة بين هذه الأحداث في اتّصال وثيق من حيث تتابع المعاني والأحداث فنّيا وزمانيا ومكانيا.

ثالثا: تحليل أحداث القصّة

تحدّثنا آيات القصّة عن مشهد لحياة سيّدنا موسى ﷺ مُغتربا بعيدا عن قومه ليعيش عشر سنوات مع أُناس في مدين هم الشّيخ الكبير الذي لم يُفصح القرآن ولا المصادر الأخرى الموثوقة عن اسمه ولا عن اسم ابنتيه، ولكن المشتهر عند النّاس أنّه النبيّ شُعيب وبذا قال بعض المفسّرين

وقد ذكر ابن عطيّة أنّ جمهور المفسّرين على ذلك[1] وربّما دفعهم إلى ذلك أنّ شعيب عليه السّلام من مدين وبُعث إليهم، وردّ بعض المفسّرين هذا القول استنادا إلى بعض القرائن، فنجد الشّيخ السّعدي يتساءل عن الملازمة بين ما عُرف بأنّ شُعيب من مدين وبين هذه الحادثة التي كانت في مدين؟ ثمّ يُضيف قائلا بأنّه غير معلوم أنّ موسى أدرك زمان شُعيب، فكيف بشخصه؟ " ولو كان ذلك الرجل شُعيبا، لذكره الله تعالى، ولَسَمَّته المرأتان، وأيضا فإن شُعيبا عليه الصلاة والسّلام قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إيّاه، ولم يبق إلاّ من آمن به، وقد أعاذ الله المؤمنين أن يرضوا لِبِنْتَيْ نبيّهم، بمنعهما عن الماء، وصدِّ ماشيتهما، حتّى يأتيهما رجل غريب، فيحسن إليهما، ويسقي ماشيتهما، وما كان شُعيب ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادما له، وهو أفضل منه وأعلى درجة، والله أعلم.[2]

ويميل الباحث إلى هذا القول الأخير من أنّ الشّيخ الكبير ليس النبيّ شُعيب وإنّما هو شيخ صالح من أهل مدين لم يحدّد القرآن اسمه ولا اسم ابنتيه كما أشرنا من قبل.

وإذا رجعنا إلى أحداث القصّة نقول بأنّ موسى عليه السّلام تعرّف على الشّيخ الكبير وابنتيه عن طريق تقديم مساعدة لهم انتهى بزواج سيّدنا موسى عليه السّلام بإحداهما مُقابل عمله كأجير في رعي الغنم مدّة عشر سنوات.

ونحاول من خلال أحداث القصّة التّركيز أكثر على السلوكيات المتعلّقة بشخصيّات القصّة لما لها من أبعاد اجتماعيّة وأخلاقيّة راقية من خلال تتبّع مشاهد أحداث القصّة كالآتي:

. مشهد تقديم المساعدة لابنتي الرّجل الصّالح:

لما وصل سيّدنا موسى عليه السّلام ماء مدين وجد﴿ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ أي جماعة كثيرة مختلفين[3] وفائدة الآية الإشارة إلى لُؤم طباع أولئك النّاس بدليل تنكير أمّة ووصفهم

[1] - ابن عطية، المحرر، ج4، ص 184.

[2] - السعدي عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج1، ص 614.

[3] - البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص 175.

بالنّاس من أنّهم مختلفي الأجناس لسوء مسلكهم كما قال الألوسي:" أي جماعة كثيرة مختلفي الأصناف، ويشعر بالقيد الأوّل التنوين، وبالثاني من النّاس لشموله للأصناف المختلفة وهي فائدة ذكره، وقيل فائدته تحقير أولئك الجماعة وأنهم لئام لا يعرفون بغير جنسهم أو محتاجون إلى بيان أنهم من البشر."[1] لأنّهم لم يُراعوا حقّ الضّعاف من النّساء، فهم بذلك ليسوا بأهل مروءة ولا شهامة وفي ذلك أيضا يقول سيد قطب: "والأولى عند ذوي المروءة والفطرة السليمة، أن تسقي المرأتان وتصدرا بأغنامهما أولاً، وأن يفسح لهما الرجال ويعينوهما."[2]

فقد استرعى انتباهه مشهد رؤية امرأتين[3] تذودان بمعنى تحبسان غنمهما عن الناس حتى يفرغوا من سقي مواشيهم.[4] " والأصل أنّ من يقدم إلى مورد الماء يسوق ماشيته إلى البئر لترتوي لا أن يمنعها من ذلك فسألهما قائلا:﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾؟ولم يقل ما شأنكما؟ وكأنّه استشعر بأنّ هناك ظُلم أو احتقار أو شرّ أصاب الفتاتين "لأنّ استعمال السّؤال بالخطب إنمّا هو في مصاب أو مُضطهد أو من يشفق عليه أو يأتي بمنكر من الأمر فكأنه بالجملة في شر "[5] فأخبرتاه بخبرهما من أنّهما لا تستطيعان السّقي ومزاحمة الرّجال الأقوياء لضعفهما وأنّ أباهما كبير في السنّ لا يقوى على سقي غنمه، هكذا كان الجواب مقتضبا يحمل دلالة فصاحة ونباهة الفتاتين﴿ لاَ نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ وهناك من يرى بأنّ امتناع الفتاتين عن السّقي ومزاحمة الرّجال ليس لضعفهما وإنّما لعفّتهما، فلم يحملهما القيام بهذا

---

(1) - الألوسي، روح المعاني، ج10، ص 269.

(2) - سيد قطب، الظلال، ج20، ص 2686.

(3) - تعبير القرآن بلفظ: المرأة له دلالته ومقصده فلم يقل بنتان أو فتاتان، لأنّ لفظ المرأة قد يطلق ويراد به الكاملة وهو المعنى الذي ذكره صاحب اللّسان يقول:" وفي حديث علي، كرم الله وجهه، لما تزوج فاطمة، رضوان الله عليهما: قال له يهودي، أراد أن يبتاع منه ثيابا، لقد تزوجت امرأة، يريد امرأة كاملة، كما يقال فلان رجل، أي كامل في الرجال. انظر:ابن منظور، لسان العرب، مادة مرأ، ج1، ص 156. ويقول فضل عباس أيضا بأنّ لفظ المرأة في القرآن يطلق على الأنثى التي بلغت مبلغ النّساء وليس على المتزوجة وحدها دلالة على بلوغها واكتمال أنوثتها. انظر: فضل عباس، القصص القرآني، ص 495.

(4) - الطبري، جامع البيان، ج19، ص 553.

(5) - ابن عطية، المحرر الوجيز، ج 4، ص 283.

العمل إلاّ ضعف أبيهما فتخرجان للسّقي اضطرارا، وهذا ما يدلّ عليه حذف المفعول لأنّ الغرض هو بيان ما يدلّ على عفّتهما ويدعوه إلى السّقي لهما[1] ومع ما يدلّ لفظ أبونا شيخ كبير من التّقدير والتّبجيل والبرّ والإحسان فالشّيخ في اللّغة هو الذي استبانت فيه السنّ وظهر عليه الشّيب؛ وقيل: هو شيخ من خمسين إلى آخره وشيّخته: دعوته شيخا للتّبجيل"[2].

فهذه الأخلاق التّي صدرت من الفتاتين من العفّة والحياء من مزاحمة الرّجال والخروج لهذا العمل اضطرارا، وكذا تبجيل الوالد واحترامه دليل التّربية وحسن الخُلق، وبالمقابل فإنّ تصرّف موسى عليه السّلام مع الفتاتين دليل على شهامته ومروءته عليه السّلام بالرّغم من أنّه غريب بين القوم ولا يعرف منهم أحدا، ومُطارد من قومه وقد أنهكه السّفر وطول المسير، "ولكن هذا كلّه لا يقعد به عن تلبية دواعي المروءة والنجدة والمعروف، وإقرار الحق الطبيعي الذي تعرفه النّفوس: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾ ممّا يشهد بنبل هذه النّفس التي صُنعت على عين الله."[3]

وممّا ينبغي الإشارة إليه في قراءة هذا المشهد ما فيه من مظاهر الاستضعاف والفساد والاستعلاء واحتقار الضّعيف، والذّي ظهر في تصرّف الرّعاء مع الفتاتين، إذ الواجب والأولى في مثل هذه المواقف احترام الضّعيف وتقديم المرأة مراعاة لحيائها ومكانتها الاجتماعية كربّة بيت لا تقوى على أعمال الرّجال الأقوياء خارجه، خاصّة في مثل حال الفتاتين وأنّهما باشرتا هذا العمل اضطرارا، وهو ما يتوافق مع المعاني التّي سيقت في السّورة الكريمة من بيان بعض مظاهر الاستضعاف والاستعلاء كما هو حال فرعون مع بني إسرائيل وقارون مع قومه.

وقد قدّم لنا سيّدنا موسى عليه السّلام السّلوك العملي الذّي ينبغي أن يتمثّله كلّ إنسان فيه ذرّة من الخير، وغيرة على محارم الله وسيرا على خُطى الصّالحين، وقد كتب الإمام الزّمخشري كلاما رائعا في قراءة هذا المشهد، ننقله بتمامه للإفادة منه، يقول: "وإنّما فعل هذا رغبة في المعروف وإغاثة للملهوف، والمعنى: أنّه وصل إلى ذلك الماء وقد ازدحمت عليه أمّة من أناس

[1] - انظر: البيضاوي، أنوار التنزيل، ج4، ص 175.

[2] - ابن منظور، لسان العرب، مادة شيخ، ج3، ص 31-32.

[3] - سيد قطب، الظلال، ج 20، ص 2686.

مختلفة متكاثفة العدد، ورأى الضّعيفتين من ورائهم مع غنيمتهما مترقبتين لفراغهم، فما أخطأت همّته في دين الله تلك الفرصة، مع ما كان به من النصب وسقوط خف القدم والجوع، ولكنه رحمهما فأغاثهما، وكفاهما أمر السقي في مثل تلك الزحمة بقوّة قلبه وقوّة ساعده، وما آتاه الله من الفضل في متانة الفطرة ورصانة الجِبِلّة وفيه مع إرادة اقتصاص أمره وما أوتى من البطش والقوّة وما لم يغفل عنه، على ما كان به من انتهاز فرصة الاحتساب، ترغيب في الخير، وانتهاز فرصه، وبعث على الاقتداء في ذلك بالصّالحين والأخذ بسيرهم ومذاهبهم."[1]

مشهد دعوة الرّجل الصّالح لموسى عليه السّلام

ينتقل السّياق بعد بيان المعروف الذّي قدّمه موسى عليه السّلام للفتاتين إلى مناجاته عليه السّلام لربّه﴿ ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾شاكرا لنعمه الكثيرة عليه، فقد دعا الله أن يُمدّه بالخير، وكلمة الخير ذُكرت في الآية على عمومها وليس هناك ما يُقيّد معناها في الطّعام فقط، كما فسّرها بعض أصحاب الفضل[2]، لذلك فإنّ ابن عاشور أخذ بعين الاعتبار ما يحتاجه الغريب في غربته مراعاة لسياق المقام من مأوى وطعام وطمأنينة وسكن في بيت الزوجيّة، فقال: "وأحسن خير للغريب وجود مأوى له يطعم فيه ويبيت وزوجة يأنس إليها ويسكن، فكانت استجابة الله تعالى بما أشعرت به فاء التّعقيب في قوله: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا﴾ بأن ألهم شعيبا أن يرسل وراءه لينزله عنده ويزوّجه بنته فذلك يضمن له أنسا في دار غربة ومأوى وعشيرا صالحا[3] وهذا من الخير الذّي طلبه موسى فاستجاب الله تعالى له ورزقه الطّعام والمسكن والزّوجة الصّالحة، وفي ذلك بيان لأهميّة الإيمان الصّادق والدّعاء الخالص لله تعالى، وما له من أثر في حياة المسلم، فسيّدنا موسى عليه السّلام خرج من مصر خائفا يترقّب فطلب من الله الهداية فهداه إلى طريق مدين، ولما ورد ماء مدين

(1) - الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 401.

(2) - انظر: الطبري، جامع البيان، ج 19، ص 556.

(3) - انظر: ابن عاشور، التحرير، ج 20، ص 103.

وقدّم عملا خالصا لوجه الله بمساعدته للفتاتين استجاب الله له فرزقه الطّعام والمأوى والزّوجة الصّاحة.

أمّا ما يخصّ الفتاة فقد أفصح المشهد عن سلوكين:

. **الأوّل** في قوله تعالى: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَآءٍ قَالَتِ اِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ قَدِمت إحدى الفتاتين إلى موسى عليه السّلام لتقدّم له دعوة أبيها ويكافئه على الخير الذّي قدّمه لهم، وقد عبّر القرآن عن الأدب الرّفيع في ذلك الحياء الذّي تمكّن من الفتاة بأداة الاستعلاء بما يُشعر بأنّ الحياء كأنّه مركّب لها وهي متمكّنة منه، مالكة لزمامه، غير متبخترة ولا مُظهرة لزينة لأنها كُلِّفت الإتيان إلى رجل أجنبي تكلّمه وتُماشيه.[1] هكذا كان سلوك الفتاة في تعاملها مع أجنبيّ بالكاد عرفته من خلال موقف واحد في حشمة وحياء ينمّ عن تربية صالحة مستقيمة "فمع الحياء الإبانة والدقّة والوضوح، لا التّلجلج والتعثّر والربكة، وذلك كذلك من إيحاء الفطرة النّظيفة السّليمة المستقيمة، فالفتاة القويمة تستحي بفطرتها عند لقاء الرّجال والحديث معهم، ولكنّها لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب الاضطراب الذي يطمع ويُغري ويُهيج، إنّما تتحدّث في وضوح بالقدر المطلوب، ولا تزيد."[2] وزاده تأكيدا بعثها لوحدها دون مرافق لملاقاة رجل أجنبيّ غريب ثقة في تربيته لابنته، وفي هذا ما يدعونا إلى أخذ مفهوم مهمّ في التربية الصّحيحة السّليمة للبنت بتحصينها في البيت فهو المحضن الأوّل الأصيل الذّي تأخذ منه البنت القيم الأخلاقيّة الرّصينة.

وممّا يُشار إليه في هذا المشهد ما ينبغي أن يكون عليه الرّجل من حسن الخلق والمروءة وعزّة النّفس والوقوف عند محارم الله ما يجعله أهلا للاحترام والتّقدير ويُكسبه المهابة الموجبة لحسن الأدب مع النّاس، والحياء من الفتاة أو المرأة على شاكلة ابنة الشّيخ الصّالح، يقول عبد الرحمن السّعدي: "موسى عليه السلام، لم يكن فيما فعله من السّقي بمنزلة الأجير والخادم الذي لا

[1] - البقاعي، نظم الدرر، ج14، ص 264. (بتصرّف يسير)

[2] - سيد قطب، الظلال، ج 20، ص 2687.

يُستَحَى منه عادة، وإنّما هو عزيز النّفس، رأت من حسن خلقه ومكارم أخلاقه، ما أوجب لها الحياء منه."[1]

. **الثّاني**: في قوله تعالى على لسان الفتاة:﴿ قَالَتِ اِحْدَاهُمَا يَآ أَبَتِ اسْتَاجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَاجَرْتَ الْقَوِيُّ الاَمِينُ﴾ إنّ هذا الكلام الذي خاطبت به الفتاة أباها مع فيه من الأدب والبرّ والتودّد منبثق من فطرتها وأنوثتها السّليمة كما ذكر سيّد قطب، ويدلّ على عفّتها ونباهتها "فقولها كلام حكيم جامع، لأنه إذا اجتمعت الكفاية والأمانة في القائم بأمر، فقد تم المقصود"[2] فقد رأت بأنّ مهمّة رعي الغنم مهمّة شاقّة ومتعبة تتطلّب القوّة والصّبر وهي لا تقوى على ذلك لتتفرّغ لما يُلائمها من شؤون البيت، وأنّ مُزاحمة الرّجال في السّقي ليس من شيمها، وموسى عليه السّلام يمتلك الصّفات التّي تتطلبّه هذه المهمّة ليكفيهم مؤنة الاشتغال فيها، وقد خَبرت قوّته لما سقى لهما وأمانته في تعامله معها سواء في الحوار المقتضب بينهما قبل السّقي أو بعده لما جاءته حاملة دعوة أبيها له وفي عدم طلب أيّ مقابل على ذلك، وغيرها من الأمور التّي تدخل في المعنى العام للأمانة؛ وموسى عليه السلام كان من حاله أنّه غريب مُفارق لأهله ووطنه، فالعمل سيكفُل له كرامته ورزقه عندهم، هكذا كان تقدير البنت للموقف والشّيخ الكبير قابل هذا الاقتراح بحنكة ونباهة، وفهم مُراد البنت "وقدّر الموقف الحسّاس وهو يحتضن في بيته شابّا فاره القوّة يتردّد على ابنتيه في كلّ وقت، فلا بدّ -إذن- من علاقة شرعية بينه وبين إحداهما حتّى يزيل عنه الحرج، فليكن هو الزّواج الشّرعي بكلّ ما يتطلّبه من مهر وشهود وقبول ورضى، فاقترح الشّيخ أن يكون مهر ابنته إجارة موسى عنده لرعي أغنامه لمدّة ثماني سنوات ثمّ خيّره في زيادة سنتين إن شاء أكملهما دونما إعنات ولا إلزام، ثمّ عاهده على حسن المعاملة ولطافة المعشر، وهو في ذلك مستند إلى مشيئة الله وإرادته."[3] وكان ردّ موسى عليه

(1) – عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ج1، ص 614.

(2) – أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، ص 299.

(3) – كعباش، نفحات الرحمن، ج 10 ، ص 201.

السّلام بالإيجاب والرّضى على اقتراح الشّيخ بالموافقة على العقد وما يتضمنّه من شروط، والتوكّل على الله وتوفيقه للوفاء بما اتّفقا عليه.

هكذا في بساطة وعفّة وطهارة يتمّ تقديم هذا الزّواج بين موسى عليه السّلام وابنة الشّيخ الكبير ويقدّم لنا مثالا للزّواج الذّي لا تكلّف ولا تصنّع فيه، وكان لسيّد قطب وقفة مع موقف الشّيخ الكبير في عرض ابنته للزّواج لتصحيح بعض المفاهيم المتعلّقة بأمر الزّواج وبناء الأسرة فقال بأنّ الشّيخ الصّالح "يعرض بناء أسرة وإقامة بيت وليس في هذا ما يخجل، ولا ما يدعو إلى التحرّج والتردّد والإيماء من بعيد، والتصنّع والتكلّف ممّا يشاهد في البيئة التي تنحرف عن سواء الفطرة، وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة، تمنع الوالد أو وليّ الأمر من التقدّم لمن يرتضي خُلقه ودينه وكفايته لابنته أو أخته أو قريبته، وتحتم أن يكون الزّوج أو وليه أو وكيله هو الذي يتقدّم، أولا يليق أن يجيء العرض من الجانب الذي فيه المرأة!" ثمّ يُضيف معلّقا على السّلوكيّات المتناقضة في بعض البيئات: "ومن مفارقات مثل هذه البيئة المنحرفة أن الفتيان والفتيات يلتقون ويتحدّثون ويختلطون ويتكشفون بعضهم لبعض في غير ما خطبة ولا نيّة نكاح، فأمّا حين تعرض الخطبة أو يذكر النّكاح، فيهبط الخجل المصطنع، وتقوم الحوائل المتكلّفة وتمتنع المصارحة والبساطة والإبانة!"[1] وهو واقع نعيشه للأسف بحاجة إلى تظافر الجهود وإسهام كلّ من جانبه الذّي يحسنه ويتقنه لتغيير مثل هذه السلوكيات وتصحيح بعض المفاهيم في المجتمع لبناء أسرة صالحة تساهم في المحافظة على قيم المجتمع الإسلامي الطّاهر، فعمليّة التّربية لا تتمّ إلاّ في نطاق واسع يجمع الأسرة والتّعليم والمجتمع.

فهذا المشهد القصير مع ما استفدنا منه في سلوك البنت وفطرتها السّليمة ونباهتها وحنكة الشّيخ في تقدير الظّروف والحاجات النّفسيّة والطبيعيّة للإنسان من مأوى وسكن وارتباط وطمأنينة إلاّ أنّ هناك دروسا وعبر كثيرة يمكن الاستفادة منها في عدّة جوانب أخلاقية وتربويّة ونفسيّة واجتماعيّة تُضاف إلى منظومة القيم الإسلامية الأصيلة الرّفيعة.

---

(1) - سيد قطب، الظلال، ج 20، ص 2688.

المطلب الثاني: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة

من خلال الأحداث السّابقة في قصّة موسى عليه السّلام مع الشّيخ الكبير وابنتيه يتبيّن لنا بأنّها تحمل معاني قدرة الله تعالى ورحمته في تصريف شؤون خلقه، بحيث نجد أنّ السّياق الذي يخدم هذا المعنى في القصّة ينقسم إلى سياق أساسي وآخر فرعي، نعرض لهما على النّحو الآتي:

. السّياق الأساسي: رعاية الله تعالى لسيّدنا موسى عليه السّلام وإعداده للرّسالة، ويتّضح هذا من خلال سباق الآيات المتضمّن سلسلة أحداث متعلّقة بحياة سيدنا موسى عليه السّلام والتّي صاحبتها عناية الله وقدرته منذ الولادة ومُعجزة إنقاذه من قتل فرعون له وإنقاذه من اليمّ ومن ثمّ إرجاعه إلى أمّه كي تقرّ عينها ولا تحزن، ومُرورا بتخليص الله له من تبعة قتله لرجل قبطيّ بعد أن عزم الملأ على قتله حتّى ساق الله إليه الرّجل الذّي نصحه بالخروج من مصر خشية أن يُصيبه مكروه، وهداه الله لسلوك طريق مدين التّي وجد فيها الأمن على نفسه من خلال العمل والمسكن والزّوجة الصّالحة، وهيّأ الله له فيها أسباب العيش الكريم مدّة إقامته فيها، فهذه كلّها من أفضال الله تعالى على سيّدنا موسى عليه السّلام لإعداده للرّسالة كما قال تعالى في سورة طه بعد أن ذكر مننه عليه:﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِيَ ﴾ [طه: 41].

. السّياق الفرعي: وهو ما تحمله معاني الآيات من أمور متعلّقة بالأسرة والمجتمع مع ما فيها من معاني اسم الله الرّازق، وهذا بناء على الأحداث الآتية:

سيّدنا موسى عليه السّلام كان سببا في تغيير واقع الظلم الذي طال أسرة ضعيفة لا تقوى على مُجابهة أُناس طغت عليهم مظاهر الأنانيّة وعدم احترام الضّعيف أو المرأة في عمل لا يقوى عليه إلاّ الرّجال في عُرفهم بدليل أنّ الفتاتين ربطتا سبب حبسهما لغنمهما عن السّقاء بعدم وجود رجل قادر على مزاحمة الرّجال فأبوهما شيخ كبير في السنّ، وقد تمّ هذا التّغيير بأسلوب في مُنتهى البساطة، تولّى السّقاية بدلا عنهما ثمّ رجع إلى الظلّ، ولكن هذه البساطة في المبادرة

إلى فعل الخيرات وصناعة المعروف أعقبها خير كثير متمثّل في العمل والمأوى والزّوجة الصّالحة، فصنع الخير هنا كان سببا لهذا الرّزق الوفير.

وصف الله تعالى مِشية الفتاة وهي ذاهبة إلى موسى عليه السّلام بأنّها مِشية الحياء الذي تمكّن من صاحبه، فهذا الوصف ربّما يُقدّم لنا تصوّرا عن البيئة الطّاهرة العفيفة الذّي تربّت فيه الفتاة في كنف أسرة صالحة مُصلحة.

وتأكيدا لهذا نقرأ تقبّل الشّيخ لاقتراح ابنته وعرضها للزّواج من موسى على أنّه من طهارة البيت أيضا فقد أراد بذلك أن يضمن جوّا أسريّا طاهرا يستريح فيه الجميع.

وما حدث في هذه القصّة مع موسى عليه السّلام كان سببا لرزق أُسرة ضعيفة متكوّنة من شيخ كبير في السنّ وامرأتين، يعيشون عيشة بسيطة ويتقوّون على رعاية أغنام بالكاد ربّما يوفّرون منها قوت يومهم، فساق الله تعالى إليهم موسى عليه السّلام ليقوم على شؤونهم ويكفُل لهم قوت يومهم، فالرّزق إذا مكفول من الجهتين من أسرة الشّيخ الكبير ومن موسى عليه السّلام، فسبحان الرزّاق العليم.

ويمكننا أن نخرج بنتيجة مفادها أنّ طهارة البيت والاستقامة على دين الله والتوكّل عليه في اتّخاذ الأسباب وفعل الخيرات من أسباب الرّزق والله أعلم.

وبهذا نكون قد عرفنا سياق القصّة بقسميه الأصلي والفرعي من رعاية الله تعالى لسيّدنا موسى عليه السّلام وما تشتمل عليه معاني الآيات من أمور متعلّقة بالأسرة والمجتمع وما فيها من أمور خفية في تدبير الله تعالى، وذلك ممّا يتماشى مع السّياق العام للسّورة في بيان قوّة الله وقدرته على التّصريف والتّدبير وتأكيد رعايته لعباده المؤمنين وهو ما يرتبط ارتباطا وثيقا بأحداث القصّة من توفير أسباب الأمن والطّمأنينة لموسى عليه السّلام ورعايته وإعداده للتّكليف بمهمّة الرّسالة، وتأكيد رعايته تعالى لعباده المؤمنين أصحاب البيت الطّاهر من الشّيخ الكبير وابنتيه وما ظهر من تدبير الله الخفي في بسط الرّزق لعباده.

ومن المعاني التي يمكن الاستفادة منها في سياق السّورة ما ذكره الله تعالى من نماذج للاستعلاء والفساد ونماذج للخير والصّلاح والإصلاح وعاقبة كلّ منهما ففرعون علا في الأرض وعاث فيها فسادا هو وجنوده فنبذه الله في اليمّ، وموسى عليه السّلام سار في الأرض وعمرها بالخير والصّلاح والإصلاح فمنّ الله عليه بأفضاله الكثيرة وخصّة بالرّعاية والهداية، وابنة شُعيب العفيفة الطّاهرة التي وصف القرآن مشيتها بأنّها تمشي على استحياء، بمعنى تمكّن الحياء منها في جميع أحوالها أكرمها الله تعالى بالزّواج من صفوة خلقه سيّدنا موسى عليه السّلام، وقارون علا في الأرض بعلمه وماله فخُسف به وبداره، وفي ذلك تصديق لقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(83) مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(84)﴾ فبين هذه النّماذج التّي ذُكرت في السّورة اتّساق عجيب من حيث المعاني، ودور مهمّ في تجلية القضايا التّي تدور عليها آيات السّورة بأسلوب قصصي ماتع، تُدركه الأفهام، وتشدّ انتباه القارئ ليُعمل عقله فيها ويعتبر من أحداثها ويتعرّف على سنن الله تعالى في خلقه، والله أعلم وأحكم.

المبحث السادس: عاقبة مسلك البغي والطّغيان المالي

هذا المبحث يتناول دور السّياق في بيان معاني قدرة الله تعالى على التّصرّف في شؤون خلقه وإنفاذ إرادته في تحقيق العدل والصلاح وإبطال الجور والطّغيان والفساد، من خلال ابتلاء قارون بالمال الكثير الذي اتّخذه سببا للطّغيان والفساد، والله تعالى يُعاقب الطّاغين المفسدين الذين لا يشكرون نعمته عليهم، فخسف به وبداره الأرض. فمن خلال سياق سورة القصص وسياق المقطع وآيات القصّة، يُحاول الباحث تسليط الضّوء على سلوك قارون ومدى تأثيره على المجتمع.

المطلب الأول: سياق المقطع

أوّلا: عرض أحداث القصّة

تحدّثُنا الآيات من سورة القصص وبالتّحديد من الآية 76 إلى 82 من نبأ قارون أنّ الله آتاه مالا وثروة كبيرة، استعملها في الإفساد والبغي والاعتداء على الآخرين تجبّرا واستعلاء، ممّا حذا بالصّلحاء من قومه بنصحه وتذكيره بتسخير ماله في الخير والإحسان إلى النّاس ابتغاء رضوان الله دون نسيان نصيبه من الدّنيا، ولكنّه تكبّر وطغى مُدّعيا أنّ ما أوتيه كان بسبب علمه ومهارته وخبرته، فآثر الحياة الدّنيا على الآخرة واتّبع هواه فخسف الله به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين.

ثانيا: مناسبتها لسباقها ولحاقها

تحدّثت الآيات السابقة لقصّة قارون عن الآخرة وتحدّي الله تعالى للمشركين في إثبات إلهية أصنامهم، فتبيّن عجزهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون وعلموا أنّ المتصرّف في جميع الأقدار إنّما هو الواحد القهار فدلّ على أنّ ذلك له أيضا في هذه الدّار بوقوع العلم به بإهلاك أولي البطر، والمرح والأثر، من غير أن يُغنوا عمّن أضلّوا، أو يُغني عنهم من أضلهم من ناطق، وما أضلّهم من صامت، تطبيقا لعموم﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص:58]

على بعض الجزئيات، تخويفا لمن كذب النبي ﷺ، ولما كان الاغترار بالمال والجاه سبب استعلاء قارون على قومه، ضُرب مثلا لحال تعاظم المشركين بأموالهم فقد كان من صُنوف أذى أئمة الكُفر النبيء ﷺ والمسلمين ومن دواعي تصلّبهم في إعراضهم عن دعوته اعتزازهم بأموالهم وقالوا ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: 31] أي على رجل من أهل الثروة فهي عندهم سبب العظمة ونبزهم المسلمين بأنّهم ضعفاء القوم، وللقصّة أيضا تعلّق بجملة﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ﴾ إلى قوله ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [القصص:60-61][1]

فالقصّة إذا متعلّقة بسباقها من خلال تحذير كفّار قريش من مغبّة الوقوع في عاقبة قارون إن هم استمرّوا في إعراضهم وعنادهم وابتزاز المسلمين بما لهم من أموال.

أمّا من حيث اللّحاق فقد كان تعقيبا على أحداث القصّة فقال تعالى:﴿ تِلْكَ الدَّارُ الاَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الاَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وذلك بأنّ الدّار الآخرة ونعيمها تكون للمصلحين المتّقين ويُحرم منها العالون في الأرض والمفسدون أمثال قارون وفرعون، فتلك عاقبة السّوء للذين اغتروا بأموالهم واتّخذوها سببا للفساد حتّى نسوا شكر النّعمة واستخفّوا بآيات الله.

ثالثا: تحليل أحداث القصّة

تبتدأ أحداث قصّة قارون بقوله تعالى:﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ والتّمهيد للقصّة بهذا الأسلوب وما يكتنفه من فنّيات القصّة الصّغيرة، تدعوا القارئ إلى التّساؤل عن السرّ وراء هذه البداية التّعريفيّة لقارون، فمن هو؟ وما صلته بموسى عليه السّلام؟

[1] – انظر: البقاعي، نظم الدرر، ج14، ص 347-348، ابن عاشور، التحرير، ج20، ص174.

تذكر الآية أنّ قارون كان من قوم موسى أي من بني إسرائيل وليس من آل فرعون ولقد قرنه الله تعالى مع فرعون وهامان واعتبر موسى مرسلا إلى الثّلاثة كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِئَايَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾

[غافر: 23-24]، ففرعون مصري، وهامان مصري، وقارون إسرائيلي، ويبدوا أنّ الجامع بينهم هو الطّغيان والبغي والفساد والكُفر والتّكذيب، فطُغيان فرعون بسبب مُلكه وسلطانه، وطُغيان هامان بسبب وزارته ووظيفته عند فرعون وتنفيذ أوامره، وطُغيان قارون عن طريق الثّراء والغنى والمال والكنوز فهم طواغيت ثلاثة وإن اختلفت أسباب طغيانهم.(1)

وتذكر الآيات أيضا أحداثا متعلّقة بسلوك قارون، فقد أنعم الله عليه من الكنوز ما إنّ مفاتحه إذا حملته جماعة كثيرة مالت بهم لشدّة ثقلها﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ﴾ ولنا أن نتصوّر ضخامة تلك الكنوز التّي تميل بالرّجال الأقوياء ويملكها رجل واحد هو قارون، ولكن الشّيء الذيّ يُؤخذ على قارون أنّه استعملها في وجوه الشّر والفساد والبغي وقد وصف القرآن هذا العمل بالبغي "ولا يذكر فيم كان البغي، ليدعه مجهلاً يشمل شتّى الصّور، فربّما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان وربما بغى عليهم بحرمانهم حقّهم في ذلك المال، حقّ الفقراء في أموال الأغنياء، كي لا يكون دولة بين الأغنياء وحدهم ومن حولهم محاويج إلى شيء منه، فتفسد القلوب، وتفسد الحياة، وربما بغى عليهم بهذه وبغيرها من الأسباب.(2)

ثمّ ينتقل السّياق إلى بيان الحوار بينه وبين الصّلحاء من قومه، قالوا له ﴿ لاَ تَفْرَحِ اِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الاَخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الاَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ فهذه كلمات صيغت في قالب نصح لقارون ممّا يعطي لنا دلائل على شخصيّته من أنّه كان فرحا بطرا بما

(1) - صلاح الخالدي، مع قصص السابقين، ج3، ص 29.

(2) - سيد قطب، الظلال، ج20، ص 373.

لديه من حظوظ الدّنيا المختلفة وهو من الفرح المنهيّ عنه إذ يوذي بصاحبه إلى الانغماس في ملذّات الدّنيا ومتاعها والغفلة عن الأعمال الصّالحة، والله لا يحبّ الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم[1]، والصّفة الثانية أنّه كان من الّذين يكنزون الأموال ولا يُنفقونها في وجوه الخير والإحسان وإعانة المحتاجين والفقراء والمساكين بما يزكّي ماله ويطرح البركة فيه ابتغاء الآخرة، وهذا النّموذج أخبر عنه الله تعالى وعن مصير أموالهم في الآخرة فقال:﴿ وَالذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ اَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[التوبة: 34-35]، والصّفة الثالثة أنّه كان يستعمل ماله في الإفساد في الأرض والإساءة إلى الخلق وبما يدخل في وجوه الفساد المحتملة الأخرى التّي ذُكرت سابقا، فهذه بعض صفات شخصيّة قارون الذيّ طغى على قومه بماله وهي من الأمور التّي يكتشفها القارئ من خلال نصائح الصّلحاء من قومه ومن خلال إجابة قارون لهم ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيَ﴾ أي على استحقاق واستيجاب لما فيّ من العلم الذي فُضّلت به الناس[2] وسياق الآيات اللاّحقة تعطي لنا مشهدا من مشاهد التّعالي والتّفاخر والتّباهي في قوله تعالى:﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ إشارة إلى أنّ قارون أعرض عن موعظة قومه قولا وعملا؛ وتعدية فعل (خرج) بحرف ﴿ على ﴾ لتضمينه معنى النّزول إشارة إلى أنّه خروج متعال مترفّع، والزّينة: ما به جمال الشّيء والتّباهي به من الثّياب والطّيب والمراكب والسّلاح والخدم[3]وهذه صفة أخرى من الغرور والتكبّر والاستعلاء التّي طغت على شخصيّة قارون و كانت هذه المرّة سببا في إحداث فتنة في قومه ﴿ قَالَ الذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنَ امَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَآ إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ فقد انقسموا فريقين:

[1] - ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج6، ص 228.

[2] - الزمخشري، الكشاف، ج3، ص 431.

[3] - ابن عاشور، التحرير، ج20، ص 183.

- طائفة منهم وقفت أمام فتنة الحياة الدّنيا وقفة المأخوذ المبهور المتهاوي المتهافت.

- طائفة أخرى وقفت تستعلي على هذا كلّه بقيمة الإيمان، والرّجاء فيما عند الله، والاعتزاز بثواب الله.(1)

وفي ذكر الذين أوتوا العلم في مُقابل الذين يريدون الحياة الدّنيا ما يجعلنا نتساءل لماذا ذكر العلم دون الذين يريدون ثواب الآخرة؟ وفي رأي الباحث والله أعلم أنّ الله يبيّن لنا أنّ العلم الذي أوتيه قارون لم ينتفع به واستعمله فيما لا يُرضي الله عزّ وجلّ كالذي آتاه الله من آياته وفتح عليه فانسلخ منها فأتبعه الشّيطان فكان من الغاوين بإخلاده إلى الأرض واتّباع الهوى، بينما العلم النّافع هو الذّي يرقى بالإنسان إلى مراتب الإيمان ومعرفة الخالق وكيفيّة تصريفه للأمور، ووزن الحقائق بميزان السّماء لا بميزان أهل الأرض وهو ما كشف عنه موقف الذين أوتوا العلم من خروج قارون في زينته وافتنان الذين يجهلون أمر الآخرة بذلك "حيث جعلهم يتعجبون من تعلق نفوس أولئك بزينة الحياة الدنيا واغتباطهم بحال قارون دون اهتمام بثواب الله الذي يستطيعون تحصيله بالإقبال على العمل بالدين والعمل النافع وهم يعلمون أن قارون غير متخلق بالفضائل الدينية.(2)

ثمّ إنّ هذا المشهد من خروج قارون في زينته وموقف الجاهلين غير الواعين من قومه تقدّم لنا دلالة فنيّة أنّ قارون أو أيّة شخصيّة كافرة بنعم الله أو أيّة شخصيّة متجبّرة طاغية لا يمكنها أن تمارس الزّهو والخيلاء والتجبّر والتحكّم في رقاب النّاس لو لم تظفر بمن يُساندها من الفئات التّي تخنع وتستكين وتنبهر بمظاهر زائفة من متاع الحياة، لذلك حرص قارون على المظهر الذي خرج به على قومه: لأنّ قومه -كثرة كانوا أم قلّة - قد طبعتهم سمة الذلّ والخنوع والاستكانة ولو لم يجد قارون إلا فئات واعية لانزوى في داره ولما وجد أيّ حافز يدفعه إلى الخروج بزينته وبموكبه الذي زها به.

---

(1) - سيد قطب، الظّلال، ج20، ص 387.

(2) - ابن عاشور، التحرير، ج20، ص 184.

وفعلا لحظنا هؤلاء الاذلاّء الخانعين يهتفون بمجرّد رؤيتهم لموكب قارون قائلين﴿ يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وهذه هي الحقيقة التّي نكتشفها من أنّ الطّغاة —في أيّ زمان ومكان– لم يمارسوا جرائمهم ما لم تُسندهم فئات ذليلة خانعة تُطيل من أمد تحكّمهم في الرّقاب.[1]

ثمّ يكشف السّياق عن النّهاية البائسة لقارون ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المنتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسِفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ والفاء هنا للتّرتيب والتّعقيب على خروجه في زينته بطرا وخيلاء وما جرى فيها من تمنّي قوم أن يكونوا مثله، وما أنكر عليهم علماؤهم من غفلتهم عن التّنافس في ثواب الآخرة بتعجيل عقابه في الدّنيا بمرأى من الذين تمنّوا أن يكونوا مثله؛ والخسف: انقلاب بعض ظاهر الأرض إلى باطنها، وعكسه.[2] فدلّ بذلك المعنى أنّ إعراض قارون عن نصح قومه له وتكبّره في خروجه على قومه في زينته كان السّبب المباشر لهذا العقاب الأليم فقد جنا قارون على نفسه واستجلب غضب الله عليه، وقد نبّه الله تعالى إلى ذلك في قوله ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمَ انَّ اللَّهَ قَدَ اَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

بعد بيان عاقبة قارون بيّن الله تعالى حال الذين تمنّو مكانه بالأمس بعد أن شاهدوا مصير من قالوا عنه أنّه ذو حظّ عظيم، بما يبعث على النّدم والتحسّر والاعتراف بقوّة الله وحكمته في تصريف الأمور وتقديرها وبسط الأرزاق وتقليلها، وبطلان زعم قارون من أنّ ماله اكتسبه من علمه ونباهته وقوّته التّي بهرهم بها وصدّقوه على ذلك.

---

[1] – انظر: محمود البستاني، دراسات فنية في قصص القرآن، ص 478.

[2] – ابن عاشور، التحرير، ج20، ص 185.

المطلب الثالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة

من خلال أحداث قصّة قارون يتبيّن لنا بأنّها تدور حول معاني قدرة الله تعالى وإنفاذ إرادته في تحقيق العدل والصّلاح وإبطال الجور والطّغيان والفساد، فقد كان قارون رمز الفساد والطّغيان في قومه رُغم نُصح النّاصحين ووعظ المرشدين له والنّصيب الذي كان يحوزه من العلم الذي يزن به الأمور ويعرضها على ميزان الحقّ، فقد أنعم الله عليه ولكنّه قابل النّعمة بالكُفر، وأمهله بإرسال من ينصحه ويُرشده، ولكن أخذته العزّة بالإثم فأصبح من الهالكين، والله يُمهل ولا يُهمل، فقد أدّاه كُفره إلى سوء العاقبة؛ والله تعالى ساقه عبرة لكفّار قريش ومَن على شاكلتهم ليحذروا أن يُصيبهم مثل ما أصابهم، وخُتمت بها سورة القصص التّي جرى الحديث فيها عن بيان سلطان الله وقوّته وحكمه وإنفاذ القدرة في الدّنيا والآخرة، وإرادته بالتّمكين للمصلحين المتّقين والانتقام من الطّغاة الظّالمين المفسدين، وكانت قصّة موسى وفرعون وقصّة قارون أدلّ ما فيها على تلك المعاني، وقد بيّنت أيضا بعض مظاهر الطّغيان والفساد، والجوّ المظلم الذي طغى على بني إسرائيل المستضعفين المستعبدين من فرعون وحاشيته حتّى منّ الله عليهم وخلّصهم من العذاب المهين بإرسال موسى عليه السّلام فأنجاهم الله به، وقد كان حال المؤمنين قريبا من ذلك في مكّة وكفّار قريش يحاولون ثنيهم عن التّوحيد وعبادة الله بشتّى أنواع الظّلم والاذلال، ففيه وعد لهم بالعزّة والتّمكين وأنّ الله سيفعل بهؤلاء الكفّار مثل ما فعل بأولئك الطّغاة، ومن مظاهر التّناسق في السّورة أنّها ابتدأت بقصّة فرعون وموسى ببيان درجة طغيان فرعون وإفساده في الأرض واختتمت بقصّة قارون وبيان بغيه وطغيانه على قومه وبينهما روابط يقول عنها أحمد نوفل:" قصّة قارون مرتبطة بقصّة موسى وفرعون التي جاءت في أوّل السّورة من حيث الاستكبار والاستعلاء في كلا القصّتين، هناك الاستعلاء السّياسي وهنا الاستعلاء الاقتصادي، وأما من حيث الرّقعة الجغرافية والقوم فالقصّة في ذات الرّقعة وذات المجموعة البشريّة. ورابط ثالث: الغرق والهلاك في قصّة فرعون، والخسف

وابتلاع الأرض في قصّة قارون، فالقصّتان من معدن واحد، ولذلك جمعهما الحكيم الخبير في سياق ونسق واحد في سورة واحدة هي سورة القصص[1]

وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم الذّي لا تجد فيه قصّة أو مشهدا من قصّة إلاّ وله دور يؤدّيه في السّياق الذّي ورد فيه، فقصّة موسى عليه السّلام أكثر القصص ورودا في القرآن الكريم لكنّها تُساق لغرض ومقصد يتناسق تناسقا دقيقا مع سباقها ولحاقها وسياق السّورة العام، وقصّة قارون لم ترد بهذا التّفصيل في أيّ سورة وجاء ذكره أربع مرّات في القرآن الكريم، إلاّ أنّ التّفصيل في خبره جاء في القصص متناسقا مع السّياق العام للسّورة كنموذج للطّغيان والفساد والكُفر بنعم الله وفتنة النّاس بزخارف الحياة الدّنيا وكيف تدخّلت قدرة الله لوضع حدّ لهذا الفساد والاستكبار ليكون عبرة لمن يعتبر.

(1) – أحمد نوفل، تفسير سورة القصص، ص 46.

المبحث السابع: الابتلاء بالخير وعاقبة منع حقوق الغير

في هذا المبحث نتطرّق لبيان دور السّياق في بيان أمور متعلّقة بنفسيّات بعض البشر وأخلاقهم وتجلية معنى الابتلاء الإلهي للإنسان بالنّعم الكثيرة ليتبيّن مقدار شكره لتلك النّعم، وأنّه تعالى بالمرصاد لكلّ ظالم معتد منّاع للخير، وفق تدبيره الخفيّ، من خلال قصّة أصحاب الجنّة وما لها من علاقة مع سياق سورة القلم والمقطع الذّي جاءت فيه.

المطلب الأول: السياق العام لسورة القلم

عُرفت هذه السّورة بعدّة تسميّات كالآتي:

. " ن والقلم" على حكاية اللّفظين الواقعين في أوّلها عند مُعظم التّفاسير وفي صحيح البخاري.

. " ن " بالاقتصار على الحرف المفرد الذي افتتحت به مثل ما سمّيت سورة " ص " وسورة " ق" عند التّرمذي في جامعه وبعض المفسّرين.

. " القلم " في بعض المصاحف[1]

فهذه إذا التّسميات التّي عُرفت بها السّورة الكريمة، وتعتبر من السّور المكّية ولا خلاف فيها بين أحد من أهل التّأويل[2]

وعن سياق السورة يبيّن سيد قطب بأنّ السّورة تحمل معاني تثبيت الله تعالى لنبيّه ﷺ وتأنيسه وشرح صدره والثّناء عليه وعلى المؤمنين، وإبراز العنصر الأخلاقي الذي يتمثل في هذه الدعوة وفي نبيّها الكريم، وينفي ما يقوله المتقوّلون عنه، ويُطَمئن قلوب المستضعفين بأنّه هو يتوّلى عنهم أعدائهم، ويعفيهم من التفكير في أمر هؤلاء الأعداء الأقوياء الأغنياء.[3]

---

(1) – انظر: ابن عاشور، التحرير، ج29، ص 57.

(2) – ابن عطية، المحرر، ج 5، ص 345.

(3) – انظر: سيد قطب، الظلال، ج29، ص3652-3653.

ويذكر ابن عاشور أنّ من أغراض السّورة تسلية الرّسول وتأنيسه بإثبات كمالاته في الدنيا والآخرة وإبطال مطاعن المشركين في شخصه عليه السلام وأمره بالصبر في تبليغ الدّعوة وتلقّي أذى قومه.[1]

ونجد في التفسير الموضوعي لسورة القرآن الكريم أنّ المحور الأساس للسورة هو إثبات نبوّة محمّد ﷺ وتثبيت قلبه.[2]

فالسورة إذا تحمل معاني الدّفاع عن شخص الرّسول ﷺ وتثبيته، وإبطال مطاعن المشركين وكشف نفسياتهم وأخلاقهم الدّنيئة، وهو ما يمكن أن يتّضح أكثر من خلال الجوّ العام للسّورة الذي يُبرز مكّيّتها بعرض مشاهد لما كان يلقاه النبيّ عليه السّلام والمؤمنون من الأذى والتّكذيب، وهم قلّة مُستضعفون وكيف تولّى الله تعالى الدّفاع عن النبيّ ﷺ بإبراز علوّ أخلاقه وشرف مكانته، وكشف سلوك المشركين بتعديد أسوأ الأخلاق التي يمكن أن تكون في الشّخصية المنحرفة غير السويّة، وأمر الله تعالى له وللمؤمنين بالصّبر لقضائه حتّى يُنزل حكمه في المشركين، وينصُرهم عليهم نصرا عزيزا.

وتبرز في السّورة أيضا قضيّة الأخلاق الطيّبة أو السلوك المنبثق من الفطرة السويّة فالسّورة الكريمة صُدّرت بقوله تعالى لنبيّه عليه السّلام ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وأنّه سبحانه العالم العارف بخفايا النّفوس ومن هو المهتدي ومن هو في الضّلال المبين ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ وذكر نموذجا للسّلوك المنحرف الذي يحمل أسوأ الأخلاق في قوله تعالى: ﴿ فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ اَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ اَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الاَوَّلِينَ﴾ ثمّ ذكر في مُقابلها نموذجا من الأخلاق التي تتماشى مع الفطرة السويّة في قصّة أصحاب الجنّة لما قال أوسطهم﴿ أَلَمَ اَقُل لَّكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ﴾

---

(1) – ابن عاشور، التحرير، ج29، ص 58-59.

(2) – مصطفى مسلم وآخرون، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ج8، ص 290.

بحيث رجعوا من حينها إلى صوابهم نادمين على ما صدر منهم متضرّعين إلى الله بأن يغفر لهم، وهو ما يُترجم انسجام خلقهم مع فطرتهم السّليمة بالتوبة والإنابة إلى خالقها ﴿ قَالُوا يَاوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ ثمّ يعقّب السّياق بالآيات التّي تحدّد مسؤولية الإنسان على سلوكه، وتَعرضه في سؤال إنكاري ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ فإنّ للمسلمين النّعيم المقيم في الآخرة جزاء إيمانهم وتسليمهم لفطرتهم السويّة وأداء حقّ نعم الله بشكرها وللمُجرمين المعتدين على دين الحق بالشّرك والكُفر والعناد والتّكذيب ومساوئ الأخلاق.

فالقسم بالخلق العظيم وما تلاه من الآيات المبيّنة لسلوك المنحرفين عن الفطرة السويّة التّي لم يُوصف بمثلها أحد في سورة أخرى، وسلوك الخيّرين المنسجمة مع الفطرة السّليمة وما يترتّب عليهما من الجزاء الدّنيويّ والأخرويّ، يجعلنا نقول بأنّ السّياق العام للسّورة يحمل هذه المعاني من كشف السّلوك المنحرف للمُشركين المعتدين على رسالة الإسلام، وتوجيه الرّسول عليه السّلام بالصّبر عليهم، ومواصلة مهمّة التّبليغ.

المطلب الثاني: سياق المقطع

أوّلا: عرض أحداث القصّة

ورد ذكر قصّة أصحاب الجنّة في الآيات من 17 إلى 32 من سورة القلم حيث ضرب الله مثلا بأصحاب بستان ورثوه من أبيهم وكان رجلا صالحا قد أنعم الله عليه بهذه الجنّة وافرة الغلال، وكان حريصا على أداء حقّ الله فيها بإعطاء المساكين حصّة من خيراتها، ولكنّ ورثته عقدوا النيّة والعزم على حرمان المساكين من حصّتهم بقطع ثمر بستانهم بالغداة قبل مجيئهم، فأرسل الله تعالى نارا على بستانهم ليلا فأحرقت أشجارها وأتلفت ثمارها، فلمّا أصبحوا وذهبوا إلى بستانهم وظنّوا أنّهم ضلّوا الطّريق عندما شاهدوها على تلك الحالة المؤلمة، ولكنّهم وقفوا

على حقيقة الأمر وعرفوا بأنّ الله تعالى عاقبهم على نيّتهم السيّئة فتحسّروا على ما بدر منهم مُسبّحين ومُستغفرين رجاء أن يُبدلهم الله خيرا منها.

ثانيا: علاقتها بسباقها ولحاقها

يظهر ارتباط أحداث القصّة بسباقها من خلال قوله تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ فالضّمير في بلوناهم يعود إلى المكذّبين من أهل مكّة الذين عدّد بعض أخلاقهم السيّئة وختمها بذكر نعمة المال والبنين، فالكلام مُستأنف استئنافا ابتدائيا دعت إليه مناسبة ذكر تلك الخاتمة، حيث مثّل حالهم بحال أصحاب الجنّة، واختبرهم في النّعم التّي أنعم بها عليهم لأنّه تعالى أمدّ أهل مكة بنعمة الأمن، ونعمة الرزق، وجعل الرزق يأتيهم من كل جهة، ويسر لهم سبل التجارة في الآفاق بنعمة الإيلاف برحلة الشتاء ورحلة الصيف، فلمّا أكمل لهم النّعمة بإرسال رسول منهم ليكمل لهم صلاح أحوالهم ويهديهم إلى ما فيه النعيم الدّائم فدعاهم وذكرهم بنعم الله أعرضوا وطغوا ولم يتوجهوا إلى النظر في النعم السالفة ولا في النعمة الكاملة التي أكملت لهم النعم.

ووجه المشابهة بين حالهم وحال أصحاب الجنة المذكورة هنا هو الإعراض عن طلب مرضاة الله وعن شكر نعمته، وهذا التمثيل تعريض بالتهديد بأن يلحقهم ما لحق أصحاب الجنة من البؤس بعد النعيم والقحط بعد الخصب، وإن اختلف السبب في نوعه فقد اتّحد جنسه.[1]

ومن حيث اللّحاق فقد كانت الآيات تعقيبا على أحداث القصّة من قوله تعالى:﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الاَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾تحذيرا للمشركين بأن يؤول حالهم إلى حال أصحاب الجنة، مع ما أُدمج فيه من خُبث النيّة والزويّ عن المساكين إذا أفضى بهم إلى ما ذُكر؛ فمعاندة الحقّ تعالى بعناد من هو على خُلقه عليه السّلام وأشرف الموجودات وقطع رحمه أولى بأن يُفضي بأهل مكّة إلى البوار وقوله تعالى:﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾أي أعظم وأشد

---

[1] – انظر: ابن عاشور، التحرير، ج29، ص 79.

تحذير عن العناد بوجه أبلغ وقوله سبحانه ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ نعيٌ عليهم بالغفلة أي لو كانوا من أهل العلم لعلموا أنّه أكبر ولأخذوا منه حِذرهم.[1]

فالقصة بسباقها ولحاقها تحذير للمُشركين من الغرور والتكبّر بنعمة المال والبنين واتّخذاهما سبيلا لمعاندة الحقّ والاستيلاء على حقوق المستضعفين بدل الشّكر واتّباع الحقّ، ففي الإصرار على تلك الصّفات الدّنيئة عواقب وخيمة في الدّنيا والآخرة.

ثالثا: تحليل أحداث القصّة

قصّة أصحاب الجنّة ابتدأت بذكر حقيقة أنّه تعالى ابتلى أهل مكّة ممّن سمعوا برسالة الرّسول ﷺ بما ابتلى به أصحاب الجنّة﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ وعرضها في أسلوب يُحفّز القارئ لإدراك تلك الحقيقة ويجعله يطرح أسئلة عنها، فما هو هذا الاختبار إذا؟ إنّه اختبار النّفوس وما تحمله من انفعالات تنعكس على سلوك الانسان في تعامله مع الآخر ومُحيطه، وهو ما يمكن أن نتعرّف عليه أكثر في سياق أحداث القصّة فقد اتّفقت كلمة إخوة بيّتوا النيّة على أن يذهبوا إلى جنّتهم في وقت الصّبح لقطع ثمارها ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ ولم يقولوا إن شاء الله أو أنّهم لا يستثنون حصّة المساكين من تلك الغلّة[2] ونحتفظ هنا بتفسير الاستثناء بحصّة المساكين لأنّ سياق القصّة لم يُفصح عن ذلك ويبقى القارئ مشدودا إلى معرفة سرّ هذا الاتّفاق، فينتقل السّياق إلى بيان مشهد لقدرة الله تعالى﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ أي عذاب من الله تعالى أصاب جنّتهم ليلا فأصبحت مسودة قد أصابها ما يشبه الاحتراق[3] عقابا لهم على تبييتهم النيّة لفعل أمور سيّئة، وهذا دليل على أنّ الله تعالى رقيب ويحاسب كل إنسان على ما يصدر

---

[1] – انظر: الألوسي، روح المعاني، ج15، ص 37.

[2] – كعباش، نفحات الرحمن، ج14، ص 117.

[3] – ابن عاشور، التحرير، ج29، ص 82.

منه من سلوك فالله بالمرصاد لكلّ من تسوّل له نفسه القيام بسلوك ظالم،﴿ فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ أَنُ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَن لاَّ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾ هذه الآيات تكشف للقارئ السبب الكامن وراء اتّخاذ القرار بالذّهاب إلى المزرعة صباحا، والسبب الذي أصاب الجنّة بتلك الآفة، ....إنّه هذا القرار الجائر، الذي يكشف عن حفنة من القوم دفعهم حرصهم وجشعهم وحُبّهم لذواتهم إلى أن يستأثروا بالخيرات لأنفسهم فحسب، ويمنعوها عن الفقراء، عن المساكين... إنّه لجشع وحرص وجدب في الأعماق ما بعده جدب[1] بدليل الألفاظ المنتقاة في هذا المقطع من الغدوّ أي في أوّل الصّباح، وصارمين أي مُستقرين على رأيهم غير متردّدين فيه، وتحفيز بعضهم البعض على تنفيد قرارهم، فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين أي يسرّون القول ويذكّرون أنفسهم بمنع المساكين من دخول جنّتهم، على حرد قادرين، أي أنّهم متيقّنون بأن لا أحد سيقف عائقا أمامهم، وأنّهم قادرون على تحقيق ما أرادوا.[2]

بهذه المعاني التي تُبرز جانبا من الاعتداد بالنّفس والغرور وامتلاك زمام القوّة نُدرك مدى الغفلة التّي وقعوا فيها والبُعد عن منهج الله القويم، ولم يستفيقوا إلاّ بعد أن شاهدوا عاقبة أمرهم عيانا ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَآلُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ قَالُوا يَاوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ في هذا المقطع نجد أنّ سياق الآيات يُبرز لنا نهاية أحداث القصّة ويقف على حقيقتين الأولى متمثّلة في أنّ أوسطهم قد ذكّرهم من قبل على أن لا يمنعوا المساكين من حصّتهم، الثانية ردود أفعالهم، فقد تابوا في الحال من فعلتهم واشتغلوا بالتسبيح ثمّ اعترفوا بذنوبهم، ووقع بينهم تلاوم وعتاب بحيث استعظموا الجُرم الذي اقترفوه، وهذا يعني أنّ القوم يحملون في أعماقهم نفوسا نقيّة تعترف بالحقّ

---

(1) – انظر: محمود البستاني، دراسات فنية في قصص القرآن، ص 681.

(2) – انظر: ابن عاشور، التحرير، ج29، ص 83-84.

وتحتفظ بفطرتها سليمة أوّابة إلى خالقها معترفة بتجاوزها أمر ربّها في صدق وإخلاص، وأكّدوا ذلك برجاء أن يُبدلهم الله خيرا من جنّتهم التّي أُبيدت، فعطاء الله لا حدود له؛ بهذه الحقائق والمعاني التي كشف عنها سياق الآيات، نكون قد وقفنا على الأحداث الرّئيسيّة لقصّة أصحاب الجنّة وعلى ما يُمكن الاستفادة منها ونختم بملحظ مهمّ لابن عاشور عن الإطناب في قولهم بعد حلول العذاب بهم حيث قال: بأنّه تلقين للذين ضرب لهم هذا المثل بأنّ في مَكْنَتِهِم الإنابة إلى الله بنبذ الكفران لنعمته إذ أشركوا به من لا إنعام لهم عليه.[1]

وهذا من العبر المستفادة من سياق آيات القصّة التي ابتدأت بتحذير المشركين من أهل مكّة بأن يُصيبهم مثل ما أصاب أصحاب الجنّة ولحاقها الذّي يحذّرهم أيضا بأن يصيبهم من عذاب الدّنيا مثل الذّي أصاب أصحاب الجنّة ولعذاب الآخرة أكبر. والله أعلم.

المطلب الثالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة

من خلال ما عرفناه من معان القصّة من قبيل ابتلاء الله تعالى لأصحاب الجنّة بالخير، وما بدر منهم من العزم على منع الخيرات والجشع والحرص على الاستئثار بها دون إعطائها لمستحقيها من الفقراء والمساكين والاعتداء على حقّ الله فيما أنعم به عليهم، وكيف كانت ردّة فعلهم بعد ذلك الاختبار العسير والعقاب الأليم الذّي عرّفهم بسوء فعلتهم وأوقفهم على حقيقة أنّ الله بصير بعباده، وبيده الخير يؤتيه من يشاء ويصرفه عمّن يشاء، كيفما شاء ومتى شاء وكلّ شيء عنده بمقدار، ممّا جعلهم يتوبون منيبين متضرّعين إلى ربّهم أن يُبدلهم خيرا منها، من خلال هذه المعاني يمكن القول بأنّ القصّة سيقت لكشف حقيقة أنّ الانسان معرّض للابتلاء بالخير ليتبيّن مقدار شكره لتلك النّعم، وأنّ الله بالمرصاد لكلّ ظالم معتد منّاع للخير، وفق تدبير الله الخفيّ.

[1] – ابن عاشور، التحرير، ج29، ص 88.

وقد سيقت آيات القصّة لتسليط الضّوء على معاني سياق السّورة العام من كشف السّلوك المنحرف للمُشركين المعتدين على رسالة الإسلام، والمتمثّل في مجموعة الصّفات الدّنيئة التّي يتّصفون بها من الحلف، والمهانة، والهمز، والنميمة، ومنع الخير، والاعتداء، وارتكاب الإثم، ومقابلة نعمة الله بكفرانها، ومحاربة آيات الله ووصفها بالأساطير، وإن كانت القصّة قد تحدّثت بشكل خاصّ على مقابلة نعمة الله من المال والبنين بالكفر بدل أداء شكرها وكذا منع الخير للمستضعفين من الفقراء والمساكين والاعتداء على حقوقهم، فإنّ تلك الصّفات بيّنها الله تعالى ليحذر منها المشركون ومن عاقبتها فقد أخذهم الغرور بالمال والبنين وسعة الرّزق إلى الاستخفاف بدعوة الرّسول ﷺ وأهملوا النّظر في كُنهها ودلائلها، لذلك سيقت هذه القصّة "ليربط الله تعالى بين سنّته في الغابرين وسنّته في الحاضرين؛ ويلمس قلوبهم بأقرب الأساليب إلى واقع حياتهم، وفي الوقت ذاته يُشعر المؤمنين بأنّ ما يرونه على المشركين من كبراء قريش من آثار النّعمة والثّروة إنّما هو ابتلاء من الله له عواقبه وله نتائجه، وسنّته أن يبتلي بالنّعمة كما يبتلي بالبأساء سواء."[1]وفي ذلك تسلية للرّسول ﷺ وتثبيتا للمؤمنين أمام قوى الشرّ مهما بلغت من العتوّ والطّغيان والظّلم، لأنّ الخير سينتصر وترتفع راية الحقّ في النّهاية، وليعلموا أنّ معاندة المشركين وعداوتهم للحقّ ناشئة من نفوسهم المريضة، وتؤكّد القصّة من جهة أخرى صدق الرّسول ﷺ فقد أخبر عنها وهي طرف من غيب الماضي وليست من أساطير الأوّلين كما زعموا.

وقد أبقى الله تعالى باب التّوبة مفتوحا لمن أخطأ وأدرك عاقبة أمره على شاكلة أصحاب الجنّة، ولكفّار قريش أن يتّعظوا ويعتبروا من واقع حالهم وما مرّ بهم من الابتلاءات والاختبارات الكثيرة، فالله تعالى قد أرسل لهم النبيّ محمد ﷺ منهم ليُصلح حالهم ويُبصّرهم بعيوبهم وانحراف فطرتهم وسيّئات أعمالهم ويهديهم إلى ما فيه صلاحهم، إلاّ أنّهم بطروا النّعمة وطغوا واستكبروا وأعرضوا ولم يتوجّهوا بالشّكر للمُنعم، ولا بالنّظر إلى عاقبة أمر أصحاب

---

[1] – سيد قطب، الظلال، ج 29، ص 3666.

الجنّة كما دلّ عليه حالهم من الاستمرار في عداوتهم للرّسالة الحقّ مما هو مدوّن في أحداث السّيرة وغيرها.

خلاصة الفصل:

من خلال قصص هذا المبحث وقفنا على آيات هداية الله للبشر، وبيان لبعض المبادئ والأسس الفكرية والاجتماعية والأخلاقية من خلال النّماذج والشّخصيّات التّي تعرّضنا إليها مثل بيان أمور متعلّقة بنفسيّات بعض البشر وأخلاقهم وتجلية معنى الابتلاء الإلهي للإنسان بالنّعم الكثيرة ليتبيّن مقدار شكره لتلك النّعم في قصّة أصحاب الجنّة، وخلق العفّة والحياء وعدم مزاحمة الرّجال وتبجيل الوالد واحترامه من سلوك ابنتي الشّيخ الصّالح، والمروءة وعزّة النّفس والوقوف عند محارم الله، وصنع المعروف والإسهام في تغيير واقع الظّلم الاجتماعي من سلوك سيّدنا موسى عليه السّلام، وآداب العالم والمتعلّم في قصّته كذلك مع العبد الصّالح، والاعتبار من حال من كان رمزا للطّغيان والفساد والكُفر بنعم الله، أمثال قارون وغيره، والحذر من اتّباع النّفس الأمّارة بالسّوء والانسياق وراء وساوس الشّيطان، والانتباه إلى خطر الحسد الذّي قد يُفضي إلى فساد اجتماعي وخيم كما تبيّنها أحداث قصّة ابني آدم؛ فهذه بعض المعاني مما عرفناه في هذا الفصل من أثر السّياق في تجليتها، وتعتبر آخر محطّة نقف عندها في الفصول التّطبيقيّة.

خاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته الصّالحات، نحمده تعالى أن وفّقنا لإتمام هذه الدّراسة المعنونة ب: السّياق وأثره في بيان معاني القصص في القرآن (قصص غير الأنبياء نموذجا) وقد عشت معها مدّة من الزّمن كان لها أثر كبير في مسيرتي العلميّة، فلله الحمد والمنّة.

ومن خلال هذه الدّراسة خرجت بمجموعة من النّتائج وهي كالآتي:

1- السّياق القرآني في مفهومه هو تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود دون انقطاع أو انفصال.

2- اتّفق المتقدّمون والمحدثون على أهميّة النّظر إلى السّياق القرآني في تفسير كلام الله وإهماله يوقع المفسّر في الخطأ والبعد عن الفهم الصّحيح.

3- السّياق القرآني أحد أعمدة التّرجيح الأساسيّة في منهجيّة التّفسير ويُعين على ضبط فهم المتلقّي، ولا يُستغنى عنه بحال.

4- للسّياق القرآني دور كبير في نقد الرّوايات التّي لا تستقيم مع روح القرآن، والاحتكام إليه من شأنه تقريب الفهم الصّحيح والسّليم لآي الذّكر الحكيم ويساهم في غربلة التّفاسير من الرّوايات الإسرائيلية أو الضعيفة والموضوعة.

5- سياق القصّة يختلف من سورة إلى أخرى باختلاف الغرض الذّي سيقت من أجله تلك القصّة، فقد تكون لتبسيط مفهوم من المفاهيم وبيان خطره مثل الحسد وخطره على الفرد والمجتمع في قصّة ابني آدم، أو تقريبها إلى الأذهان في قالب قصصي ومشاهد محسوسة سهلة الإدراك والاستحضار مثل: بيان قدرة الله على البعث والنّشور في قصّة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وغيرها من النّماذج التّي بُسطت في ثنايا البحث.

6- الدّارس لآيات القرآن الكريم وِفق النظريّة السّياقيّة يكتشف بأنّ معانيها تنبض بالحيويّة والتجدّد ما يُكسبها الصّلاحيّة لكلّ زمان ومكان، خاصّة النّماذج البشريّة من القصص التّي تُجلّي سنن الله في الاجتماع البشري.

7- سياق القصّة يمتزج بالسّياق العام للسورة امتزاجا تامّا ويقتصر على إيراد الأحداث التّي تخدم المعاني التّي سيقت في السّورة جميعها.

8- قد تتعدّد سياقات القصّة وتختلف وُجهات النّظر في تقديرها وفق الزّاوية التّي ينظر إليها المتلقّي لآياتها، والأبعاد التّي تحتملها (عقدية إيمانية، دعوية، اجتماعية تربوية ونفسية...)

9- تعدّدت المعاني العقدية الإيمانية التّي كان للسّياق أثر في إبرازها، وتنوعّت بين بيان معاني قدرة الله على البعث والنّشور، وتجلية معنى وحدانية الله، وبيان كمال قدرة الله تعالى على الخلق والتّكوين، وبيان حكمته تعالى في الابتلاء بالعطاء والمنع وعاقبة ذلك، وبيان عظيم رعاية الله لبيته المقدّس، و معان أخرى من خلال نماذج لسلوكات من عدم الثّبات على الحقّ بعد معرفته والتّحايل على أوامر الله، أو اتّباع متاع الحياة والانسلاخ من آيات الله وعاقبة ذلك عند الله تعالى، ونموذج لابتلاء الله للمؤمن في دينه وكيفيّة الثّبات على الإيمان، و نموذج لبيان قيمة التّضحية في سبيل الله والثّبات على الحقّ وتحمّل شدائده.

10- وفي الجانب الدعوي كان للسّياق دور في إبراز معان عدّة من بيان لدعوة الله تعالى إلى الجهاد في سبيله والإقبال عليه دون خوف من الموت والهلاك، ونماذج مختلفة ومتنوّعة في هذا الجانب مثل بيان متطلّبات الجهاد والصّبر عليه والتّي دعا طالوت بني إسرائيل للتمسّك بها، والسّعي لنشر الدّعوة من فعل ذي القرنين الذي ملك المشرق والمغرب، ونموذج شخصيّة لقمان ووصياه في الوعظ والإرشاد والتّوجيه، وما فيها من معاني الحكمة والعلم الحقيقي، وما حملته قصّة مؤمن آل فرعون من معان خاصّة بالخطاب الدّعوي، وتأييد الرّسل بالموعظة.

11- في الجانب الاجتماعي، تعدّدت المعاني التّي كان للسّياق أثر بارز في بيانها مثل بيان معاني ابتلاء الله للإنسان بالمنع والعطاء في النّعم وما يترتّب عليه من سلوكات لها أثر على الفرد والمجتمع كحال صاحب الجنّتين، وأصحاب الجنّة الذين ابتلاهم الله بالخير وما صدر منهم من سلوك الحرص والأنانيّة ومنع حقوق الغير، وكذا قارون الذي اتّخذ من ماله سبيلا للظّلم والطّغيان والفساد، ومنها أيضا التّحذير من خطورة الحسد في السّلوك البشري وعاقبته

من خلال قصّـــة ابني آدم، وفي جانب آخر متعلّق بالشّـــؤون التربوية التّعليمية بيان لبعض أحوال العالم والمتعلّم من قصّـة سيّدنا موسى والخضـر، وكذا بيان صـفات الشّـخصيّة المؤمنة الصّـابرة من قصّـة أمّ موسى وصبرها على ولدها موسى عليه السّلام، وما تحمله أيضـا قصّـة موسى مع ابنتي الرّجل الصّالح من معان متعلّقة بالآداب الاجتماعيّة.

12- القصـــص القرآني لا يتقيّد بالتّاريخ والمكان والزّمان بل يتجاوزهما في الغاية منها بأخذ العبر والدّروس.

13- كان لعنصر المرأة في دراستنا حضـور من خلال نماذج عرضـها القرآن الكريم تُبرز جانبا من شخصيّة المرأة من حيث تكوينها النّفسي والعاطفي وقدراتها العقليّة ومكانتها الاجتماعية، وفي كلّ ذلك لا تخرج عن إطار الإيمان الخالص لله تعالى والتوكّل عليه، على غرار ما شـهدناه في عبوديّة أمّ مريم وصدق إخلاصها، وأمّ موسى وإيمانها بالله وحسن توكّلها عليه تعالى، ومريم العابدة العفيفة الطّاهرة، وابنتي الشّيخ الصّـالح وحيائهما وبرّهما بوالديهما، وكلّها نماذج يُقتدى بها على مُستويات ومجالات مُختلفة.

14- لكلّ سـورة من سـور القرآن الكريم ما يسـمّى بالسّياق العام لها وهي القضـيّة الرّئيسـيّة التّي تتناولها السّـورة وتتّصـل بها جميع أجزاء السّورة، وللقصّـة دور مهمّ في تحديد السّياق العام للسّورة.

التّوصيات:

ـــ السّياق القرآني لم يلق لحدّ الآن اهتماما كافيا من حيث التّأصيل والتّقعيد عند الباحثين في علوم القرآن والتّفســـير، ولذا وجب على المهتمّين بهذا المجال أن يُوجّهوا جُهودهم لهذا العلم وإحيائه وتجديده تأصيلا وتقعيدا.

ـ دراسة القصّة القرآنيّة على ضوء نظريّة السّياق القرآني لا يزال مجالا خصبا لتوجّه إليه أنظار الباحثين واستخراج ما فيه من كنوز معرفيّة ذات أبعاد سننيّة وكونيّة وحضاريّة متنوعّة.

ختاما أسأل الله تعالى القبول، كما أسأله المغفرة لما زل به فكري أو قلمي،

وأحمده على جميع نعمه وأفضاله

وصلّى الله على سيّدنا محمّد وصحبه صلاة وسلاما دائمين إلى يوم لقاه.

سبحانك الله وبحمده لا إله إلاّ أنت أستغفرك وأتوب إليك.

فهرس الآيات القرآنية

الآية	السورة	رقم الآية	الصّفحة
﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ﴾	البقرة	67	46
﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ ... ﴾		73-67	152/47
﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ...﴾		66-65	47
﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ... ﴾		74	50
﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾		75	48
﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾		88	156
﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ ... ﴾		94	46
﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ ﴾		96	146
﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم ﴾		109	210
﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾		143	73
﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ ﴾		171	9
﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾		216	139
﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ ﴾		217	139
﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾		218	139
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾		220	139
﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ﴾		222	139
﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾		238	139
﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾		239	139
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ ﴾		243	138
﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾		244	139
﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾		245	142
﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ..﴾		251-246	147
﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ...﴾		251	151 /149
﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾		252	153

﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾		258	55
﴿أَوْ كَالذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا..﴾		259	52
﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ﴾		260	55
﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَامُرُكُم بِالْفَحْشَآءِ ﴾		268	144
﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىَ اللَّهِ ﴾		281	44
﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ﴾		285	42
﴿ أَلَمٓ اللَّهُ لآَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...﴾	**آل عمران**	2-1	60
﴿ لآَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾		6	60
﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لآَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ... ﴾		18	60
﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ...﴾		26	60
﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ ...﴾		33	67
﴿ اِذْ قَالَتِ اِمْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ...﴾		37-35	63/62
﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَّشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾		37	60
﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾		40	60
﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلآَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ...﴾		43-42	108 / 66
﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ...﴾		47-42	62
﴿ذَٰلِكَ مِنَ اَنبَآءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾		44	38/33/26
﴿ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾		47	60
﴿ وَمَا مِنِ اِلَهٍ اِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾		62	60
﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾		62	62/34 /60
﴿ قُلْ يَآ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ اِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ ...﴾		64	60
﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾		66	60
﴿ قُلِ اِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ ...﴾		74-73	60
﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُّوتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوءَةَ. ﴾		80-79	61
﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾		137	35

8	159		﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾
61	199		﴿ وَإِنَّ مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُّومِنُ بِاللَّهِ ...﴾
73	41	**النساء**	﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾
11	60		﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمُ ءَامَنُوا بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾
11	65		﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُومِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾
181	78		﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ ﴾
148	168		﴿الذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوَ اَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ﴾
202	03	**المائدة**	﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾
209	11		﴿ يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾
209	12		﴿ وَلَقَدَ اَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾
206	24		﴿ فَاذْهَبَ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾
24	27		﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ اَبْنَيَ . ادَمَ بِالْحَقِّ﴾
205	31-27		﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ اَبْنَيَ -ادَمَ بِالْحَقِ...﴾
208/206	32		﴿ مِنَ اَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآءِيلَ ﴾
209	34		﴿ اِلاَّ الذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ﴾
33	67		﴿يَآ أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾
202	116		﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَآنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾
202	119		﴿ هَذَا يَومَ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾
32	34	**الأنعام**	﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا ﴾
71/70	02	**الأعراف**	﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾
69	46		﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الاَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾
73	49		﴿ أَهَؤُلَآءِ الذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ﴾
42	59		﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنِ اِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾
181	131		﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ﴾

﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر... ﴾		166-163	74-73
﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة ﴾		167	74
﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ﴾		169	78
﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظلّة ﴾		171	87
﴿ وإذ أخذ ربك من بني ءادم من ظهورهم ذريّاتهم ﴾		172	87/ 81
﴿ واتل عليهم نبأ الذي ءاتيناه ءاياتنا فانسلخ منها ﴾		175	24
﴿ واتل عليهم نبأ الذي ءاتيناه ءاياتنا فانسلخ منها.. ﴾		176-175	82 /81
﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾		176	30
﴿ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بئاياتنا ... ﴾		178-177	82
﴿ وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه ﴾	**الأنفال**	34	127
﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ﴾	**التوبة**	19	127
﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها... ﴾		35-34	267
﴿ يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾		119	203
﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ﴾	**هود**	49	38/33/25
﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ﴾		100	35
﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ﴾		120	31
﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾	**يوسف**	102	26
﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾		111	37/34/31
﴿ وءاتاكم من كلّ ما سألتموه ﴾	**إبراهيم**	34	142
﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت ءامنة ﴾	**النحل**	112	26
﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت ءامنة مطمئنة ... ﴾		113-112	117
﴿ إن هذا القرءان يهدي للتي هي أقوم ﴾	**الإسراء**	09	200
﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن ﴾		88	36
﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾		105	34
﴿ فلعلك باخع نفسك على ءاثارهم ... ﴾	**الكهف**	08-06	93

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾		13	25
﴿ امْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ﴾		09	89
﴿ امْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ...﴾		26-09	93
﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ اِنِّي فَاعِلٌ ذَالِكَ غَدًا اِلاَّ أَنْ يَّشَاءَ اللَّهُ﴾		24-23	89
﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا...﴾		27-26	94
﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ ﴾		28	214
﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾		29	213
﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ ﴾		32	27
﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ ... ﴾		44-32	213
﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...﴾		46-45	214
﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ ... ﴾		82-60	219
﴿ فَارْتَدَّا عَلَىٰ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾		64	21
﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾		83	89 / 24
﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ...﴾		98-83	157
﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾		107	42
﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾		109	236-221
﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّاءَ ﴾	مريم	03-02	102
﴿ وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾		13	102
﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ...﴾		33-16	102
﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾		32	102
﴿ذَالِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلُ الْحَقِّ الذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾		34	104
﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾		96	102
﴿ قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ﴾	طه	21	245
﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ... ﴾		40-37	237
﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَىٰ... ﴾		41-36	239

﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِيَ ﴾		41	261
﴿ اذْهَبَ انتَ وَأَخُوكَ بِئَايَتِي ...﴾		43-42	244
﴿ قَالاَ رَبَّنَآ إِنَّنَا **نَخَافُ** أَنْ يَّفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوَ اَنْ يَّطْغَىٰ ﴾		46-45	245
﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ اَنبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ﴾		99	25/ 29
﴿ وَخَشَعَتِ الاَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾		108	239
﴿وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾		111	239
﴿ فَمَنِ اِتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَىٰ﴾		123	200
﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُواْ لِلرَّحْمَنِ قَالُواْ وَمَا الرَّحْمَنُ﴾	**الفرقان**	60	102
﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الاَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾	**الشعراء**	195-193	16
﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ...﴾	**النمل**	51-48	123
﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الاَرْضِ ﴾	**القصص**	04	123
﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الاَرْضِ..﴾		6-5	248
﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ ... ﴾		13-07	237
﴿ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾		11	20
﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ... وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾		28-22	252
﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾		25	240
﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ ... ﴾		46-44	33+ 38
﴿ الذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُومِنُونَ ﴾		52	240
﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾		55	240
﴿ وَكَمَ اَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾		58	264
﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا.. ﴾		61-60	265
﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيَ ﴾		78	216
﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ... ﴾		82-76	264
﴿ تِلْكَ الدَّارُ الاَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا...﴾		84-83	265-263
﴿ إِنَّ الذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾		85	240

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ ﴾	**العنكبوت**	45	174
﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ... ﴾	**لقمان**	7-6	167 172/170/
﴿ وَلَقَدَ ءاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ... ﴾		19-12	169
﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ ﴾		20	170
﴿ وَلَوَ اَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ اَقْلَامٌ ﴾		27	169
﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾		34	169
﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً ﴾	**سبأ**	10	116
﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمُ ءَايَةٌ ... ﴾		19-15	112
﴿ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمُ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ...﴾		21-20	113-112
﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمُ ءَاَنذَرْتَهُمُ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُومِنُونَ ﴾	**يس**	10	183
﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً اَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ﴾		13	27
﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً اَصْحَابَ الْقَرْيَةِ ... ﴾		29-13	178
﴿ يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ... ﴾		32-30	179
﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئًا اَنْ يَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾		82	141
﴿قُرءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾	**الزمر**	28	16
﴿ مَا يُجَادِلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الذِينَ كَفَرُوا ﴾	**غافر**	04	197
﴿ وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِئَايَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ...﴾		24-23	266
﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّومِنٌ مِّنَ ءالِ فِرْعَوْنَ ...﴾		47-28	189/187
﴿ اِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالذِينَ ءَامَنُوا...﴾		52-51	196
﴿ فَاصْبِرِ اِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ...﴾		55	197
﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ ﴾	**الزخرف**	31	265
﴿ذُقِ اِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾	**الدخان**	49	10
﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾	**الحديد**	13	69
﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا اِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾	**الحشر**	14	142
﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾	**القلم**	05	273
﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ... ﴾		15-07	273

﴿ فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ..﴾		15-08	273
﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ... ﴾		32-17	274
﴿ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الاَخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾		33	275
﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾		35	274
﴿ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ...﴾	**البروج**	03-01	121
﴿ إِنَّ الذِينَ فَتَنُوا الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا.. ﴾		11-10	122
﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ... ﴾		20-12	123
﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾		22-21	120
﴿ لآَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾	**البلد**	02-01	130
﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾	**الشرح**	01	70
﴿ إِنَّ الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾	**البينة**	07	42
﴿ كَلاَّ إِنَّ الاِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴾	**العلق**	06	217
﴿ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾	**الهمزة**	04	128
﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾	**الفيل**		130-129

فهرس الأحاديث النبويّة

طرف الحديث	المصدر	الصفحة
« الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته ... »	مسلم	42
« أسق يا زبير، ثم أرسل الماء إلى جارك »	البخاري	11
« أفلا أكون عبدا شكورا ... »	صحيح ابن حبان	07
« اقرأوا يس على موتاكم »	سنن أبو داود	177
« إنّ لكل شـيء سـناما وسـنام القرآن سـورة البقرة...»	الحاكم ومصنف عبد الرزاق والبيهقي	143
« إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا، وَقَلْبُ الْقُرْآنِ يس... »	سنن الترمذي	178
« بينما موسى في ملإ من بني إسرائيل... »	البخاري ومسلم	220
« قام موسى عليه السلام خطيبا... »	البخاري ومسلم	221
« لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود... »	ابن كثير	77
« لا يقل أحدكم عبدي أَمتي ... »	البخاري	225
« من حفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف.. »	مسلم وأبو داود	90
« من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا »	صحيح البخاري	151
« من قرأ حم المؤمن إلى ﴿إليه المصير﴾...»	سنن الترمذي	185
« من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة ... »	البيهقي والحاكم	92

قائمة المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم رواية ورش عن نافع

ثانيا: مصادر التفسير

1 أبو حيان محمد بن يوسف بن علي أثير الدين الأندلسي، **البحر المحيط في التفسير**، تحق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت – لبنان، ط:1420هـ.

2 اطفيش، امحمد بن يوسف، **تيسير التفسير**، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ط: 1408هـ/ 1988م.

3 الألوسي شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم** والسبع المثاني، تحق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت – ط:1، 1415هـ.

4 البقاعي إبراهيم بن عمر بن حسن، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة – مصر–، ط: د ت ط.

5 البيضاوي أبو سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط:1، 1418 هـ.

6 بيوض إبراهيم بن عمر، **في رحاب القرآن**، جمعية التراث القرارة، المطبعة العربية، غرداية – الجزائر - ط: 1423هـ-2002م.

7 دروزة محمد عزت، **التفسير الحديث**، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة – ط:1، 1383 هـ - 1964م.

8 الرازي فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن، **مفاتيح الغيب**، دار إحياء التراث العربي – بيروت- ط:3 ، 1420هـ.

9 الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، دار الكتاب العربي – بيروت- ط: 1407هـ.

10 السعدي عبد الرحمن بن ناصر، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تح: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط:1، 1420هـ -2000م.

11 أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، دار إحياء التراث العربي – بيروت-، د س ط.

12 سعيد حوى، **الأساس في التفسير**، دار السلام – القاهرة – ط:6، 1424هـ.

13 السمين الحلبي أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم، **عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ**، تحق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، ط:1، 1417 هـ - 1996م.

14 سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، **في ظلال القرآن**، دار الشروق-القاهرة- مصر، ط: 17- 1412هـ.

15 السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، دار الفكر – بيروت – د س ط.

16 الشّعراوي محمد متولي، **تفسير الشعراوي** – الخواطر - مطابع أخبار اليوم، د س ط.

17 الشعراوي، محمد متولي، **سورة الكهف**، دار أخبار اليوم، قطاع الثقافة، القاهرة- مصر- ط: د ت ط.

18 شلتوت محمود، **تفسير القرآن الكريم: الأجزاء العشرة الأولى**، دار الشروق، القاهرة، ط12: 1424هـ، 2004م.

19 شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، **حَاشِيةُ الشِّهَابِ** عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي، دار صادر – بيروت – د س ط.

20 الطباطبائي السيد محمد حسين، **الميزان في تفسير القرآن**، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان – ط:5، 1403هـ-1983م.

21 الطبري أبو جعفر محمد بن جرير، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط:1، 1420هـ - 2000م.

22 ابن عاشور محمد الطاهر بن محمد، **التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر – تونس- د ط، 1984هـ.

23 ابن عطية أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت- ط:1، 1422 هـ.

24 القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن**، تحق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة – ط:2، 1384هـ- 1964م.

25 ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط:2، 1420هـ - 1999م.

26 كعباش محمد بن إبراهيم سعيد، **نفحات الرحمن في رياض القرآن**، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، ط: 1، 1425هـ/ 2004م.

27 محمد رشيد بن علي رضا، **تفسير القرآن الحكيم -تفسير المنار**- الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: 1990م.

28 محمود البستاني، **التّفسير البنائي للقرآن الكريم**، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، ط:1، 1422هـ.

29 مصطفى مسلم وآخرون، **التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم**، ط1، الامارات: جامعة الشارقة، 1431هـ-2001م.

ثالثا: مصادر الحديث

1 البخاري محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي، صحيح البخاري، تحق: د.مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت- ط:3 ، 1407 – 1987م.

2 أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، **المصنف**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي- الهند – ط:2، 1403هـ.

3 البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، **السنن الكبرى**، تحق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان- ط:3، 1424هـ – 2003م.

4 البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، **شعب الإيمان**، تحق: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط:1 1423هـ- 2003م.

5 الترمذي محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الجامع الكبير – **سنن الترمذي**، تحق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت- لبنان، ط: 1998م.

6 الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد، **المستدرك على الصحيحين**، تحق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت – ط:1، 1411 – 1990م.

7 ابن حبان محمد بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، **صحيح ابن حبان** بترتيب ابن بلبان، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت- لبنان، ط:2، 1414 – 1993م.

8 ابن حجر أحمد بن علي أبو الفضل العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة – بيروت- 1379هـ.

9 مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، **صحيح مسلم**، تحق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت- لبنان، د س ط.

رابعا: مصادر علوم القرآن والقصة

1 إبراهيم عوضين، **البيان القصصي في القرآن**، دار الأصالة، الرياض–السعودية–ط: 2، 1990م.

2 أحمد نوفل، تفسير سورة القصص – دراسة تحليلية موضوعيّة – جمعية المحافظة على القرآن الكريم، الأردن، ط:3، 1436هـ- 2015م.

3 ابن جزي محمد بن أحمد، الكلبي الغرناطي، **التسهيل لعلوم التنزيل**، تح: د.عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت- لبنان، ط:1، 1416هـ.

4 ابن الزبير الغرناطي أحمد بن إبراهيم، **البرهان في تناسب سور القرآن**، تحق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية . المغرب، 1410 هـ - 1990م.

5 البقاعي إبراهيم بن عمر بن حسن، **مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور**، تحقيق: عبد السميع محمد أحمد حسنين، دار المعارف، الرياض–السعودية- ط:1، 1408هـ،1987م.

6 أبو بكر الباقلاني محمد بن الطيب، **إعجاز القرآن**، قدم له وشرحه وعلق عليه: الشيخ محمد شريف سكر، دار إحياء المعارف–بيروت- لبنان، ط:1، 1408هـ/1988م.

7 حمودة، عبد العزيز حمودة، **الخروج من التّيه دراسة في سلطة النصّ**، مطابع السّياسة، الكويت، ط:1، 1424هـ/ 2003م.

8 خالد بن سليمان المزيني، **المحرر في أسباب نزول القرآن** من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية، دار ابن الجوزي، الدمام – السعودية – ط:1، 1427هـ - 2006م.

9 دراز محمد بن عبد الله، **النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم**، اعتنى به : أحمد مصطفى فضلية، دار القلم للنشر والتوزيع، ط: 1426هـ- 2005م.

10 الذهبي محمد السيد حسين، **التفسير والمفسرون**، مكتبة وهبة، القاهرة، د س ط.

11 الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، تحق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت- ط:1، 1412هـ.

12 الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ط:1، 1376 هـ - 1957م.

13 زكية محمد خالد أحمد، **التشابك القصصي في سورة الكهف**، كلية الدراسات الاسلامية والعربية دبي –الامارات- ط: 1429هـ-2008م.

14 سعيدة الرجاني، **مفهوم القصص في القرآن الكريم- دراسة مصطلحيّة-** عالم الكتب الحديث- الأردن- ط: 1، 2019م.

15 سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، **التّصوير الفني في القرآن الكريم**، دار الشروق، القاهرة- مصر- د.س.ط.

16 السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: د ر ط، 1394هـ/ 1974م.

17 صــلاح عبد الفتاح الخالدي، **الشّــخصــية اليهودية من خلال القرآن الكريم**، دار القلم- دمشق- ط: 2، 1434هـ- 2013م.

18 صلاح عبد الفتاح الخالدي، **مع قصص السابقين في القرآن**، دار القلم – دمشق – ط: 5، 1428هـ - 2007م.

19 الطوفي، ســليمان بن عبد القوي، **الإكســير في علم التفســير**، تحق: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة- مصر – ط: 2، 1977م.

20 عبد الكريم الخطيب، **القصــــص القرآني في منطوقه ومفهومه**، دار المعرفة للطباعة و النشـر بيروت –لبنان- ط:2، 1395هــــ-1975م. شـوقي أبو خليل، **أطلس القرآن**، دار الفكر-بيروت- ط: 16، 1435هـ، 2014م.

21 عمر علي حسّــان عرفان، **دلالة أسماء الســور القرآنية على محاورها وموضــوعاتها**، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق – سوريا - ط:1، 1439هـ، 2018م.

22 عمر محمد عمر باحاذق، **الجانب الفني في قصــــص القرآن الكريم**، دار المأمون لتراث، بيروت، ط:1، 1413هـ 1993م.

23 فضل حسن عباس، **إتقان البرهان في علوم القرآن**، دار النّفائس -الأردن- ط: 2، 1340هـ/2010م.

24 فضــل حســن عباس، **قصــص القرآن الكريم**، دار النفائس للنشـر والتوزيع، الأردن، ط:2، 1427هـ-2007م.

25 فهد الرومي، **منهج المدرسة العقلية الحديثة في التّفسير**، مؤسسة الرسالة بيروت، ط:2، 1407هـ.

26 قطب محمد قطب، **دراســات قرآنية**، بيروت لبنان، دار الشــروق، ط:4، 1303هـ/1983م.

27 المثنى عبد الفتاح محمود، **نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية دلالية نقدية**، دار وائل للنشر، الأردن، ط:1، 1429هـ، 2008م.

28 محمد جابر الفياض، **الأمثال في القرآن الكريم**، الدار العالمية للكتاب الإسلامي الرياض – السعودية – ط:2، 1415هـ، 1995م.

29 محمد خير محمود العدوي، **معالم القصّة في القرآن الكريم**، دار العدوي، عمان- الأردن- ط:1، 1988م.

30 محمود البستاني، **دراسات فنيّة في قصص القرآن**، دار البلاغة، بيروت، ط:1، 1409هـ - 1989م.

31 مصطفى محمود، **من أسرار القرآن**، دار العودة، بيروت، لبنان، ط: 1976.

32 المطعني عبد العظيم إبراهيم، **التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم**، مكتبة وهبة، القاهرة – مصر – ط:1، 1420هـ / 1999م.

33 الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي النيسابوري، **أسباب نزول القرآن**، تحق:عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح – الدمام- السعودية، ط:2، 1412هـ - 1992م.

خامسا: مصادر اللغة

1 إبراهيم مصطفى ـ أحمد الزيات ـ حامد عبد القادر ـ محمد النجار، **المعجم الوسيط**، تحق: مجمع اللغة العربية دار الدعوة. د ط.

2 ابن دريد، محمد بن الحسن أبو بكر الأزدي، **جمهرة اللغة**، تحقق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت- ط:1، 1987م.

3 الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، **أساس البلاغة**، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان- ط:1، 1419 هـ - 1998م.

4 الأزهري أبو منصــور محمد بن أحمد، **تهذيب اللغة**، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت- ط: 1، 2001م.

5 أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهي، **كتاب العين**، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

6 ابن فارِس أبي الحســين أحمد بن زَكَرِيّا، **مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السَّــلام محمد هَارُون، اتحاد الكتاب العرب، ط: د ر ط، 1423 هـ / 2002م.

7 الفيروزآبادى مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان- ط:8، 1426 هـ - 2005م.

8 المطَرِّزِىّ أبو الفتح ناصر بن عبد السيد أبى المكارم ابن على(ت610هـــ)، **المُعرب**، دار الكتاب العربي، د ط.

9 ابن منظور أبو الفضل محمد بن مكرم بن على، **لسان العرب**، دار صادر – بيروت- ط:3 – 1414هـ.

سادسا: مصادر العقيدة والفقه والدعوة

1 ابن دقيق العيد محمد بن علي بن وهب تقي الدين، **إحكام الإحكام شـــرح عمدة الأحكام**، مطبعة السنة المحمدية،د س ط.

2 ســـليمـان عمر الأشـــقر، **العقيـدة في الله**، دار النفـائس، الأردن، ط:12، 1419هـ/1999م.

3 الشـــاطبي إبراهيم بن موســـى بن محمد اللخمي الغرناطي، **الموافقات**، تح: أبو عبيدة مشـــهور بن حســـن آل ســـلمان، دار ابن عفان، ط:1، 1417هـــــ/ 1997م.

4 علي محفوظ، **هداية المرشـدين إلى طرق الوعظ والخطابة**، دار الاعتصـــام، ط: 9، 1399هـ – 1979م.

5 ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر، **مدارج الســـالكين** بين منازل إياك نعبد وإياك نســـتعين، تحق: محمد المعتصـــم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي – بيروت – ط:3، 1416 هـ - 1996م.

6 ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر بن أيوب، **بدائع الفوائد**، تح: هشـــــام عبد العزيز عطا –عادل عبد الحميد العدوي –أشرف أحمد، مكتبة نزار مصطفى الباز -مكة المكرمة–ط:1، 1416 – 1996م.

سابعا: الدراسات الأكاديمية

1 حســـن بن صـــالح الحميد، **ســـنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم**، دار الفضيلة، الرياض–السعودية– ط:2، 1432هـ، 2011م.

2 عبد الباسـط محمد عبده إبراهيم بلبول، **القصـص القرآني** (رسـالة دكتوراه) إشـراف د. علي محمود خليل، جامعة الأزهر الشـريف، كلية أصـول الدين. القاهرة –مصـر– ط: د ت ط.

3 عبد الرحمن عبد الله سـرور جرمان المطيري، **السـياق القرآني و أثره في التفسـير،** دراسة نظرية وتطبيقية من خلال تفسير ابن كثير، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى كلية أصول الدين.

4 عواطف حمزة خياط، **بناء المعاني وعلاقاتها في سـورة الأعراف (رسـالة دكتوراه)** جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، السعودية، 1424هـ.

5 مريم عبد القادر عبد الله السباعي، **القصّة في القرآن الكريم، رسالة دكتوراه** إشراف أ. د. أحمد أحمد غلوش، 1404هـ.

ثامنا: المجلات

1 قاسم محمود رياض، الداعية الإيجابي في ضوء القرآن الكريم، **مجلة الجامعة الإسلامية** للدراسات الإسلامية بغزّة، المجلد الثاني، العدد:2، جوان 2014م.

فهرس المحتويات

إهداء..........أ

شكر وتقدير..........ب

مقدّمة: ....ج

أهمّية البحث: ....د

إشكالية البحث:..........د

أهداف البحث:..........هـ

أسباب اختيار الموضوع: ....هـ

حدود الدّراسة: ....و

منهجية الدّراسة:..........و

صعوبات البحث: ....ز

مناهج البحث: ....ح

الدّراسات السابقة: ....ح

عرض خطّة البحث: ....ي

الفصل الأوّل: تحديد مفاهيم الدّراسة.......... 1

المبحث الأوّل: السّياق القرآني أنواعه، أهميّته، وضوابطه 2

المطلب الأوّل: مفهوم السياق لغة واصطلاحا 2

المطلب الثاني: أنواع السياق.......... 5

المطلب الثالث: أهمية السّياق القرآني في التفسير 9

المطلب الرابع: ضوابط السّياق 14

المبحث الثاني: مفهوم القصّة القرآنيّة وبيان أهدافها وخصائصها 20

المطلب الأوّل: تعريف القصّة القرآنيّة.......... 20

المطلب الثاني: مرادفات مصطلح القصص في القرآن الكريم.......... 24

المطلب الثالث: مفهوم قصص غير الأنبياء 28

المطلب الرابع: من أهداف القصّة القرآنيّة 30
المطلب الخامس: من خصائص القصّة القرآنيّة............................. 32
خلاصة الفصل:.. 39
الفصل الثّاني: أثر السّياق في بيان المعاني العقديّة الإيمانية للقصص.......... 41
تمهيد:.. 42
المبحث الأوّل: قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة 44
المطلب الأول: سياق سورة البقرة.. 44
المطلب الثّاني: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة 50
المبحث الثاني: قدرة الله على البعث والنّشور 52
المطلب الثاني: سياق المقطع.. 52
المطلب الثالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة....................... 56
المبحث الثالث: وحدانية الله.. 58
المطلب الأول: سياق السورة 58
المطلب الثاني: سياق المقطع.. 62
المطلب الثّالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة....................... 67
المبحث الرابع: عاقبة عدم الثّبات على الحقّ بعد معرفته والتّحايل على أوامر الله.......... 69
المطلب الأول: سياق سورة الأعراف 69
المطلب الثاني: سياق المقطع.. 73
المطلب الثّالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة....................... 77
المطلب الرّابع: تحكيم السّياق في بعض قضايا القصّة 79
المبحث الخامس: عاقبة من أنعم الله عليه بالآيات ولم يثبت على الحقّ 81
المطلب الأوّل: سياق المقطع.. 81
المطلب الثاني: علاقة سياق القصة بسياق السورة............................... 85
المطلب الثالث: تحكيم السياق في بعض قضايا القصّة 86

المبحث السادس: ابتلاء الله للمؤمن في دينه وسبل الثّبات على الإيمان 89
المطلب الأول: سياق سورة الكهف 89
المطلب الثّاني: سياق المقطع.. 93
المطلب الثّالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة............................ 97
المطلب الرّابع: تحكيم السّياق في بعض قضايا القصّة 99
المبحث السابع: كمال قدرة الله تعالى على الخلق والتّكوين.......................... 100
المطلب الأول: سياق سورة مريم 100
المطلب الثاني: سياق المقطع... 102
المطلب الثالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة........................... 107
المبحث الثامن: حكمة الله تعالى في الابتلاء بالعطاء والمنع 110
المطلب الأوّل: سياق سورة سبأ 110
المطلب الثاني: سياق المقطع... 112
المطلب الثالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة........................... 116
المبحث التاسع: قيمة التّضحية في سبيل الله والثّبات على الحقّ 118
المطلب الأول: سياق سورة البروج 118
المطلب الثاني: سياق المقطع... 121
المطلب الثالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة........................... 125
المبحث العاشر: رعاية الله لبيته المقدّس... 127
المطلب الأول: تقدمة للقصّة والسّورة 127
المطلب الثاني: عرض أحداث القصّة... 129
المطلب الثالث: تحليل أحداث القصّة 130
المطلب الرابع: سياق القصّة 133
خلاصة الفصل:... 134
الفصل الثالث: أثر السّياق في بيان المعاني المتعلّقة بالجانب الدّعوي في القصص 135

تمهيد: 136
مفهوم الجانب الدعوي في القصص: 136
المبحث الأوّل: دعوة الله تعالى إلى الجهاد في سبيله 138
المطلب الأوّل: سياق المقطع 138
المطلب الثّاني: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة 143
المطلب الرّابع: تحكيم السّياق في بعض قضايا القصّة 145
المبحث الثاني: متطلبات الجهاد والصّبر عليه 147
المطلب الأول: سياق المقطع 147
المطلب الثاني: الجمع بين سياق القصّتين وبيان علاقته بالسّياق العام للسّورة 152
المطلب الثالث: تحكيم السّياق في بعض القضايا المتعلقة بالقصّتين........................ 154
المبحث الثّالث: السّعي لنشر الدّعوة والابتلاء بالملك 157
المطلب الأول: سياق المقطع 157
المطلب الثاني: علاقة سياق القصة بالسّياق العام للسّورة 163
المطلب الثالث: تحكيم السياق في بعض قضايا القصّة 165
المبحث الرّابع: أسلوب الدعوة ومضمونها 167
المطلب الأول: سياق السورة 167
المطلب الثاني: سياق المقطع.. 169
المطلب الثّالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة..................................... 174
المطلب الرابع: تحكيم السّياق في بعض قضايا القصّة 176
المبحث الخامس: مجادلة الرسل وثواب تأييد دعوتهم 177
المطلب الأول: سياق سورة يس 177
المطلب الثاني: سياق المقطع.. 178
المطلب الثالث: علاقة سياق القصة بالسّياق العام للسّورة..................................... 183
المطلب الرابع: تحكيم السّياق في بعض قضايا القصّة 184

المبحث الخامس: تأييد دعوة الرّسل بالموعظة.. 185

المطلب الأوّل: السياق العام لسورة غافر 185

المطلب الثاني: سياق المقطع.. 187

المطلب الثاني: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة 195

خلاصة الفصل:.. 198

الفصل الرّابع: أثر السّياق في بيان المعاني المتعلّقة بالجانب الاجتماعي في آيات القصص 199

تمهيد: 200

مفهوم الجانب الاجتماعي الأخلاقي:.. 200

المبحث الأوّل: خطورة الحسد في السلوك البشري وعاقبته 202

المطلب الأول: السياق العام لسورة المائدة.. 202

المطلب الثاني: سياق المقطع.. 205

المطلب الثّالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة.. 208

المطلب الرّابع: تحكيم السّياق في بعض قضايا القصّة 212

المبحث الثاني: الابتلاء بالمنع والعطاء.. 213

المطلب الأول: سياق المقطع.. 213

المطلب الثاني: علاقة سياق القصة بسياق السورة.. 217

المبحث الثالث: أحوال العالم والمتعلّم 219

المطلب الأوّل: سياق المقطع.. 219

المطلب الثاني: تحليل أحداث القصّة 223

المطلب الثالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة.. 235

المبحث الرابع: صفات الشّخصيّة المؤمنة الصّابرة.. 237

المطلب الأوّل: قصّة أمّ موسى كما عرضها القرآن الكريم.. 237

المطلب الثاني: سياق المقطع.. 242

المبحث الخامس: الآداب الاجتماعية 252

المطلب الأوّل: سياق المقطع 252

المطلب الثاني: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة 261

المبحث السادس: عاقبة مسلك البغي والطّغيان المالي................................ 264

المطلب الأول: سياق المقطع.. 264

المطلب الثالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة........................ 270

المبحث السابع: الابتلاء بالخير وعاقبة منع حقوق الغير 272

المطلب الأول: السياق العام لسورة القلم 272

المطلب الثاني: سياق المقطع.. 274

المطلب الثالث: علاقة سياق القصّة بالسّياق العام للسّورة........................ 278

خلاصة الفصل:... 280

خاتمة: 281

التّوصيات: 284

فهرس الآيات القرآنية 285

فهرس الأحاديث النبويّة 293

قائمة المصادر والمراجع 294

الملخص:.. 311

الملخص:

لقد اهتمت هذه الدّراسة بالبحث في موضوع متعلّق بأصل من أصول التّفسير ألا وهو السّياق القرآني، لما له من أهميّة بالغة في الكشف عن مراد الله من كلامه، وأداة لضبط فهم المتلقّي، ولما كان القصص من أهمّ المحاور التّي اهتمّ بها القرآن الكريم حيث شغل قرابة الرّبع منه فقد حاول الباحث بيان المعاني التّي تضمّنتها القصّة القرآنية بدراستها على ضوء نظريّة السّياق القرآني وخصّ بالدّراسة قصص غير الأنبياء كمجال جديد في الموضوع.

وقد تناول الباحث في الشقّ النّظري من الدّراسة ضبط مفهوم السّياق القرآني وأنواعه ومفهوم القصّة القرآنية وقصص غير الأنبياء، وأنّ المراد منها تلك الوقائع المتعلّقة بقصص الأمم السّابقة لنماذج بشريّة تحمل قيما يمكن الاستفادة منها في مجالات مختلفة.

أمّا في الجانب التّطبيقي فقد تناول في ثلاثة فصول أثر السّياق في بيان معاني قصص غير الأنبياء وهي المعاني العقديّة الإيمانية، المعاني الدّعوية، المعاني الاجتماعية التربويّة.

وخلصت الدّراسة إلى مجموعة من النّتائج منها أنّ السّياق القرآني أصل من أصول التّفسير ولا غنى للمفسّر عنه بحال، وأنّ السّياق القرآني بأنواعه كان له دور بارز في بيان معاني قصص غير الأنبياء في جوانب مختلفة عقدية ودعوية واجتماعية...، وتظهر أهمية السّياق أيضا في نقد الرّوايات التّي تتصادم مع روح القرآن الكريم، والبعيدة عن المعنى الصّحيح لمراد الله من كلامه.

الكلمات المفتاحية: السّياق، القصص القرآني، قصص غير الأنبياء.

Abstract

This study focused on investigating the Qur'anic context, because of its great importance in revealing God's will from his words, and controlling the understanding of the recipient. Since stories are one of the most important topics that the Holy Qur'an was concerned with, the researcher tried to explain the meanings contained in the Qur'anic story by studying it in the light of the theory of the Qur'anic context, and he specified the study of stories other than the prophets.

In the theoretical part of the study, the researcher dealt with clarifying the concept of the Qur'anic context and its types, the concept of the Qur'anic story and stories other than the prophets, and that what is meant are those facts related to the stories of previous nations of human models that carry values that can be used in different fields.

As for the practical side, it dealt in three chapters with the impact of context in explaining the meanings of stories other than the prophets, which are the doctrinal meanings of faith, the da'wah meanings, and the social and educational meanings.

The study concluded with a set of results, including that the Qur'anic context is one of the foundations of interpretation and is indispensable to the interpreter in any case, and that the Qur'anic context of all kinds had a prominent role in explaining the meanings of stories other than the prophets in various doctrinal, advocacy and social aspects. The importance of context also

appears in the criticism of Narratives that contradict the spirit of the Noble Qur'an, and those far from the correct meaning of what God intended from his words.

Keywords: **The context**, **Qur'anic narratives**, **other than prophets narratives**.

تم بحمد الله